المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

مدينة القيروان في عهد الأغالبة

"١٨٤هـ - ٢٩٦هـ"

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه
في التاريخ الاسلامي

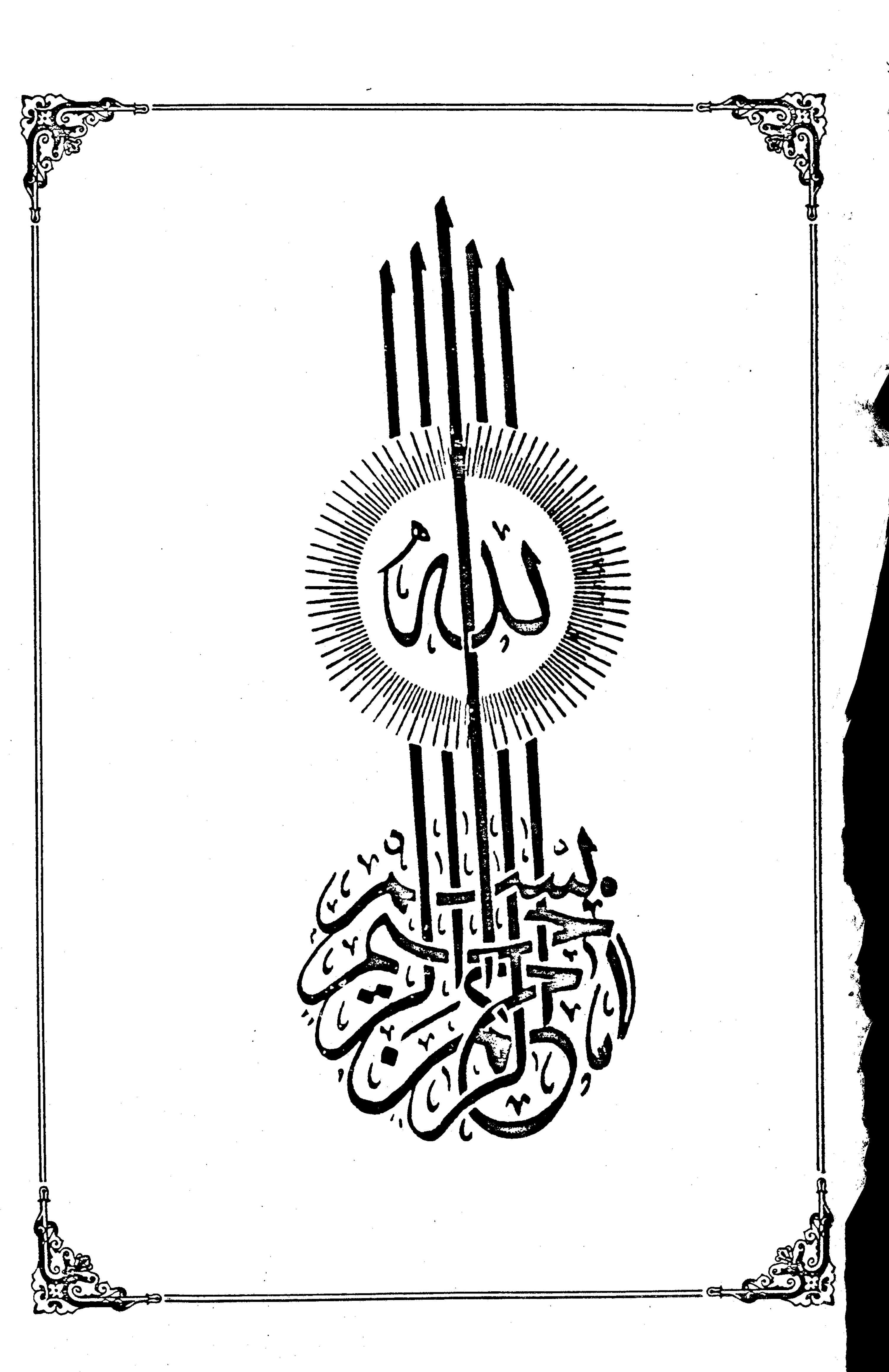
إعداد
فاطمة عبد القادر رضوان

اشراف الاستاذ
الدكتور / أحمد السيد دراج

١٤١٢هـ - ١٩٩١م






الله
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة

مدينة القيروان في عهد الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ)

لم تؤد مدينة من مدن المغرب الاسلامي دوراً محموداً لمنطقة الشمال الافريقي كما أدت مدينة القيروان خاصة في فترة حكم الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) ولهذا تتضح أهمية دراستنا لهذه المدينة كمركز هام في تاريخ المسلمين في بلاد المغرب .

تناولت الدراسة التي بين أيدينا تمهيداً وأربعة فصول وخاتمة أوضحت في التمهيد وضع القيروان منذ الفتح الاسلامي وما حدث في تلك الحقبة حتى زمن ولاية بني الأغلب (٢١-١٨٤هـ) وفي الفصل الأول تحدثنا عن التطور العمراني للقيروان ومنشآت الأغالبة العمومية والدينية وعني الفصل الثاني بدراسة التكوين الإجتماعي للقيروان حيث تعدد العناصر البشرية المكونه لذلك المجتمع . أما الفصل الثالث فشمل الحياة العلمية بكل فروعها الشرعية والأدبية والتاريخية والجغرافية والطبيعية . وأخيراً جعلت الفصل الرابع لدراسة الحياة الإقتصادية في القيروان من زراعة وصناعة وتجارة وأسواق ومهمة المحتسب والنظم المالية والتجارية ونقود الأغالبة . ثم ختمت الدراسة بخاتمة أبرزت فيها أهم النتائج لدراستنا لتلك المدينة في تلك الحقبة .

واتضح لنا بعد تلك الدراسة جهود الأغالبة الجبارة لتحقيق الرخاء والاستقرار والنماء والأزدهار للقيروان خاصة وافريقية عامه فقد كان للأمن أثره الكبير في دفع الحركة العمرانية التي بدت آثارها واضحه في المنافع العامه والقصور الفاخرة وفي التجديدات التي أدخلت على مسجد عقبة بن نافع . كما أدى الترابط بين أفراد المجتمع على أختلاف فيئاتهم وأجناسهم الى تكاتف دفع بالحياة العلمية قدماً فأدى العلماء دورهم على أكمل وجه حتى غدا للقيروان علماء ودراسات ومؤلفات في مختلف فروع المعرفه وأهم من هذا جهودهم في جعل افريقية على المذهب السني . كما أدى ذلك الترابط الى نشاط كبير في الزراعة والصناعة والتجارة وغدت أسواق القيروان متألقة أدى المحتسب فيها دوره بضبط جميع المعاملات فيها حسب الشريعة الاسلامية . وقد ساهمت النظم المالية والتجارية في اطراد الحركة الاقتصادية بكل فروعها . وكان لجودة عملة الأغالبة أثره في أزدهار اقتصاد القيروان اضافة الى فتح الأغالبة لجزيرة صقلية وسيطرتهم على الحوض الغربي للبحر المتوسط واهتمامهم بالنقل البحري كل ذلك أسهم في بلوغ القيروان شأواً عظيماً في الناحية الإقتصادية حتى بدت أثاره واضحه على جميع أوجه الحياة فيها . ولهذا كانت تلك الفترة جديرة بأن تعرف بعصر الأزدهار الحضاري .

الطالبة	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
الاسم فاطمة عبدالقادر صوابر	الاسم الطاهر السيد	
التوقيع	التوقيع	د. عابد بن محمد السفياني

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

اهداء

الى كل شباب المسلمين أهدي لهم تاريخاً حافلاً بالبطولات مليئاً بالتضحيات خطه وسطره قادة وعلماء وولاة وعلماء وأمراء جعلوا من أرض الشمال الافريقي ولاية اسلامية ، ومن القيروان مركز اشعاع حضاري ، **فإلى روح عقبة بن نافع واسماعيل عبيد الله وابراهيم بن الأغلب وعبدالله بن غانم وسحنون بن سعيد وعيسى ابن مسكين** دعوات بالخلد في جنات النعيم وكنف العظيم الرحيم حيث الريحان والرضوان والى شبابنا المسلم دعوة مفتوحة لليسر على خطى البواسل لتحقيق النصر لأمتنا السليبه .

شكر وتقدير

يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " وفي هذا المقام اتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني لأستاذي الفاضل الدكتور / **أحمد السيد دراج** الذي كان له بعد الله فضل اتمام واخراج عملي هذا في أحسن صورة أسأل الله تعالى أن يجعل عمله خالصاً لوجه تعالى ، ثقيلاً في ميزان حسناته يوم العرض الأكبر وأن يجزيه عنا خير الجزاء .

كما أقدم شكري **لزوجي الوفي** الذي دأب على تشجيعي والأخذ بيدي لمواصلة البحث والدراسة أدعو الله أن يجزيه خير الجزاء ويكرمه برضاه وتقواه اعترافاً وامتناناً مني على مساعدته لي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحابته ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين

أما بعد :

فان الدراسة لمدينة من المدن الإسلامية تبرز بالدرجة الأولى قيمة العقيدة الصحيحة والتصور السليم النابع من تلك العقيدة والمستهدف الى تسخير الطاقات البشرية وفق المنهج الذي يرتضيه خالق الكون ، وتنظيم العمل الأنساني لتعمير الكون ، والقيام بالدور الحقيقي للعبودية .لذا كان هدف المسلمين بعد فتح الأمصار انشاء المدن واقامة كل مستلزمات الحياة فيها من المسجد ودار الامارة والدمنات والاسواق والفنادق والخزانات والمواجل الى تسهيل الطرق وتأمنيها ، اضافة الى الاهتمام بالنواحي الادارية والقضائية والتعليمية

والدراسة للمدينة الاسلامية على درجة كبيرة من الأهمية . اذ عن طريقها تظهر النقلة الكبرى التى أحدثها الفاتح الجديد ، تلك النقلة التى تغير كل شئ بلا استثناء لأنها تغير بادئ ذي بدء الانسان الذى يعمر هذه المدينة ،ومن ثم سيتغير كل ما في المدينة وفقا لذلك التغير وتمشيا مع الفطرة السليمة الصافية .

والدراسة التي نحن بصددها هي دراسة لتاريخ (**مدينة القيروان في عهد الأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦هـ**) وقد استهدفنا منها ابراز دور القيروان في مجريات التاريخ الاسلامي

وفي الاسهام في بناء الحضارة الاسلامية اذ غدت في تلك الفترة بفضل عناية الدولة الأغلبية مركزآ سياسيا وحضاريا بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فقد كانت القيروان في افريقيه بمثابة الراس من الجسد ولذلك كانت محافظة الأغالبة عليها ، والتصدي لكل عدو يترصدها مما جعل الهيمنة في تلك المنطقة للدولة العباسية اسمياً وللأغالبة فعلياً . هذا الى جانب أن الأغالبة كان لهم فضل مَحمُود في المحافظة على افريقية (تونس حاليا) على المذهب السني مما كان له صداه وأثره الحسن الى وقتنا الحاضر . كما لقيت الناحية الأقتصادية عناية ملموسة في عهد بني الأغلب حتى أثمرت تلك الجهود في كافة فروع الحياة الاقتصادية وصارت القيروان وافريقية ايضآ قادرة علي الاكتفاء الذاتي بل ووصلت منتوجاتها المختلفة الى أسواق العالم الاسلامي.

وقد عنيت بدراسة مدينة القيروان في عهد الأغالبة من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتأثر كل جانب من تلك الجوانب بالآخر،وبذلك تكون صورة القيروان أشد وضوحاً بهذه النوعية من الدراسة ذلك أن أكثر من تقدم بدراسة القيروان كمدينة اما اختصت رسالته بالحياه الفكرية .كرسالة **محمد محمد زيتون** وموضوعها (القيروان ودورهافي الحضارة الاسلامية) وعلى نسقها رسالة **يوسف حواله** وموضوعها (الحياة العلمية في القيروان من الفتح حتي عهد الفاطمين)، واما كانت الدراسة لمدينة القيروان دراسة مذهبية عقائدية كدراسة **عبد العزيز المجذوب** وعنوانها (الصراع المذهبي بافريقيه حتى عصر بني زيري) ، ودراسة **أبي العزم داود** في رسالته التي موضوعها (الاثر السياسي والحضاري للمالكية في الشمال الافريقي) . واحيانا تقتصر الدراسة على الناحية السياسية كرسالة **محمد الطالبي** وعنوانها (الدولة الأغلبية التاريخ السياسي) . وكذلك دراسة **محمود اسماعيل عبد الرازق** وعنوانها (الأغالبة وسياستهم الخارجية) .

على أن تلك الدراسات وان لم يغفل فيها أصحابها الاشارة الي المؤثرات الاخرى التي تأثرت بها الناحية الى يكتبون فيها غير أنها كانت محدودة .

وقد تناول البحث **تمهيداً واربعة فصول وخاتمة** . أوضحت في **التمهيد** وضع القيروان منذ الفتح الاسلامي وما حدث في تلك الحقبة (من ٢١ هـ الى ١٨٤ هـ) من كر وفر جيوش المسلمين حتى تم تأسيس القيروان (٥٠ - ٥٥ هـ) حيث بدأ الفتح المنظم . وتكللت فتوحات المسلمين بمجهودات **حسان بن النعمان** السياسية والادارية ومجهودات **موسى بن نصير** بفتح كامل منطقة الشمال الافريقي بل وفتح بلاد الاندلس . فأمنت بذلك حدود الشمال الافريقي من جهة الاندلس واستقرت أوضاع هذه المنطقة . ثم أتبعت ذلك بالحديث عن ولاة بني أمية وبني العباس وما كان من ثورات البربر الخوارج ثم ثورات الجند الى أن أنتهى الأمر بتولي **ابراهيم بن الاغلب** امارة افريقيةعام ١٨٤هـ .

أما **الفصل الاول** فعنوانه (**التطور العمراني للقيروان في عهد بني الاغلب**) حيث تحدثت عن جهود الأغالبة في التصدي لكل خارج حرصاً على توفير الاستقرار والأمن للقيروان وأثر ذلك في واقبال الناس على السكن فيها ، ثم انشاء الاغالبة لمدينتي العباسيه سنة ١٨٥هـ رقادة سنة ٢٦٣هـ . وجهودهم في توسعة مسجد عقبة بن نافع في سنتي ٢٢١هـ ، ٢٦١هـ ، واهتماماتهم بالمنافع العامة في القيروان كالحمامات والمواجل .

وعنيت في **الفصل الثاني** بدراسة (**التكوين الاجتماعي لمدينة القيروان**) فتحدثت عن العوامل التي ساهمت في الزيادة السكانية لمدينة القيروان ثم الفئات المكونة للمجتمع : الأمراء - العلماء - الجند - التجار - عامة الشعب - أهل الذمة - الرقيق

- أصحاب الحرف والصنائع ، ثم أوضحت المؤثرات التى أثرت في التكوين الأجتماعي وطبقات المجتمع القيرواني والمظاهر الاجتماعية فيه .

وخصصت **الفصل الثالث** لدراسة **(الحياة العلمية في القيروان في عهد بني الأغلب)** وتحدثت فيه عن دور علماء القيروان الأجلاء في نشر مذهب الامام مالك رضي الله عنه، ثم دور أولئك العلماء في الدراسات الشرعية ، كما تناولت مجهودات علماء القيروان في الدراسات الأدبية ، وأخيراً تحدثت عن علماء القيروان والعلوم الطبيعية .

وفي **الفصل الرابع** عرجت على (النشاط الأقتصادي لمدينة القيروان في عهد الأغالبة) دور الأغالبة في تنشيط الحركة الزراعية وجهودهم في توفير كل الوسائل الكفيلة بانعاش ذلك الجانب .. ثم تطرقت الى الحركة الصناعية وازدهارها في عهدهم، وأتبعت ذلك بالحديث عن الحركة التجارية الداخلية والخارجية ، وكيف غدت القيروان وسيطاً تجارياً لنقل بضائع العالم الاسلامي الى مختلف المدن وأهم السلع التي أدت التجارة فيها الى الثراء الاقتصادي - الذهب والرقيق - ثم تحدثت عن دور اليهود في حركة التجارة وكيف كان لهم ثقل في حركة التجارة العالمية وفي استغلال رووس الأموال غن طريق الشركات التي أنشأوها في مختلف المراكز التجارية العالمية ، وتحدثت عن أسواق القيروان وتنظيمها والأسعار فيها ، ثم أبرزت دور المحتسب في الأشراف على النشاط التجاري والمالي رغبة في نقاء العمليات الأقتصادية من الربا والتدليس . وخصصت جزءاً من الفصل للتحدث عن النظم التجارية كالوكالة والفنادق والشركات . والصكوك . والصيرفة - والعمليات المصرفية ، وأخيراً ألقيت الضوء على نقود الأغالبة ودور الضرب في عهدهم .

وختمت البحث **بخاتمة** ذكرت فيها أهم ما توصلت اليه في دراسته من نتائج اعتمادا على أهم المصادر والمراجع التي تمكنت من استخدامها .

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع

لقد اعتمدت في كتابة هذه الرساله على أهم مصادر التاريخ الأسلامي المغربية والمشرقية التي تناولت تاريخ المغرب الاسلامي في الفترة التي نتحدث عنها (١٨٤-٢٩٦هـ) وكذلك على عدد من المراجع العربية والأجنبية المعربة وغير المعربة الحديثة اضافة الى بعض كتب الجغرافين القدامى والمحدثين وعلى بعض من كتب الفقه والنظم المالية يجدها القارىء في قائمة المصادر والمراجع .

أولاً : ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ومخطوطه مسالك الابصار وممالك الأمصار الجزء الثاني - نسخة مصوره في جامعة أم القرى - وقد استفدت من هذا المخطوط في موضوع التجارة القائمة بين بلاد السودان ودول المغرب الاسلامي في الشمال الافريقي اضافة الى معلومات عن بلاد السودان ودخول الاسلام فيها .

ثانياً : أبو العرب بن تميم القيرواني (ت ٣٣٣ هـ) وكتابه (طبقات علماء افريقية وتونس) ، وهو من نفائس كتب التراجم المغربية ، ورغم أنه لا يتوسع في ترجمة العلماء كما يفعل المالكي وعياض الا أن كتابه حوى أكبر مجموعة من علماء افريقية ويعتبر مصدراً لكل من كتب بعده اذ ينقل عنه عياض والمالكي كثيراً . ولا غنى لأي باحث في علماء افريقيه عنه .

ثالثاً : المالكي (ت ٤٣٨هـ) وكتابه (رياض النفوس) وهو أهم كتب الأعلام في بلاد المغرب . فقد كان اعتمادي عليه كبيراً في ترجمة علماء السنة الأجلاء ، وكان

بتفصيلاته في سيرهم خير زاد أعانني على تقص تحركاتهم واتجاهاتهم العلميه وجهودهم في نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو بحق درة كتب التراجم .

رابعاً : القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) وكتابه (تراجم أغلبية مستخرجه من مدراك القاضي عياض) والذي جمع هذه التراجم محمد الطالبي استخرجها من كتاب القاضي عياض (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب الامام مالك) والكتاب حقيقةً حوى على تراجم كثير من علماء المالكية ، وتتميز كتابته بالايضاح والشمول ويسند الرواية بشكل كبير ، وهو ينقل عن ابي العرب والشيرازي (صاحب كتاب تراجم الفقهاء) وقد اعتمدت عليه كثيراً في ترجمة حياة علماء السنه من اصحاب الامام مالك رضي الله عنه.

خامساً : أبو زيد عبد الرحمن محمد المعروف "**بالدباغ**" (ت ٦٩٦هـ) وكتابه (معالم الايمان في معرفة أهل القيروان) ويقع الكتاب في أربعة أجزاء كان اعتمادي منه على جزئين الثاني والثالث وينفرد كتابه بذكر علماء لم أجد لهم ذكراً في كتب التراجم الاخرى كشخصية أبي عبد الله بن البتان مثلاً . وقد أفادني الكتاب في اشاراته التاريخية والفقهيه وفي اشاراته عن العمران في العهد الأغلبي وان كانت قليلة وفي تراجم علماء السنه من الاحناف وغيرهم .

سادساً: ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ) : (وكتابه البيان المغرب في اخبار المغرب) ، ويقع الكتاب في جزئين صححه ونشره عن مخطوطة قديمة المستشرق (رينجرت

دزى)، والجزء الاول يتحدث عن المغرب طبع في ليدن سنة (١٨٤٨م) ، والثاني يتحدث عن الاندلس طبع في ليدن سنة (١٨٤٩م) وعلى الجزء الأول كان اعتمادي في جميع فصول الرساله تقريباً ، ويعتبر كتابه من أغزر الكتب وأوسعها في أخبار افريقية والمغرب كما أنه ينقل أخباره عن مصادر لا نجدها اليوم كنقله عن الجزء المفقود من كتاب الرقيق القيرواني ، ولا يمكن القول عن كتاب ابن عذاري الا أنه موسوعة في تاريخ بلاد المغرب .

سابعاً : **ابن الأبار** (ت٦٥٨هـ) وكتابه (الحله السيراء) تحقيق حسين مؤنس ، والكتاب جزءان اعتمدت على الجزء الاول الذي يحوي الى جانب الاخبار السياسية وتراجم وقد افادني في كتابة تراجم الثوار زمن الأغالبة كما استفدت من تحقيات حسين مؤنس كثيراً .

ثامناً: البكري (ت ٤٨٧هـ) وكتابه (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب) من أفضل الكتب التي تناولت جغرافية بلاد المغرب بشكل أعطى صورة واضحة للحياة الاقتصادية والعمرانية والحضارة في جميع العصور التي مرت بها افريقية . وأفدت منه كثيراً في اثناء حديثي عن الحياة الاقتصادية وفي التطور العمراني لمدينة القيروان . وينقل عن البكري كثير من الجغرافيين مثل الادريسي والتجاني وغيرهما .

تاسعاً : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار **لمؤلف مجهول** ، وقد صنف هذا الكتاب (٥٨٧هـ) ، أما المؤلف فيقال أنه مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، والجزء الخاص ببلاد افريقية والمغرب غني بالمعلومات الكثيره عن الثروات

الزراعية والمعدنية والمائية وكانت فائدتي منه كثيرة في حديثنا عن الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب .

*والى جانب هذه المصادر المغربية هناك عدد من **المصادر المشرقية** اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث ومن أهمها :-*

١) **ابن الأثير** (ت ٦٣٠هـ) وكتابه (الكامل في التاريخ) وهو من المصادر الهامة في التاريخ الاسلامي عامة ولا يغفل الجوانب الحضارية ذات القيمة ، وقد أفادني في معرفة مساحة القيروان اثناء انشائها . كما أمدني بمعلومات كثيرة في جميع مباحث الرسالة .

٢) **النويري** (٧٣٣هـ) : وكتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) ، والجزء الرابع والعشرون هو الجزء الذي اعتمدت عليه . الكتاب حقيقة غزير المعلومات ومستفيض في السرد حوى من المعلومات السياسية الكثيرة ، وقد اعتمدت عليه في أغلب فصول الرسالة .

اضافة الى هذه المصادر التاريخية والحضارية اعتمدت على بعض **كتب الفقه والنظم المالية** .

منها كتاب (المغني) لابن قدامه (ت ٦٢٠) وهذا الكتاب موسوعة فقهيه كبرى اعتمدت عليه في استخراج بعض الأحكام الفقهية التي جابهتني في البحث كحكم الشرع في قتال الخوارج .

ومن **كتب النظم** اعتمدت على كتاب الماوردي (ت ٤٥٠هـ) الأحكام السلطانيه وقد أفادني في الوصول الى نوعية امارة بني الأغلب وفي دراسة الخراج والجبايه .

كذلك اعتمدت على كتاب **يحي بن آدم القرشي** (ت٢٠٣هـ) وكتابه الخراج ومنه استقيت معلومات عن وضع العشور على التجارة في الاسلام ومن هم الذين يفرض عليهم العشر .

الى جانب هذه المصادر هناك العديد من **المراجع الحديثة** اعتمدت عليها في بحثي أهمها :-

١) **محمود اسماعيل عبد الرازق** : وكتابه (الأغالبه وسياستهم الخارجية) وهو بحث نال به صاحبه درجة الماجستير سنة (١٩٦٧م) من جامعة القاهرة . والكتاب أفادني بشكل كبير في فهم علاقة الأغالبة بدول المشرق الاسلامي والدول غير المسلمة . كان محور الدراسة على نقاط مهمه في العلاقات التجارية بين الأغالبة والدول المعاصره لهم في الشرق والغرب .

٢) **الحبيب الجنحاني** : القيروان عبر عصور أزدهار الحضارة الاسلامية بأفريقية . وهذا الكتاب أفادني في دراسة التطور الحضاري لهذه المدينة والأطوار المختلفة التي مرت بها وآثار ذلك على الحياة فيها .

٣) **الحبيب الجنحاني** : المغرب الاسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية - والحقيقة كانت فائدتي كبيره من دراسته لهذين الجانبين فقد أعانني على تكوين خلفيه فيهما غير أن كتابه مقتضب خالٍ من الشروح التي يحتاجها الباحث لكني رجعت كثيراً الى هذا المبحث لأنه يعتبر خير ما كتب في هذه الناحية .

٤) **حسن حسني عبد الوهاب** : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء ، أفادني الجزء الأول منه في الحصول على معلومات عن القيروان وأسواقها وتطوراتها كما أمدني بمعلومات عن بعض علماء الدراسات العلمية

الذين لم أجد لهم ذكر في المصادر . أما الجزء الثاني فقد أمدني بمعلومات قيمه عن دار الضرب الأغلبية وشعاراتها ونقود الأغالبة المختلفة المستوى والمختلفة النوعية ، كما أمدني بمعلومات عن هندسة الأغالبة الزراعية والأهتمام بالري . في حين اعتمدت على الجزء الثالث من هذا الكتاب في كتابتي عن المرافق العامة في القيروان كالمواجل والدمنه .

٥) **حسن حسني عبد الوهاب** : بساط العقيق - وهذا الكتاب رغم قلة المعلومات التي يسردها الا أنه أفادني في الحديث عن القيروان كمدينه لها أرباض وأسواق ودروب ومسمياتها كلها وعن تطور الصناعة فيها وأهم منتوجاتها الصناعية .

٦) **محمد الطالبي** : وكتابه (الدوله الأغلبية - التاريخ السياسي) والحقيقة ان كتابه هذا متسع الافاق والمرامي **والطالبي** قد توسع في التحليل بشكل كبير وهو يفصل الاحداث ويحللها ويعلق عليها غير ان كتابته فيها نوع من القصور في ادراك حقيقة الدوافع . وسيجد القارىء رداً في أكثر من موضع من الرسالة على بعض أرائه . ولا أنكر الفائدة التي أمدني بها . فكلنا خطاء .

٧) **نجاة باشا** : (التجارة في المغرب) ، وهذا الكتاب من الكتب التي اعتمدت عليها كثيراً في كتابة الجزء الخاص بالتجارة الداخلية والخارجية للقيروان وفي علاقة القيروان كمركز تجاري بالمدن الايطالية التجارية ، وبدور اليهود في تلك التجارة الى جانب افادتي منه في معرفة طبقات التجار وأثرها في سير الحركة التجاريه العالمية .

٨) **أرشيبالد لويس** : القوى البحرية في حوض البحر المتوسط - النسخة العربية ترجمة أحمد محمد عيسى . وهذا الكتاب له قيمه كبرى ذلك أن كاتبه وفق الى حد كبير في توضيح حركة التجارة العالمية بين القوى الاسلامية في مختلف انحاء العالم الاسلامي وبين من يعاصرهم في تلك الأونه من شعوب العالم الهنديه والصينيه

والبيزنطية والاوربية . وقد ساعد على ذلك دراسته المستفيضة للقوى البحرية للدول آنذاك ، كما أنه عمد الى توضيح الصلات التجارية ومنتجات الدول وما يصدر منها وما يستورده ، وما تحويه أرضها من خيرات زراعية ومعدنية .

٩) **عبد العزيز المجذوب** : الصراع المذهبي بافريقية ، وقد أفادني الكتاب كثيراً في التعرف على جهود علماء السنه في الثبات على الحق ونفع الأمه واصلاحها ، والتصدي لكل من يحاول الخروج عن حكم الشرع والتمسك بمذهب السنه والصمود في وجه الشيعة رغم العذاب المرير الذي صبه عليهم الشيعة العبيديين.

١٠) **السيد محمد أبو العزام داود** : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في الشمال الأفريقي . ويهتم كتاب أبي العزم داود بالمذاهب السنية التي دخلت شمال افريقية وأثر كل منها في مجريات الأحداث ونتائج ذلك على انتصار المذهب أو عدم انتصاره ، وقد تميزت دراسته بالنقد والتحليل والمقارنه وهو ما استفدت منه كثيراً.

الى جانب هذه المراجع العربية هناك بعض **المراجع الأجنبية** التي استفدت منها مثل كتاب :

d1) - ABU - L- FARAJ AL-USH: Monnaies- Aglades

(**أبو الفرج العش : النقود الاغلبية**) ويعتبر الكتاب بحق دراسة وافيه في تاريخ نقود الأغالبة حيث ذكر عدداً من دور الضرب التي تم للأغالبة استخدامها في سك عملتهم، وأقسام العمله الرئيسية وفروع كل قسم كما أولى عملية الاستفادة من الصيرفة عناية كبرى .

كما أفدت من كتاب :

ABDULLAH ALI al-Zaidan : The People of Qayyawan

(**عبد الله الزيدان : مجتمع القيروان**) وهذا المرجع هو رسالة علمية نال بها

صاحبها درجة الدكتوراه من بريطانيا (١٩٧٨م) . والدراسه التي قام بها دراسه واسعه مستفيضة ألقى فيها الدارس الضوء على الهجرات المتكررة التي تمت للقبائل العربية ، وسكنت بموجبها القيروان واستمرت حتى حكم الأغالبة . كما أشار الى الطريقة التي يمكن بها تقدير عدد سكان القيروان اعتماداً على مساحة المدينة وعدد خزانات المياة والمساجد فيها ، وقد أفادتني دراسته هذه كثيراً في حديثي عن التكوين الاجتماعي لمدينة القيروان في عهد بني الأغلب.

هذا اضافة الى **عدد من البحوث** التي اعتمدت عليها وأهمها :-

١) د/ **سوادي عبده محمد** : صلات تجارية بين البصرة والمغرب الاسلامي (من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع الهجري) ، بحث في مجلة المؤرخ العربي العدد (٤٣) وهو بحث قيم أوضح فيه صاحبه الطريقين اللذين تسلكهما قوافل التجارة بين البصرة ومراكز التجارة في المغرب والبضائع المتبادلة بين الطرفين وقيمة ذهب السودان في عملة البصرة وفائدة المحطات التجارية التي تمر بها تلك القوافل من المغرب حتى تصل البصره .

٢) د/ **صباح ابراهيم الشيخلي** : النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي وحتى نهاية القرن الخامس الهجري . معهد البحوث والدراسات العربية - والبحث أشار إلى الترابط التجاري بين مراكز التجارة في المغرب وحرص حكام تلك المراكز على تأمين وتوفير كل وسائل الراحة لأصحاب القوافل التجارية ليتسنى لها الوصول الى مركز الذهب في السودان ثم ما نتج عن تلك الحركة التجارية من استقرار بعض المسلمين في مراكز التجارة الجنوبية كأودغست .

٣) د/ **يحي بو عزيز** : طرق القوافل والاسواق التجارية بالصحراء الكبرى - معهد البحوث والدراسات العربية - أفدت من هذا البحث معرفة المخاطر التي تواجه

قوافل التجارة الضاربه في الصحراء والوسائل التي أعدتها فيما بينها للتعاون على تسهيل وتأمين الرحلة الشاقة . كما تحدث الباحث عن أهم البضائع المتبادلة بين المراكز التجارية .

هذا فيما يختص بأهم الرسائل العلمية ، والمصادر المغربية والمشرقية ، والمراجع العربية والمعربة ، فضلاً عن البحوث التي استفدت منها في كتابة رسالتي تلك ، وسيجد القارىء في نهاية الرسالة قائمة مفصلة لكل ما أعتمدت عليه في كتابتها .

وأسأل الله تعالى أن يوفق كل باحث عن الحق راغب في العلم لوجه الله تعالى سواء السبيل ، وان يلهمه الله الرشد ، انه ولى ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

تم الاستقرار الفعلي للمسلمين في بلاد المغرب بعد انشاء القيروان التي أضحت حاضرة الشمال الافريقي ومقر ولاة الخلافة .

غير أن تلك العاصمة عانت كثيراً من ثورات الخوارج والتي أسفرت عن خروج المغربيين الأوسط والأقصى عن سلطان والي القيروان التابع للخلافة في المشرق وقد كان الوالي حنظلة بن صفوان (١١٩-١٢٧هـ) واقعياً سديد الفكر حينما رضى بتلك الوضعية واثر الحفاظ على القاعدة - القيروان - دون بقية الأجزاء التي تغلب عليها الخوارج ، إذ ضمان القاعدة - القيروان - سليماً أفضل بكثير من المحافظة على أجزاء أخرى قد يؤدي الحرص عليها الى إنهاء الوجود الاسلامي في بلاد المغرب . والواقع أن مركز الخلافة في المشرق كان قد بدأ يضعف بسبب الدعوة العباسية التي بدأت في الظهور وانشغال الامويين في مقاومتها وكان وصول صدى ذلك الى بلاد المغرب مشجعاً للخوارج والراغبين في السلطان والمركز على التغلب على تلك الناحية البعيدة عن مركز الخلافة (١) .وممن طمع في بلاد المغرب عبد الرحمن بن حبيب الفهري حفيد مؤسس القيروان ، فقد دعا لنفسه في تونس ، وقد ساعده في ذلك بعض العرب والافارقة والبربر ، ثم كتب الى الوالي حنظلة بن صفوان يطلب منه أن يخلي له القيروان حتى تتم له السيادة ، وذلك أن القيروان كانت هي القاعدة السياسية التي ينظر الى حاكمها على أنه صاحب السيادة في بلاد المغرب .

ولقد تنازل حنظلة عن القيروان لرغبته في عدم القتال ضد فئة من المسلمين على المذهب السني تكون فيها فرصة للمخالفين من أصحاب المذهب الخارجي للوصول الى

---

(١) محمد عيسى : مقدمات في البناء السياسي للمغرب الاسلامي . ص ٦١

مرادهم أولاً ، وحقناً لدماء المسلمين الأبرياء من ناحية ثانية فخرج الى دمشق سنة ١٢٧هـ [١]

ثم دخل عبد الرحمن بن حبيب الفهري القيروان وبدأ ينظم أمورها وأرسل بهداياه الى الخليفة الأموي آنذاك مروان بن محمد فأقره على ولايته على أن البربر لم يكونوا ليتركوه يهنأ بولايته لأفريقية فقد اندلعت ثورتهم في طول البلاد وعرضها ، وكان عليه أن يقف ضد تلك الحركات حفاظاً على أمارته من جهة ، واظهاراً لقوته أمام مركز الخلافة في المشرق من جهة ثانية . وصادف في تلك الفترة سقوط الدولة الأموية وبداية حكم العباسية سنة ١٣٢هـ ، وقد قام الخليفة العباسي أبو العباس السفاح بالاعتراف به والياً لأفريقية بعد ما أعلن عبد الرحمن بن حبيب الفهري دخوله في طاعة بني العباسي [٢].

ولما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ أقر عبد الرحمن على ولايته وأرسل اليه خلفه سوداء هي أول سواد يدخل بلاد المغرب ، فأجابه عبد الرحمن بن حبيب بالطاعة والولاء واعتذر عن الالتزام بدفع مبالغ مالية . وقد ذكر ابن عذاري قوله [ان افريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها ، فغضب أبو جعفر وكتب اليه يتوعده] [٣].

وكانت ظروف المشرق شاغلاً كبيراً للعباسيين ، حيث مطامع القواد من الفرس والخرسانيين وظهور الزندقة التي كان لابد من محاربتها ، وحركات العلويين التي لم تخمد الى جانب أخطار البيزنطيين ، كل ذلك ما كان ليجعل الخليفة المنصور يلقِ بالاً لأمور المغرب [٤].

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان . ص ٢٣٤

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب . جـ ١ ص ٧٢

(٣) البيان المغرب . جـ ١ ص ٧٦ – الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٣٢.

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبه . ص ٩

ثم كانت نهاية أسرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري بسبب المنازعات على السلطان بين أبناء عبد الرحمن واخوته ، مما شجع الخوارج الصفرية من قبيلة ورفجومه على دخول القيروان سنة ١٤٠هـ وحكمها لكن النزاع بين الصفرية والاباضية على السيادة دفع الاباضية الى اخراج الصفرية من القيروان سنة ١٤١هـ والاستقرار فيها (١) فأصبحت العاصمة القيروان تحت حكم الخوارج الاباضية ، وهو الأمر الذي تخشاه الخلافة وترفضه قطعيا .

أدرك الخليفة أبو جعفر المنصور خطورة وضع بلاد المغرب لاسيما وأن القيروان انتزعت من أهل السنة وقبض على زمام الأمور فيها الخوارج فكان لابد من التحرك السريع لمجابهة هذا الطوفان قبل أن يستفحل الخطر ، اذ كان الأمر ينذر بخروج تلك الرقعة من دائرة السيادة العباسية . لذلك أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٤٤هـ القائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي الى بلاد المغرب مع جيش عظيم تمكن بعد معارك عديدة من دخول القيروان واحكام سلطان العباسيين عليها . ورغبة في المحافظة على هذه القاعدة وضمان الأمن والاستقرار لها بنى حولها سوراً انتهى منه سنة ١٤٦هـ وفي هذا يقول ابن عذاري: في سنة ١٤٥هـ اشتغل ابن الأشعث ببناء سور القيروان ، وأخصبت بلاد افريقية ... وسكن ابن الاشعث أحوال أهل افريقية في هذه السنة فلم تكن بها حركة) (٢) على أن ثورة بعض الجند من أمثال عيسى بن عجلان ضد ابن الاشعث اضطرته للخروج الى المشرق سنة ١٤٨هـ .

ثم عين المنصور الأغلب بن سالم التميمي سنة ١٤٨هـ فقام بعدة أعمال كفلت استتباب الأمن ، فعمل خندقاً حول القيروان ، ونظم قواته ، وعين له نائباً أثناء خروجه

---

(١) الرقيق القيرواني :نفس المصدر ، ص١٤٢-ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ٨١ .

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٨٤

من القيروان للغزو أو لقمع الثورات . (ووصله كتاب المنصور بعد كتاب العهد يأمره بالعدل في الرعية ، وحسن السيرة في الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه وغير ذلك من أموره) [١].

ولعلنا نلاحظ سياسة أبى جعفر المنصور وولاته على افريقية في محاولة زيادة تحصينات القيروان خوفاً على مستقبل هذه العاصمة الفتية لاسيما بعدما رأى تطلعات الخوارج للأستيلاء عليها ، فلم يكن يغيب عنهم بحال من الأحوال ما سيؤديه ضياع هذه القاعدة التي كان لها دور كبير منذ تأسيسها سنة ٥٠هـ في تثبيت حكم المسلمين في بلاد المغرب هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانوا يحرصون حرصاً شديداً على أن تظل بلاد المغرب على المذهب السني ، وهذا يتطلب الاحاطة بالخوارج والتضييق عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة .

وقد بدأت القيروان تنعم قليلاً بما حققة لها الأغلب بن سالم من أمن لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد خرج الثوار من الصفرية عليه مرة أخرى وتصدى لهم الأغلب لكن لسوء الحظ خرج على ابن الأغلب أحد رجال الدولة ويسمى الحسن بن حرب الكندي الذي دخل معه في حرب أدت في النهاية الى مقتل ابن الاغلب[٢]. ثم بعد ذلك عين أبوجعفر المنصور على افريقية عمر بن حفص سنة ١٥١هـ الذي أقام في القيروان يحكم ثلاث سنوات دون أن يدخل في حروب مع فرق الخوارج . الأمر الذي يحدو بنا الى القول أن البربر قد قنعوا بما ملكوا من مناطق لكن الذي حدث أنه لما أراد عمر بن حفص تسوير منطقة طبنه [٣] ثار البربر ضده من صفرية بقيادة أبا قره ، وأباضية

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ٨٥

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ٨٦.

(٣) طبنه : بضم الطاء مدينه في طرف افريقية على ضفة الزاب (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ٤. ص ٢١) .

بقيادة عبد الرحمن بن رستم ثم حاصرت الأباضية بقيادة أحد زعمائها القيروان ، وتمكنوا من دخولها واحراق أبوابها وتصديع سورها ،ثم قاموا بحكمها وذلك سنة ١٥٤هـ [١].

ثم عين الخليفة أبو جعفر المنصور يزيد بن حاتم سنة ١٥٥هـ والياً على افريقية ، وكان الأباضية متسلطين على القيروان ، فلما سمع زعيمهم أبو حاتم بجيش المنصور خرج من القيروان الى جبل نفوسه لكثرة من فيها من الأباضية لملاقاة جيش الخلافة بقيادة يزيد بن حاتم والتقى الطرفان في معارك دامية استمرت قرابة الشهر انتهت بهزيمة الأباضية وقتل قائدهم [٢].

وحاول يزيد بن حاتم تطهير منطقة طرابلس من الأباضية فتعقب فلولهم واستخلف على طرابلس أحد رجاله ومضى حتى دخل القيروان سنة ١٥٥هـ الا أن البربر أعادوا ثورتهم في طرابلس سنة ١٥٦هـ ، وقد تمكن يزيد بن حاتم أيضاً من سحقها وساد الأمن في القيروان فترة بحسن سياسة وتدبير يزيد بن حاتم ، وقد استغل هذه الفترة في ضبط البلاد وتحسين أوضاعها ونشر الأمن في ربوعها . وظل الأمر كذلك حتى سنة ١٦٤هـ حيث خرجت قبيلة ورفجومه في ثورة عارمة على حكومة القيروان لكن يزيد بن حاتم تمكن من القضاء عليها [٣]، وقد ألحقت هذه الثورة ضرراً بالغاً بالبلاد من الناحية الاقتصادية .

ثم عاد الأمن بعد ذلك الى افريقية فأخذ يزيد بن حاتم في العمل على تنظيم المدينة حيث وضع لكل حرفه من الحرف سوقاً خاصة بها ، كما اهتم بالعمارة اذ قام بتجديد المسجد الجامع بالقيروان ويذكر السيد عبد العزيز سالم أنه زاد فيه سنة ١٥٧هـ

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ٩٠

(٢) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ١٦٠ - ابن عذاري نفس المصدر . جـ ١ . ص٩٤ .

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ١٦٢ .

وأن البلاد في عهده شهدت ازدهاراً لم تشهده منذ عصر ابن النعمان[١] .

ودفعه حرصه على استقرار الأمن في البلاد وتجنيبها الفتن أن عين ولده داوود نائباً عنه بعد وفاته سنة (١٧١هـ) ، وقد حكم داوود القيروان مدة تسعة أشهر امضاها في القضاء على ثورات الخوارج من الأباضية [٢] .

اثر هذه الأوضاع من الثورة والخروج على سلطان الخلافة والولاة ما جعل الخليفة هارون الرشيد يقوم بتعيين روح بن حاتم والياً على المغرب سنة (١٧١هـ) ولم تقم للبربر في عهده قائمة ، اذ قامت مهادنة بينه وبين عبد الوهاب بن رستم امام الخوارج الأباضية بالدولة الرستمية [٣] ولعل الدافع الى تلك الموادعه ربما يكون الرغبة في محاولة الخروج بالبلاد من دائرة الحروب المستمرة التي كانت وبالاً عليها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً . هذا من جانب والي القيروان ، أما بالنسبة للخوارج فلعل كثرة المعارك الدامية التي خاضوها من قبل قد أنهكتهم وربما كان لفشلهم الذريع مراراً في القضاء على المذهب السني دافعاً لقبول تلك الأوضاع حيث العيش في أمان مع وجود الأمارة السنية بالقرب من دولتهم .

بعد روح بن حاتم عين الخليفة الرشيد سنة (١٧٤هـ) نصر بن حبيب المهلبي ثم عزله بعد ثلاث سنوات من ولايته ، وعين الفضل بن روح الذي دخل القيروان سنة (١٧٧هـ)[٤] . في هذه الفترة خرج النزاع في المنطقة من اطار النزاع بين ولاة الخلافة في القيروان على المذهب السني وبين الخوارج الثائرين من البربر الى دائرة النزاع بين

---

(١) المغرب الكبير العصر الاسلامي . ص ٣٥٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٩٥

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر والمغرب . ص ١٧٣.

(٤) انظر حول أسباب عزل نصر بن حبيب وتوليه الفضل بن روح : الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب . ص ١٨٢-١٨٣

والي القيروان والجند في تونس ، وهذه ظاهرة بدت منذ عهد الوالي محمد بن الأشعث الخزاعي لكنها في هذه المرة كانت أكثر عنفاً وضراوة ، فقد ثار الجند بتونس بقيادة عبد الله بن الجارود ، وكان من الشخصيات المعروفة في تونس ضد عامل تونس من قبل والي القيروان المغيرة بن بشر ابن أخ الفضل بن روح (١) .

وأدت المعارك التي قامت بين الطرفين الى مقتل الفضل بن روح ودخول الجارود الى القيروان ثم خروجه منها الى المشرق وسلم الأمور هناك الى رجل يقال له المفرج بن عبدالملك (٢) .

وأثارت هذه الأحداث ومقتل الفضل بن روح وانتشار الفوضى في عاصمة المغرب أثارت الخليفة هارون الرشيد فولى هرثمة بن أعين على افريقية الذي تمكن من اعادة قبضة الخلافة على القيروان سنة (١٧٩هـ) فسكن الأمور وأرسل عماله على البلاد حيث أرسل ابراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب ، وأقام عدة منشآت معمارية كالقصر الكبير بالمنستير سنة (١٨٠هـ) وسور مدينة طرابلس (٣) ثم طلب هرثمة بن أعين من الخليفة هارون الرشيد اعفاءه من هذه الولاية بسبب سوء أحوالها فأعفاه سنة (١٨١هـ)، وعين بدلاً منه محمد بن مقاتل العكي ، الذي أساء السيرة مع الأهالي والجند والعلماء على حد سواء . وقد تمكن من القضاء على ثورة الجند التي قامت ضده إلا إنه فشل في القضاء على ثورة عامله على تونس تمام التميمي الذي طرده من القيروان لكن والي الزاب ابراهيم بن الأغلب تمكن من اعادته وتأييد حكمه ، وأمسك بعامل تونس الثائر وأرسله الى مركز الخلافة في المشرق وأعاد ابن العكي الى القيروان

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ ص ١٠٧

(٢) انظر تفاصيل ثورة ابن الجارود في : الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ٢٠٤

غير أن الأهالي كانوا كارهين لحكمه ، وأدت الأحوال التي سنفصل ذكرها بالخليفة هارون الرشيد الى أن يعين على افريقية ابراهيم بن الأغلب [(١)] . والغريب في الأمر أن الرشيد لم يكن يرضى مطلقاً بتولية رجل من افريقية اذ كان دائماً يبعث الولاة من المشرق لخوفه من الاستقلال بها لكن يبدو أنه رضى بهذا الأمر بسبب أوضاع تلك الولاية نفسها .

والحقيقة التي لاجدال فيها أنه رغم محاولة الخلافة في المشرق سواءاً الأموية أو العباسية القضاء على ثورات الخوارج من أباضية وصفرية الا أننا نجد مبادىء الخوارج قد تأصلت في نفوس بعض البربر حتى صارت نحله لهم يستميتون في القتال عنها منذ بداية القرن الأول الهجري .

وكان من نتائج ذلك أن قامت لهذا المذهب دويلتان أدت الى انسلاخ أجزاء من بلاد المغرب عن حكومة القيروان التابعة للخلافة في المشرق ، وهما دولة الخوارج الصفرية في الجنوب الغربي وعاصمتها سجلماسة سنة ١٤٠هـ ودولة الخوارج الأباضية في المغرب الأوسط وعاصمتها تاهرت سنة (١٦٠هـ) [(٢)] .

ولم يتوقف الوضع عند هذا الحد ، بل ظهرت دولة الأدارسة في منطقة وليلي في المغرب الأقصى الداعية الى حق آل البيت في الخلافة [(٣)] .

ويتضح بهذا الشكل معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري حيث أصبح هناك ولاية افريقية انحصرت في المغرب الأدنى وعاصمتها القيروان ، وهي على المذهب السني وعرفت منذ سنة (١٨٤هـ) ، بدولة

---

(١) انظر تفصيل هذه الأحداث في الفصل الأول من الرساله ص٣١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : نفس المصدر - العصر الاسلامي . ص ٥٢٣ .

(٣) السلاوي : الاستقصا لأخبار حول المغرب الأقصى . جـ ١ ص ١٤٧

الأغالبة ثم دولة الخوارج الصفرية التي اقتطعت الجنوب الغربي منذ سنة (١٤٠هـ) ودولة الخوارج الأباضية في المغرب الأوسط وجبل نفوسه بطرابلس وعاصمتها تاهرت سنة (١٦٠هـ) وأخيراً دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وهي دولة أقامها ادريس بن عبد الله وكانت سنية على المذهب المالكي سنة (١٧٢هـ) وقد يبدو للناظر أن تباين المذهب وقيام الدويلات المستقلة في المنطقة الواحدة سوف يؤدي الى تأخر التمدن الحضاري لمنطقة الشمال الأفريقي لكن الذي حدث عكس ذلك اذ أن كل دولة من تلك الدول كانت تندفع نحو تحقيق الأمن والرخاء لمنطقتها فكان ذلك مدعاة لقيام نوع من التنافس دفع بعملية التقدم الى الأمام في كافة المجالات .

الفصل الأول

التطور العمراني للقيروان في عهد الأغالبة

- جهود أمراء الأغالبة في عملية الاستقرار السياسي والأمني في القيروان
- تخطيط القيروان وإقبال الناس على السكن فيها.
- توسعة مسجد عقبة بن نافع في عهد الأغالبة .
- المنافع العامة في القيروان : الحمامات - الدمنه - المواجل والخزانات والقناطر .

جهود الأغالبة في عملية الاستقرار السياسي والأمني في القيروان : -

لم تكن عملية إقرار الأمن في ولاية إفريقية قضية سهلة . بل كانت محاطة بالكثير من العراقيل لاسيما وأن تلك الولاية ذاتها ، كانت مركزاً للحركات الثورية والمذهبية منذ الفتح الإسلامي لها ، ونظراً لما حدث لأول مرة في تاريخ تلك المنطقة من إفريقية ، حيث نشأت إمارة مستقلة إستقلالاً ذاتياً وبموافقة خلافة بغداد بل إن بغداد ذاتها كانت تعتبر تلك الأمارة ممثلاً شرعياً لها في بلاد المغرب ، فلاعجب إذ أن يكيد لها الحاسدون ويتآمر عليها المتآمرون ، الأمر الذي كلف هذه الأمارة الفتية جهوداً بشرية ومادية لإخضاع الثورات التي قامت ضدها والوقوف بالمرصاد أمام كل تحرك من شأنه إشاعة الفوضى وإثارة الإضطرابات .ولعل نظرةً فاحصةً لأسباب الثورات قبل عهد الأغالبة نجد أن منها ما كان بسبب سوء سياسة الولاة ، كما كان في عهد الوالي يزيد بن ابي مسلم وعبيد الله بن الحبحاب ، أوبسبب إنتشار مذهب الخوارج ، كما حدث في ثورة طنجة بقيادة مسيرة المدغري (١) . أوبسبب الشعور بالأحقية بالولاية لسابقة في الفتح كما حدث من قبل عبد الرحمن بن حبيب (٢) وسنرى أن هذه المسببات لتلك الثورات سيكون لها أثارها في عهد الأغالبة ، بل إن الوضع في إفريقية زمن الأغالبة أصبح أكثر خطورة عما كان عليه من قبل بسبب نشأة دويلات لها كيان مستقل وعلى مذهب مخالف لمذهب الخلافة في بغداد كالدولة

---

(١) أنظر التفاصيل في : الرقيق القيرواني : نفس المصدر .ص ٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٩ ، السلاوي : نفس المصدر .جـ١ .ص ٦٥٤ ، سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع .جـ١ .ص ٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨ .

(٢) النويري : نهاية الأرب .جـ١ .ص ٦٥٤ ، الرقيق القيرواني : تاريخ أفريقيه والمغرب .ص١٢٣ الى ص ١٣٧ وأنظر ص ٢٢٦-٢٢٧ .

الرستمية في تاهرت على المذهب الأباضي والدولة المدرارية في سجلماسة على المذهب الصفري ، غير أن الخطر الأكبر كان في نشأة الدولة الإدريسية كما أن خطر الجند العرب لم يكن يقل أهمية ، فقد كان من عوامل الإضطراب الأمني في المنطقة إذا كان الجند يرون أنفسهم أهل لتولي السلطة ولذلك كانوا سبب معظم الثورات الداخلية[١] .

ولم يكن يخفى على مؤسس الدولة الأغلبية ابراهيم بن الأغلب كل تلك المصاعب والعراقيل فهو رجل حرب وسياسة قبل أن يكون رجل دولة ، فقد كان جندياً من جنود مصر ، ثم عاملاً على الزاب ، ثم والياً عليها من قبل الخليفة الرشيد [٢] فخبرته كرجل حرب وسياسة لا يستهان بها اضافة الى أنه على دراية بوضع المنطقة وظروفها ومشاكلها .

ويضع الطالبي [٣] عقبتين واجهتا الأمير إبراهيم الأول في سبيل إقرار الأمن بأفريقية وعكرت عليه صفوة حياته ، الأولى طبقة الجند والثانية طبقة العلماء . ونحن مع الطالبي في قضية الجند التي سنتناول أسبابها فيما بعد غير أننا نجانبه الرأي في أمر طائفة العلماء إذ لم تكن تلك الفئة بحال من الاحوال عائقاً في وجه الإستقرار السياسي والأمني لأفريقية ونجد الطالبي يتحامل على أحد العلماء الأفاضل وهو عبدالله بن غانم لمواقفه من الأمير إبراهيم ابن الأغلب وبهذا يبرهن على أن هذه الطائفة كانت عقبة في طريق أمن وإستقرار حكومة أفريقية الأغلبية ، بل ويصل به الحد إلى أن يصف العالم الفاضل بالوقاحة وأنه (أي قاضي القيروان) كان يستخدم

---

(١) الطالبي :الدولة الأغلبية .ص ٥٨

(٢) إبن الأبار: الحلة السراء .جـ١ .ص ٤٩

(٣) الدولة الأغلبية .ص١٤٩

سلاح الفقه وقت الحاجة لمجابهة سلطان الأمير [١] وتلك دعاية مغرضة ، فما كان ابن غانم إلا عالماً من أجّل العلماء وأتقاهم ، وكان يرى أن سلطان الدين فوق أي سلطان مهما علا وارتفع، والقارىء لسيرته يرى من ورعه وخشيته لله ما يجعله يوقن بصدق نواياه وحسن سريرته وإخلاصه لله تعالى . فإن كان الطالبي يعتبر المطالبة بإقامة الشرع والدعوة الى العمل به وقاحة فذلك أمر مرفوض البته ناهيك أن العلماء لهم فضلهم ومكانتهم والخشية من الله وحدها هي التي تدفعهم لاسواها إلى مجابهة السلطان وتلك صفة ذكرها القرآن الكريم فيهم " انما يخشى الله من عباده العلماء"[٢]أما لماذا أتهم الطالبي ابن غانم بالوقاحة فهو أنه لم يقف للأمير إبراهيم حين دخل المجلس ، ولما سأله الأمير عن سبب عدم وقوفه له حدثه ابن غانم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ابن غانم حدثني مالك عن نافع عن إبن عمرقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوء مقعدة من النار "[٣] وقد نكس الأمير رأسه بعد ذلك [٤] ولعل ما دفعه إلى ذلك أنه علم أن ما فعله القاضي ليس أستعلاءاً و لا كبرياء إنما هو من صميم الدين ومن دافع المحبة والأخلاص لذات الأمير .

كما أن هناك حادثة تبين أن طائفة العلماء لم تكن بحال من الأحوال عا ئقاً في طريق الإستقرار السياسي والأمني لأفريقية في عهد الأمير إبراهيم بن الأغلب ذلك أن الأمير ذاته كان يحرص على أن يكون عند حسن ظن العلماء بإعتبارهم عضد

---

(١) الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ١٥٠

(٢) سورة فاطر ايه٢٨

(٣) الامام مسلم :صحيح مسلم بشرح الأمام النووي .جـ١ .ص٩٠

(٤) القاضي عياض : تراجم أغلبية .ص١٦

دولتـه وقـوامـهـا . ذكـر المالكي قـولـه (وكـان إبراهيم بن الأغلب يصلي بالجـامع المكتوبات كلها فخرج في ليلة من الليـالي من داره دار الأمارة فدخل الجامع لصلاة العتمة وكان مشغول القلب فعثر على حصير فسقط فلما صلى الناس وانصرف بعث في طلب ابن غانم ، فآتاه الرسول وقال له ، الأمير يدعوك فتغير ابن غانم عن ذلك وقال (في مثل هذا الوقت يوجه ورائي ؟) ثم لم يجد بداً من أن يقوم إليه ، فلما دخل عليه قال (يا أبا عبد الرحمن إني لم أبعث إليك إلا لخير ، إني لما دخلت المسجد اشتغل قلبي عن حفظ نفسي فعثرت على حصير فسقطت فظننت بالناس أنهم حسبوا أني منتبذ ، فأحببت أن تكون براءتي عندك ، ولا أبالي بغيرك ، فاستنكهني) فاستنكهه ابن غانم فوجده بريئاً مما قال فشكر له ذلك)[(١)] أو ليس هذا دليلاً على مدى حسن العلاقة بين الأمير إبراهيم وأحد علمائه وقاضيه وأي علاقة أكبر من أن تقوم على الثقة فلا يرضى الأمير بأحد أن يبرىء ساحته غير قاضية الذي لا يشك قط في اخلاصه وصدق نواياه . ومن جهة أخرى تدل الرواية على ثقة العامة في طبقة العلماء والا لما يطلب الأمير من أحد أن يؤكد للناس دون سواهم براءته من شرب المسكر ، لعل كل ذلك يعطينا صورة واضحة ودقيقة لأمرين اثنين ،

أولاً : تقدير الأمير لأهل العلم وحفظ مكانتهم على الرغم من وجود إختلافات في وجهات النظر بينه وبينهم ، وأنه كان ينصاع لأرائهم لعلمه أنها من صميم الدين ومن منهج التشريع الرباني .

ثانياً : عدم تنازل العلماء عن الحق خوفاً من سطوة السلطان مما أكسبهم حب العامة وثقة الخاصة على حد سواء .

وبهذا لا يمكن لهذه الطائفة - العلماء - وهذه وضعيتها ومكانتها أن تكون عائقاً

---

(١) المالكي رياض النفوس .جـ١ . ص ١٥٢

في سبيل الاستقرار السياسي والأمني لأفريقية الأغلبية .

أما بالنسبة لقضية الجند فكما أسلفنا فنحن مع الطالبي في كون هذه الطائفة عقبة كؤوداً أمام إستقرار إفريقية حتى قبل عهد الأغالبة ، وقد أفاض محمود إسماعيل عبد الرازق في الأسباب الأساسية لثورة هذه الطائفة والتي بدأت بوادرها منذ عهد الوالي محمد بن الأشعث ، وكيف ان السلبية في عدم توحدهم مكاناً وزماناً كانت إيجابيه بالنسبة للدولة الأغلبية حيث تمكنوا من القضاء عليهم بين الحين والأخر رغم ما يصلون إليه من نفوذ وسلطان [1] إضافة إلى قضية الجند كانت هناك طائفة الخوارج والتي أصبح لها كما أسلفنا كيان بنشأة دويلات مستقلة . كما قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة (١٧٢هـ) . فقد أدى هذا الى إنحسار سلطان خلافة بغداد من الشمال الأفريقي إلى منطقة أفريقية فقط وإن كانت سجلماسة المدرارية قد اعترفت بالتبعية الاسمية لبغداد إلا أنه لم يكن في تلك المنطقة للعباسيين أي سلطان فعلي [2] ولهذا فإن من المتفق عليه بين المؤرخين أن هذه الظروف كانت سبباً لنشأت دولة الأغالبة فما صفة هذه الدولة ؟ وما علاقتها بالدويلات الأخرى حسبما تحتاجه الظروف لتحقيق أمن واستقرار أفريقية ؟ .

الحقيقة أن مشاكل الشمال الإفريقي وثورات الخوارج والجند معاً قد أنهكت خلافة بغداد الأمر الذي نتج عنه في نهاية المطاف تقلص رقعة النفوذ العباسي الى منطقة أفريقية فقط . هذا في نفس الوقت الذي كانت فيه شخصية إبراهيم بن الأغلب تظهر على مسرح الأحداث في أفريقية كشخصية قيادية سياسية مخلصة لبغداد

---

(١) حول موضوع الجند أنظر محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية من ص ١٢ الى ص١٦ وانظر الفصل الثاني من البحث (التكوين الأجتماعي لمدينة القيروان) .ص ١٤٤

(٢) محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة وسياستهم الخارجية . ص ١١٩

وقادتها . وقد كان للدور الفعال الذي قام به إبراهيم بن الأغلب تجاه الوالي محمد بن مقاتل أثره الكبير عند الخليفة الرشيد وعند أهل افريقية أيضاً [١] .

والناظر في نص الرسالة التي أوردها النويري والمرسلة الى الوالي محمد بن مقاتل العكي من الخليفة الرشيد أثر اصرار العكي على الاستمرار في ولاية أفريقية ما يدل على أن خصال إبراهيم بن الأغلب من الأسباب التي دفعت الى إنشاء امارة بني الأغلب فقد جاء في نص الرسالة (أما بعد فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله ، فلإي منا قبك أوثرك على إبراهيم بولاية الثغر ألفرارك وإقدامه أم لجزعك وصبره أما لخلافك وطاعته فإذا نظرت في كتابي ، فاقدم غير محمود الفعال)[٢] . ولهذا نرى أن نشأة أمارة بني الأغلب تكمن في عدد من الظروف تضافرت فيما بينها حتى ظهرت تلك الأمارة وهذه الظروف هي :

أولاً : تقلص رقعة المنطقة التي تسيطر عليها الخلافة في منطقة الشمال الأفريقي بظهور الدويلات المستقلة هناك فخشيت الخلافة مع أستمرار الثورات أن تخرج عاصمة المنطقة هناك من نفوذها فكان من الأولى أنشاء أمارة تحافظ على العاصمة وما بقى من منطقة الشمال الأفريقي بوضعية جديدة فيها بعض التنازلات في مقابل أستمرار السيطرة العباسية على المركزالأول للمسلمين في بلاد المغرب (القيروان) [٣] .

---

(١) الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص ١٤٨

(٢) نهاية الأرب .جـ٢٤ ، ص ١٠١

(٣) محمود اسماعيل عبد الرازق الأغالبة وسياستهم الخارجية .ص ٤٤ .

ثانياً: ظهور دولة الأدارسة سنة (١٧٢هـ) كمنافس قوي تخشاه حكومة بغداد وكان من نتائج أحداث المشرق بين العباسيين والعلويين فرار أدريس بن عبد الله من هناك إلى المغرب الأقصى لإنشاء دولة لهم فلا يستبعد أن يفكر الأدارسة في القضاء على قوة العباسيين في أفريقية أنتقاماً لما حدث في المشرق وقد بدأ توسعهم فعلاً بالسيطرة على بعض أجزاء من المغرب الأوسط فكان ذلك مثار قلق للخليفة الرشيد.(١)

ثالثاً : كثرة النفقات الباهظة التي دفعتها الخلافة مقابل القضاء على الثورات في تلك المنطقة أضافة الى أعداد الجند الكثيرة التي كانت تبعث بها بغداد الى هناك كلما دعت الحاجة .

رابعاً : حاجة أفريقية إلى شخصية قوية خبيرة بالوضع السياسي والعسكري والاقتصادي والأجتماعي فيها حتى يتسنى لها وضع الأمور في نصابها وقد وجدت تلك السمات في شخصية إبن الأغلب (٢)

خامساً: هذه الظروف جميعها أدت بالرشيد الى التفكير في خلق وضع سياسه جديدة للمنطقة مخالفة لما مضى ، فكان أنشاء أمارة لها كيان سياسي شبه مستقل مرتبط بخلافة بغداد أمر مفروض للحفاظ على تلك الرقعة المتبقية.(٣)

وهنا لابد أن نتعرف على نوعية أمارة بني الاغلب ففي نظم الحكم الاسلامي نوعان من الامارة . امارة عامة وامارة خاصة والامارة العامة صنفان إمارة استكفاء بعقد من أختيار ، وامارة إستيلاء بعقد عن اضطرار ، ولكل واحد من هذين النوعين

---

(١) تقدم المولى إدريس بن ادريس نحو المغرب الأوسط سنة (١٩١هـ) بعد استقراره في مدينة فاس . (انظر تفاصيل هذا الموضوع في السلاوي : نفس المصدر . جـ١ . ص ١٦٩ .

(٢) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ٢٩ .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية . ص ٤٩ .

شروط ، والدارس لنوع الأمارة وشروطها يجد أن أمارة بني الأغلب هي من نوع ولاية الأستكفاء وذلك لأن الخليفة الرشيد عهد بولاية أفريقية لإبراهيم بن الأغلب ولاية عامة ليقوم فيها بجميع أمورهامن تجهيز الجيوش وجمع الخراج وإمامة الناس في الجمع والجماعات وإقامة الحدود وتعيين العمال والقضاة والحكام وحماية الدين وتسيير ركب الحجيج [١] . غير أن أمراء الأغالبة كان لهم بجانب حقوق ولاية الأستكفاء إتخاذ الوزراء ولهذا يصف محمود اسماعيل هذه الأمارة أنها أمارة ليس لها مثيل في نظم الحكم الأسلامي[٢] . والحقيقة أنها كانت أمارة لها سمات معينة إذ يذكر النويري عنها قوله " فلما كانت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر دائماً كانت ملوكها تراعي أمور الدولة العباسية " [٣] .

وتختلف الروايات التاريخية في تعيين إبراهيم ابن الأغلب أميراً على أفريقية ، فبينما يروى البلاذري والنويري [٤] أن الرشيد هو الذي ولاه ولاية أفريقية بعد استشارة خاصته بعد ما كان من سوء سياسة إبن مقاتل العكي وكراهية الأهالي لحكمه ، نجد فريقاً آخر من المؤرخين من أمثال ابن خلدون وابن الأثير [٥] . يذكر أن إبراهيم بن الأغلب هو الذي طلب من الرشيد أن يوليه أفريقية أستجابة لرغبة الأهالي ولعلنا نميل إلى الرأي القائل بأن الخليفة الرشيد هو الذي عين إبراهيم بن الأغلب لولاية أفريقية للأسباب الآنفة الذكر . والواقع أن إنشاء الرشيد لهذه الأمارة أو الموافقة على إنشائها فيه من الحنكة والتخطيط السياسي والمعرفة الإدارية الكثير ، ذلك أن بعد

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٣٣

(٢) الأغالبة وسياستهم الخارجية . ص ٥٣

(٣) النويري : نفس المصدر جـ ٢٤ ص ١٠٠ .

(٤) فتوح البلدان ص ٢٧٦ ، نهاية الأرب . جـ٢٤ .ص ١٠١.

(٥) تاريخ ابن خلدون جـ٦ ص ١١٣ ، الكامل في التاريخ جـ٥ ص ١٠٩.

اقليم بلاد المغرب كان يكلف الخلافة أثناء اندلاع الثورات فيها نفقات طائلة الى جانب أن وقوعها على ساحل البحر كان يعرضها لهجمات الروم الأمر الذي سيؤدي بحكومة بغداد إلى مواجهة ذلك العدوان . وأخيراً فإن الخلافة تحرص على المحافظة على هذا الأقليم من أصحاب الزعامات الأستقلالية لاسيما أن كانوا أصحاب نحل مختلفة [١] كما أن عملية أنشاء هذه الأمارة سيوفر على الحكومة المركزية جهود ونفقات الأقليم في الأدارة والعمران والتعليم والأمن إذ أن ذلك سيؤول بطبيعة الحال إلى أمير المنطقة ، ولقد زاد إبراهيم بن الأغلب على ذلك كله أن تكفل بدفع أربعين ألف دينار للخلافة سنوياً فضلاً عن تنازله عن الأعانة التي تقدمها ولاية مصر لأفريقية كل عام [٢] . فكان أكبر أثرلقيام هذه الأمارة في تلك الظروف أن تمتعت أفريقية حوالي قرن من الزمان باستقرار أمني ونماء أقتصادي لم تشهده من قبل كما أن تبعيتها للخلافة أعطاها صفة شرعية وتأييد اً أدبياً وأحياناً مادياً . إذا ما دعت الضرورة لذلك ، والحق الذي لا جدال فيه أن شخصية إبراهيم ابن الأغلب كانت من الشخصيات الفاضلة التي تجمع بين الدين والعلم والفقة والأدب ، كما كان صاحب رأي وحزم وبأس ومعرفة بالحروب وفنونها ، كل تلك الصفات أهلته لأن يكون رجل أفريقية الأول وكان لتولية الزاب عاملاً ثم والياً أثر كبير في تنمية وصقل قدراته السياسية [٣] .

ولعل كفاءته تبرز بوضوح في قضائة على الثوار الذين خرجوا عليه ، وفي التدابير التي أتخذها منذ تولى الأمارة لمواجهة كافة الأخطار التي يتوقعها ليضمن

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية ص ١٣٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ٥ ص ١٠٤ (انفرد ابن الأثير بخبر تنازل ابن الأغلب عن الاعانة السنوية)

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية ص ٣١،٣٠

لأفريقية الأمن والأستقرار الذي جعله من أخص مهام عمله ، ومن هذه الثورات التي واجهها :

ثورة خريش الكندي :

في سنة (١٨٦هـ) خرج خريش الكندي على الأمير إبراهيم إبن الأغلب ، وخريش من أبناء العرب الذين إستقروا في أفريقية منذ عهد بعيد وكانوا يرون أنفسهم أحق بتولي الولاية من أبناء بغداد الذين ترسلهم الخلافة [(١)] وقد نزع السواد والتف حوله جموع من العرب والبربر في منطقة تونس [(٢)] . وأرسل رسـالة الى إبراهيم [(٣)] وذيلها بأبيات من الشعر :

قل جهـرة لأبي إسحـاق تنصحـه	هذا فراقكـم للغـرب قد حانـا
فلا يعـود إليـه منكـم أحـد	حتى يعود من الأجداث موتانا
فأرجع عن الغربِ أو ألقِ السوادَ به	لا تخترمك المنايـا حين تلقانـا

فرد عليه الأمير إبراهيم برسالة أخرى ذيلها بأبيات من الشعر جاء فيها :

بلغ خريشـا بأنـي سوف أصبحُـهُ	كأسـاً سيقرعُ منهـا سِنَّ حَيرانـا
تُهدِي الطّـعـاَن له سُـمرٌ مُثقفـةُ	تفرَي أسنتُها في الحربِ أعدانا
إني سأهدي إليك الموت في عطبِ	فاشرب منيتـه من كف عِمرانا

---

(١) ابن الأبار : نفس المصدر . حاشية رقم (١) ص ١٠٢

(٢) النويري : نفس المصدر ، جـ ٢٤ .ص١٠٣ ، ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ٥ .ص١٠٤

(٣) ابن الأبار : نفس المصدر ، جـ ١ .ص ١٠٢ -١٠٤

ويعُطي المؤرخون(١) هذه الحركه صبغة مذهبية لأن الثوار كانوا يطلقون صيحات (بغداد ، بغداد ، فلا والله لا أتخذت لكم طاعة بعد اليوم) كما جاء في نص الرسالة إشارة إلى أراء الإمام علي كرم الله وجهه كأنها تدلل على أنهم من مناصري الإمام علي . وقد أفاض الطالبي في تحليل هذه الثورة وأوضح أن نزعتها علوية . لكنه لم يجد دليلاً مادياً واضحاً يشير الى ثمة تعاون قائم بين الثائر خريش الكندي والمولى ادريس بن ادريس في المغرب الأقصى صاحب دولة العلويين وأن كان يوهم بنشأة نوع من الصلة بينهما (٢) . لكن ما يرويه المؤرخون عن هذه الثورة يتبعونه مباشرةً بالحديث عن أحوال المغرب الأقصى حيث دولة الأدارسة ، من غير أشارة صريحة أومبهمه الى وجود علاقة بين ثورة خريش الكندي ودولة الأدارسة ، فالنويري ذكر بعد حادثة خريش والقضاء عليه قوله (وفي أيامه"أيام أبراهيم " جمع إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي ابن إبي طالب جموعاً كثيرة وأطاعه من حوله من القبائل ، فكره إبراهيم قتاله وعجل في إفساد أصحابه عليه) (٣) .

ولعل الذي يستدعي الأنتباه هو هل هذه الأستعدادات والجموع كانت تهدف إلى مد يد العون إلى خريش الكندي ؟ إن كان الأمر كذلك لماذا لم تتقدم تلك القوات صوب المغرب الأدنى ؟ أو لماذا لم يتم تنسيق محكم بين الثائر والأدارسة ؟ هذا ويرى البعض أنه لاعلاقة البته بين ثورة خريش الكندي والأدارسة وقوتهم لعدم وجود دليل مادي واحد نستطيع معه الجزم أو حتى التخمين بوجود تنسيق بين الطرفين للقضاء

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ٤ .ص ١٠٤-١٠٥ . النويري : نفس المصدر ، جـ٢٤ .ص ١٠٣ – وأنظر سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي .ص ٣٥

(٢) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ١٥٨ – ١٥٩

(٣) نهاية الأرب . جـ ٢٤ .ص ١٠٣

على قوة الأغالبة . لكن لا يمكن أن ننسى الرغبة عند الأدارسة في التوسع وهذه تكفي لأزعاج الأغالبة وأن تكون حجر عثرة في سلامتهم وأمنهم [١] . وثورة خريش في نظر البعض هي ثورة العرب البلدين الذين أستوطنوا أفريقية [٢] . يدل على ذلك نص الرسالة التي أرسلها الأمير إبراهيم بن الأغلب الى قائده عمران بن مجالد وهو يوصية في حربه مع خريش ، فقد جاء في الرسالة (يا عمران أن أعظم الناس خطراً وأفلحهم حجة الحازم المعد لأمره وأعلم أن العرب لم يخرج بها مخالف قط منذ جاءت دولة بني العباس أعظم كفراً من هذا الفاسق ولا أبين بالخلاف ، ولا شك أن الله سيقطع دابره فان إظفر الله تعالى به فأقطع أثره وأثر من يتابعة ، واعلم أنك أن أبقيت منهم رجلاً ممن يرى رأيه لم تقدم أن ترى كل يوم قرن فتنة نجم ، وعقال خلاف أنطلق فانهض لما أمرتك به ولست أدع أن امدك بالخيل أن شاء الله) [٣] .

واضح أذن أنها ثورة سياسية بعيدة كل البعد عن أي شعار ديني فلو كانت لها طابع عقائدي لأوضح الأمير لقائدة هذا الأمر ولما جمع الأمير إبراهيم كما سنرى فيما بعد خاصته واستشارهم في أمر الأدارسة[٤]. على كلٍ تمكنت قوات الأمير إبراهيم ابن الأغلب من الأنتصار على الثوار وقتل عشرة آلاف منهم قائدهم خريش الكندي ، ودخل القائد عمران بن مجالد تونس وتتبع فلولهم وقضى عليهم وأنهى أمرهم وذلك سنة (١٨٦هـ) .

---

(١) الميرالاي سرهنك : تاريخ دول المغرب .ص٣١-٣٢ - محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية . ص ٤٦-٤٧

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المصدر .جـ ٢ .ص ٣٤-٣٥ حاشية (٣٦)

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ٢٢٤

(٤) أنظر حول هذا الموضوع محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية .ص ١٣٦-١٣٧-١٣٨

ثورة طرابلس :

أحداث طرابلس ضمت نوعين من الصراع :

الأول : صراع الأهالي مع الولاة الذين يعينهم أمير القيروان إبراهيم بن الأغلب بحكم تبعية تلك المنطقة لولاية أفريقية .

الثاني : الصراع بين أبناء الجند وبعض البطون التي كانت تسكن طرابلس(١) .

وعن النوع الأول من تلك الأحداث فقد كان أهالي طرابلس دائمي التذمر والشكوى من ولاتهم وكانوا يرسلون الى الأمير ابراهيم بن الأغلب برغبتهم في عزلهم ، وكان يحرص على الاستجابة لمطالبهم رغبة منه في غلق أي باب للمشاكل لاسيما وأن طرابلس كانت قريبة من جبل نفوسة موطن الأباضية هناك (٢) . خوفاً من أن يحدث رفض مطالبهم نوعاً من التحالف بين الطرابلسيين وأهالي جبل نفوسة ، كان إبراهيم بن الأغلب يعزل الوالي حتى وأن لم تمضي على ولايته أياماً تحسباً من وقوع أحداث هو في غنى عنها ، ولذلك طلب منه أهالي طرابلس سنة (١٨٩هـ) عزل سفيان ابن المضاء الذي مضت على ولايته عليهم سبعة وعشرين يوماً ولعله تأخر في الأستجابة الى مطالبهم ، الأمر الذي دفعهم الى الخروج عليه ومحاصرته في المسجد الجامع وجرى قتال بين الطرفين قتل فيه جماعة كبيرة من أصحاب الوالي سفيان بن المضاء ثم أمنوه على أن يخرج عنهم وعينوا عليهم ابراهيم بن سفيان التميمي (٣) .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع ، جـ ٢ . ص ٣٦-٣٧

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص ٣٦ – ٣٧ ، محمد الطالبي . الدولة الأغلبية. ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر .جـ ٥ .ص ١٢١

أما الصراع بين أبناء الجند وبين بعض البطون فقد أزعج بن الأغلب وقد حدث مثل هذا الصراع بين بني كنانة وبني يوسف وبين أبناء الجند ودارت بينهما حروب كثيرة أفسدت الأوضاع في طرابلس فأرسل إليهم الأمير إبراهيم جمعاً من الجند وأمرهم بأحضار الطرفين المتنازعين وكان ذلك ، فلما مثلوا عنده طلبوا منه العفو فعفا عنهم وعادوا الى بلادهم (١) .

ثورة عمران بن مجالد :

عللت بعض المصادر التاريخية (٢) هذه الثورة بسبب لايبدو منطقياً إذ أن قائد الثورة عمران بن مجالد الذي وصل إلى تلك المنزلة في كيان الدولة الأغلبية ومارس الحياة العسكرية في كافة منعطفاتها بقوة وكانت له تلك المواقف الصارمة مع الأمير إبراهيم بن الأغلب في ثورة خريش الكندي حتى كان ينادي في الجند " يا أبناء الدعوة وأهل الطاعة لابد من الموت فهبوا إلى الله ساعة من الصبر والحفيظة " (٣) . لايمكن أن يثور لأن الأمير إبراهيم لم يكن صاغياً بعناية تامة لحديثه الذي كان يحدثه أياه . ففي هذا الصدد ذكر النويري قوله (وخرج عن طاعة إبراهيم أيضاً عمران بن مجالد وكان سبب خروجه أن إبراهيم لما بنى قصره المعروف القديم ، ركب يوماً وهو يفكر في الأنتقال إليه ومعه عمران بن مجالد فجعل عمران يحادثه من حيث ركبا الى أن بلغا مصلى روح فلم يفقه إبراهيم من حديثه شيئا فقال لعمران (ألم تعلم أني لم أسمع من حديثك شيئا . أعده عليّ ، فغضب عمران وقال (أحدثك من حيث خرجت وأنت

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر .جـ ٥ .ص ١٢١

(٢) النويري : نفس المصدر .جـ ٢٤ .ص ١٠٤ في حين لم يذكر ابن الأثير وابن الأبار سبباً للثورة أنظر الكامل .جـ ٥ .ص ١٤١ والحله السيراء جـ ١ .ص ١٠٥

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ٢٢٥

لاه عني) وتغير من ذلك اليوم وألب على ابراهيم فلما انتقل ابراهيم الى قصره وأقام مدة ثار عمران في جيشه واستولى على القيروان وقوى أمره وكثر أتباعه)[١].

من خلال النص نستطيع أن ندرك أن الأمر فوق ما ذكر المؤرخون اذ أن الأمر لو كان بسبب لهوه عن سماع حديث لثار من يوم تلك الحادثة ولكنه ينتظر حتى ينتقل الأمير الى قصره الجديد فهذا أمر يحمل في ثناياه أكثر من علامة أستفهام ، ولاننسى مطلقاً كما يؤكد ذلك الطالبي دور عمران بن مجالد في مساندة ابراهيم بن الأغلب والتي تعتبر بمثابة الدين في عنق ابن الأغلب [٢]. فهل تقابل تلك المساندات بإنشاء مدينة جديدة وجنود وحرس خاص مما يجعل المقربين من الجند المساند للدولة الجديدة في قلق كبير على وضعهم في حين يعلل سعد زغلول عبد الحميد سبب هذه الثورة بأن الجند بدأ يشعر بعد أن انتقل الأمير الى قصره الجديد بنوع من البعد والتسلط والسيادة ، وأنه أهمل شئون جنده من حيث دفع الرواتب [٣] . اذن كان اعتماد الأمير ابراهيم الأغلبي على جند وحرس من غير الذين شاركوه انشاء وتوطيد دولته سبباً قوياً في دفع الجند القدامى الى الثورة بقيادة الوزير عمران بن مجالد [٤]

وأعلن عمران بن مجالد الثورةدون محاولة منه لتقدير أبعاد الموقف ونسي أنه مهما بلغ من القوة ومهما تكاثر حوله الأنصار فان شرعية الحكم للأمير الأغلبي ستجعل كفته راجحة لا محالة وأن الخلافة وهي ترنو من بعيد حتما ستؤيده وتعضده ضد أي خارج كيف لا ؟ وهو حامل لوائها في بلاد المغرب .

وتمكن عمران بن مجالد من اعلان الثورة ودخول القيروان في رجب سنة(١٩٤هـ)

---

(١) النويري : نفس المصدر .جـ ٢٣ ص ١٠٤

(٢) الدولة الأغلبية .ص ١٦٥

(٣) تاريخ المغرب العربي .جـ ٢ .ص ١٣٧

(٤) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ١٦٧

وانضم بعض أهلها اليه ، ويذكر ابن الأثير أن القيروان وأكثر أفريقية كانت معه[(١)].
غير أنه لم يذكر أسماء المدن التي ضمها مع القيروان في حين يحدد ابن الأبار أن جملة ما كان مع عمران بن مجالد القيروان والرقعة الممتدة حتى العباسية ففي هذا يقول (ولما قوي أمره أتى بعسكره حتى نزل بين القيروان وبين قصر ابراهيم وصارت القيروان في يده) [(٢)] . وحاول عمران بن مجالد أن يضم الى ثورته علماء القيروان الأجلاء فأرسل الى أسد بن الفرات ليسانده في ثورته فأبى وتمارض فبعث اليه (اما تخرج وإلا بعثت من يجرك برجلك) فقال أسد (والله لئن أخرجتني لأنادين في الناس القاتل والمقتول في النار) [(٣)]

وابتنى الأمير ابراهيم خندقاً حول العباسية ولاذ بها ودامت الحرب مدة عام كامل حدثت فيها بين الطرفين مناوشات غير مجدية وتسربت الى الثوار روح الملل والضجر لأن الأيام الرتيبة الماضية لم تؤد الى النصر المطلوب . وفعلاً جاء دور المشرق الفعال فقد أرسل الخليفة هارون الرشيد بعد ما سمع خبر تلك الثورة الى أمير أفريقية ابراهيم ابن الأغلب الأموال وسار الأمير ابراهيم في عسكره من العباسية وهو يحمل سلاحه ومعه عدته حتى إذا كان قرب القيروان نادى مناديه (من كان له اسم في ديوان أمير المؤمنين فليتقدم لقبض عطائه) [(٤)] ورجع الأمير ابراهيم من حيث أتى ولم يحدث شيىء مطلقاً ، فشعر الجند بأن الفرصة قد واتتهم للخروج مما هم فيه فانطلقوا يأخذون أعطياتهم ، وبذا دب الضعف في قوات عمران بن مجالد الذي اضطر الى الفرار الى منطقة الزاب بعد ما أدرك أنه لا محالة سيكون وحيداً لا ناصر له ولا معين سوى من

---

(١) الكامل في التاريخ . جـ٥ .ص ١٠٤

(٢) ابن الأبار : نفس المصـدر .جـ ١ ص ١٠٥

(٣) ابن الأبار : نفس المصدر .جـ ١ ص ١٠٥

(٤) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١٠٤

صاحبيه عمرو بن معاوية وعامر بن المعتمر وتبدو قيمة المدينه الجديدة التي أنشأها الأمير ابراهيم فقد أدت فعلاً الدور المناط بها فكانت ملجأً وحصناً ، ولعل هذا ما دفع الأمير ابراهيم أن يزيد في مساحة العمران فيها حيث أعطى لمواليه وآله اقطاعات داخل أسوارها في حين كان مصير القيروان تجريدها من كل عناصر القوة ، حيث خلع أبوابها وهدم أسوارها (١) . أما عمران بن مجالد فقد ظل في منطقة الزاب حتى وفاة الأمير ابراهبم سنة (١٩٦هـ) ، فلما تولى الأمير عبد الله بن ابراهيم طلب منه الأمان ، فمنحه إياه ثم غدر به وقتله (٢) .

اذن استطاع الأغالبة بقيادة المؤسس ابراهيم بن الأغلب توطيد حكمهم واقرار أمن البلاد بالقضاء على عناصر الشغب والفتنة ، الى جانب أنه تمكن من كسب البربر حتى أصبحوا من المخلصين للدولة الجديدة وخير مثال على ذلك تضامن بربر نفزاوه مع قوات زيادة الله بن الأغلب أثناء ثورة عامر بن نافع (٣) .

وأنطلاقاً من سياسته في تحقيق الأمن والاستقرار في أفريقية فقد حرص الأمير ابراهيم على تجنيب البلاد خطر الصراعات المذهبية لذا بدأ يترصد تحركات الأدارسة في المغرب الأقصى . فقد بعث من دس السم الى راشد القائم بأعمال الطفل ادريس بن ادريس بن عبد الله مما أدى الى وفاته ، فقام بأمر ادريس الثاني رجل يدعى بهلول بن عبد الواحد وما زال ابن الأغلب وراءه حتى جعله يخلع ولاءه للأدارسة ويصبح من أنصار العباسيين (٤) . ونظراً لعدم قدرة ادريس على مجابهة ابن الأغلب فأنه بعث الى ابن الأغلب يوادعه ويذكره بقرابته من الرسول الأعظم صلى الله عليه

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع .جـ٢ .ص ٣٨

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٠٥

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٣

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية .ص ٣٥

وسلم [١] . وكان ابراهيم بسياسته تلك قد أشعر من حوله بقوته فنعم بأستقرار أمني وتمتع برضى الخلافة عنه في المشرق حيث تمكن من تحقيق رغبة الرشيد في الحد من نفوذ الأدارسة .وبهذه السياسة التي أتبعها الأمير ابراهيم في القضاء على الثورات من جهة وسياسة المهادنة من جهة أخرى تمتعت أفريقية بنوع من الأستقرار كانت قد أفتقرت اليه منذ سنوات ، ويتضح هذا الأمر بصورة أكبر في عهد ابنه أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (١٩٦-٢١٠هـ) اذ لم تحدث في عهده أي حركة شغب ، وان كان سوء سياسته مع خاصته ورعيته جعلت منه رجلاً مكروهاً كما ذكر ابن عذاري [٢] . وتمثل هذا في أمرين أولهما : علاقته السيئة بأخيه زيادة الله وهذا الأمر بلاؤه قاصر عليه . أما الأمر الثاني فهو عملية الأصلاح المالي التي أستحدثها والتي بموجبها ألغى ضريبة العشر وجعل على كل زوج من البقر ثمانية دنانير أصابت الأرض أم لم تصب [٣]. بمعنى أن مساحة أي أرض يحرثها زوج من البقر تفرض عليها ضريبة قدرها ثمانية دنانير من غير مراعاة هل حرث الأرض أدى نتاجاً أم لم يؤد لأن الأنتاج الزراعي يخضع حتماً لعوامل أخرى ، فكان بذلك قد أضر بالناس وأحدث قلقاً لديهم حتى خرج الناس اليه من بلدانهم يسألونه ان يلغي قراره هذا " وقدم حفص بن حميد الجزري ومعه قوم صالحون من أهل الجزيرة وغيرها فاستأذنوا على أبى العباس فأذن لهم . فدخلوا عليه - وكان من أجمل الناس فكلمه حفص بن حميد فكان فيما قال له: " أيها الأمير أتق الله في شبابك وارحم جمالك ، وأشفق على بدنك من النار . ترى على كل زوج يحرث ثمانية دنانير . فأزل ذلك من رعيتك ، واخذ فيهم بكتاب

---

(١) النويري : نفس المصدر .جـ ٢٤ .ص ١٠٣

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٢١

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ ١.ص ١٢١ - النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١٠٦

الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فأن الدنيا زائلة عنك كما زالت عن غيرك " (١)
هذا النص يوضح أنه من عوامل أستقرار الأمن في البلاد سياسة الراعي فإذا كانت نقمة العامة على أبي العباس عبد الله بن ابراهيم لم تحدث في شكل ثورة عارمة الا أنها كانت نذيراً بتأزم الوضع الداخلي غير أن تعجيل الله به قد حمى المنطقة من أندلاع ثورة لا يعرف مداها الا الله وحده .

وفي واقع الأمر أن استقرار أفريقية سياسياً كان مرهوناً بوجود الشخصيات القوية وحسن سيرتها في الرعية ، فهذا زيادة الله بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣هـ) يتشدد مع الجند ويشك في نواياهم نظراً لثوراتهم المتكررة حتى أضطرهم الأمر للخروج عليه(٢) . وبتقصي الحقائق في وضع الجند في أفريقية نجد أن ثوراتهم كانت نتيجة مجموعة عوامل كامنة وكانت سياسية العنف من قبل السلطة الحاكمة وعدم الثقة فيهم المحرك وراء ثوراتهم (٣).

أما أول ثورة واجهت زيادة الله سنة (٢٠٧هـ) كانت بقيادة زياد بن سهل بالقرب من باجه(٤) عند منطقة فحص (٥) أبى صالح ولم تذكر المراجع سبباً للثورة غير سوء سياسة زيادة الله بن الأغلب وأرسل زيادة الله قائده - سالم بن سواده - للقضاء عليها ، وكان زياد بن سهل قد دخل باجه وضرب الحصار عليها وتمكن الجيش الأغلبي

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ٢٤ .ص ١٠٣

(٢) النويري : نفس المصدر جـ ٢٤ .ص ١٠٧

(٣) أنظر حول موضوع الجند الفصل الثاني من البحث التكوين الأجتماعي لمدينة القيروان

(٤) باجة : بلد بافريقية تعرف بباجة القمه وهي بلد كثير الأنهار على جبل يقال له عين الشمس (البكري: المغرب في ذكربلاد افريقية .ص ٥٦)

(٥) فحص أبي صالح : الفحص هو كل موضع يُسكن سهلاً كان أو جبلاً بشرط أن يزرع وهو علم لموضع (ياقوت الحموي : معجم البلدان .جـ ٤ .ص ٢٣٦)

من فك الحصار والقضاء على الثوار بقتل كثير منهم [(١)] وفي السنة التالية أي سنة (٢٠٨هـ) قامت ثورة القصرين والتي تزعمها عمرو بن معاوية الذي كان قد خرج مع عمران بن مجالد على الأمير ابراهيم بن الأغلب وكان له بمثابة وزير على حد تعبير ابن الأبار الذي يقول عنه (وكان وزيره الغالب عليه في أموره) [(٢)]. وكان قد عفا عنه الأمير ابراهيم بن الأغلب واستطاع أن يستعيد ثقة الأغالبة حتى أن زيادة الله الأول قام بتعينه والياً على منطقة القصرين فأعلن عمرو الثورة لأسباب غير معلومة ، وقد راجعه ابنه الأكبر حباب في خروجه على السلطة الشرعية . ذكر ابن عذاري قول حباب لوالده : (انك دخلت في أمر عظيم وعرضت نفسك للهلاك ولست من رجال هذا الأمر ولا ينفعك عدد ولا عدة فراجع أمرك واتق الله في نفسك) [(٣)] . فضربه والده مائتي سوط واستمر في ثورته ، وأمام الجموع الكبيرة التي ارسلها له زيادة الله بقيادة أحد ثقاة الأغالبة من القادة المخلصين الذين لهم باع في خدمة الدولة منذ عهد والده الأمير ابراهيم وهو أبو هارون موسى طلب الأمان واستسلم مع ولديه حباب وسجمان فأعطاه الأمير زيادة الله الأمان ثم نكث بهم وقتلهم جميعاً [(٤)] .

على أن أخطر تلك الثورات هي ثورة منصور بن نصر الطنبذي[(٥)] سنة (٢٠٩هـ) الذي سعى للأستيلاء على تونس وفشلت جهود زيادة الله في بادىء الأمر في القضاء على الثورة مما أدى الى انسلاخ أجزاء من امارة أفريقية من سيطرة الأغالبة بما في ذلك حاضرة البلاد القيروان وذلك بعد انضمام جند زيادة الله الى قوات الثائر الذين

---

(١) سعد زغلول : نفس المرجع . جـ ٢ .ص ٢٤

(٢) الحله السيراء .جـ ١ .ص ١١٠

(٣) البيان المغرب . جـ ١ . ص ٩٠

(٤) الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ١٨٧

(٥) منصور الطنبذي : من كبار رؤساء الجند وهو من ولد دريد بن الصمه (والطنبذي) نسبه الى القصر الذي كان يسكنه في منطقة المحمدية قرب تونس (سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي .جـ٢ . ص ٤٦)

كانوا بقيادة ابن عمه الوزير غلبون (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب) اثر تهديد الأمير زيادة الله بن ابراهيم لهم بالعقاب الشديد اذا ما غلبوا أمام قوات الطنبذي فما كان منهم عند الهزيمة الا أن فروا الى الأمصار ، وهناك أعلنوا انضمامهم الى منصور[(١)]. واستشعر منصور القوة بانضمام هؤلاء اليه فتجرأ على محاصرة القيروان ذاتها ، ويبدوأن منصور قد بلغ من النفوذ الكثير حتى وجدنا أهالي القيروان ينضمون اليه لكن زيادة الله أخذ يشحذ القوات على هيئة نظامية في القتال وزحف بهم نحو الثائر منصور الذي تقدم بجيشه للقاء زيادة الله ونشب القتال بين الطرفين في معركة حامية الوطيس انهزم فيها الطنبذي وفر ومن معه في الأمصار في حين دخل زيادة الله القيروان وأراد أن يبطش بأهلها لمساندتهم للثائر منصور ، ولكن أهل العلم منعوه من ذلك فاكتفى بأن خرب سور القيروان ونزع أبوابها [(٢)]. على أن منصور تمكن بعد فراره من أن يلم شعثه ويقوي أمره بمن معه ، وبما كان معه من المدن اذ لم يبق تحت سلطان الأغالبة سوى الساحل وقابس ، ونفزاوه [(٣)] وطرابلس بل زاد وضع الأغالبة سوءاً حين كتب الجند الى الأمير زيادة الله ما يبين كراهيتهم له قائلين له (أن ارحل حيث شئت وخل عن افريقية ولك الأمان في نفسك ومالك وما ضمه قصرك)[(٤)].

غير أن القائد الأغلبي سفيان بن سوادة تولى أمر تجهيز جيش لقتال الثائرين

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص ٥١

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر .جـ٥ .ص ١٨٦ – النويري : نفس المصدر .جـ ٢٤ .ص ١١٢

(٣) ونفزاوه : مدينه من أعمال افريقية لها سته أبواب وجامع وأسواق حافلة ، خصبة الأرض بينها وبين القيروان ستة أيام (ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٦٧ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان .جـ ٥ .ص ٢٩٦)

(٤) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١١٢

فاختار مائتي فارس من خيرة رجال الأغالبة واستعان بنفزاوه وزناته وتمكن بتلك القوات أن يفتح البلاد حتى وصل الى قسطيلية [(١)] حيث كان عامر بن نافع الزعيم الثاني مع منصور قد وصلها ثم خرج منها الى تفيوس [(٢)] ، واتخذها مركزاً لقيادته وخرج سفيان للقائه وانتهى الأمر بين الطرفين بانهزام قوات عامر بن نافع الذي فر نحو تونس حيث قوات الجند الثائرة الباقية هناك مع القائد منصور الطنبذي [(٣)]. ثم كان الصراع الذي حدث بين قائدي الثورة منصور وعامر بن نافع في صالح الأغالبة حيث انتهى أمر منصور على يد عامر الذي طلب من ولده حمديس بن عامر أن يقتل منصور بعد ما كان قد أعطاه الأمان وقد قتل أيضاً أخاه حمدون ، غير أن مقتل منصور قد أثار حفيظة الجند الذين انضموا الى زعيم لهم يدعى عبد السلام ابن المفرج[(٤)] ضد عامر بن نافع ، وانتهى الأمر بفرار عامر الى جربه [(٥)] ، حيث كان والده هناك ثم كان الفرج من الله تعالى بمرضه ثم موته سنة (٢١٣هـ) فحق عندها لزيادة الله أن يقول (الآن وضعت الحرب أوزارها) .

وبهذا تمكن الأمير زيادة الله أن يحقق الأمن لبلاده ، ولابد من التنويه أنه ليس من العجيب قيام تلك الحركات ، فمثل هذه الصراعات تصاحب قيام الدول الكبرى ولا

---

(١) قسطيلية : مدينة في بلاد الجريد وهي كبيرة عليها سور حصين مشهوره بالتمر (ياقوت الحموي : معجم البلدان .جـ ٥ . ص ٣٤٨)

(٢) تفيوس : مدينه بافريقية قريبه من توزر (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٢ . ص ٣٧)

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي . جـ ٢ . ص ٥٦

(٤) عبد السلام ابن المفرج من القاده العسكرين لعامر بن نافع طلب منه منصور الطنبذي أن يأخذ له الأمان من عامر بن نافع وكان له ذلك على أن غدر عامر بن نافع بمنصور دفعه الى الاستقلال بباحة وحشد القوات لقتال عامر بن نافع (سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص٥٧)

(٥) جربه : قرية بالمغرب على مقربه من قابس يسكنها البربر مشهورة ببساتينها الكثيرة . (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٢ ص ١١٨)

يكون لها تأثير على الأمن طالما أن الدولة لديها أسباب القوة ولعل ذلك الموقف الذي وقفه الأغالبة من تلك الثورات حيث الشدة والصرامة في القضاء على كل مناوىء مما جعل البلاد تسير قدماً نحو الرقي والحضارة حيث شهدت افريقية زمن الحكم الأغلبي رغم تلك المحن التي مرت بها رخاءاً وازدهاراً في جميع المجالات [(١)] كما كان فتح صقلية سنة (٢١٢هـ) دعامة قوية فالأغالبة ما أن ملكوا أسباب القوة في افريقية حتى خرجوا من ديارهم لفتح مناطق جديدة .

ثم نعمت البلاد فيما بعد باستقرار تام في عهد أبي عقال الأغلبي بن ابراهيم (٢٢٣-٢٢٦هـ) اذ لم تقم للجند قائمة حيث ترفق بهم وأجزل لهم العطاء ومنحهم رواتبهم في وقتها المحدد [(٢)]. ولم تحدث في عهده ثورات غير ثورة بلاد الجريد التي تمكن من القضاء عليها وأعاد الأمن في كافة المنطقة) [(٣)].

ولعل الشيء الحسن الذي لاينساه التاريخ لأبي عقال هو منعه النبيذ والخمر بيعها وتناولها في القيروان ، ولا بد أن ندرك أثر ذلك على أهالي القيروان اذ كانت تلك المدينة مشعل العلم حيث حلقات الذكر والفقه والأدب تعقد فيها وتتم المناقشات بين علمائها . كما كانت تستقبل كبار المشايخ ورجال العلم من مختلف بقاع الأرض ، فكان تحريم تناول النبيذ والخمر وبيعها ما يدل على أن لهذه المدينة حرمة يجب أن تراعى لاسيما أنها أصبحت مدرسة في الدراسات الشرعية . ومن ثم فأبو عقال بعمله هذا جعل الخاصة والعامة ترضى عنه وعن سياسته [(٤)] .

كما لا يمكن أغفال دور الأمير أبو عقال في عملية الأصلاح المالي التي أستحدثها

---

(١) ابو القاسم كرو وعبد الله شريط : عصر القيروان ،ص ١٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ،ص ١٣٩

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ،ص ١٣٩

(٤) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص ٧٧

الأمير عبد الله ابن ابراهيم ذكر ابن الأثير قوله (وأزال مظالم كثيرة)[١] في حين ذكر ابن عذاري ما يفيد ذلك بقوله (وغير أحداثا كثيرة كانت قبله) [٢] فعمل على اعادة العشر على ما تنتجه الأرض من غلات فكسب بذلك قلوب الناس وأستمالهم اليه فسكنت البلاد وهدأت ونعمت بفترة من الأستقرار .

وفي سنة (٢٢٦هـ) تولى حكم البلاد الأمير محمد بن الأغلب بن ابراهيم واستمر حكمه مدة خمسة عشر سنة أي حتى سنة (٢٤١هـ) ، وكان أهم حدث فيها زعزع استقرار الأمارة ، الصراع الداخلي بينه وبين أخيه الأمير أحمد الذي أطمع المناطق الثائرة دائماً في الزاب وتونس على أعلان العصيان وشق عصا الطاعة . ويذكر النويري [٣] في سبب ثورة الأمير أحمد أنها قامت أنتقاماً من تسلط ابنا الوزير علي بن حميد وهما أحمد ومحمد في الوقت الذي كان فيه الأمير محمد قد انصرف الى اللهو ، وكان منذ بداية عهده قد أسند بعض أعمال الحكم في الأمارة الى أخيه الأمير أحمد ، وقد أوكل الأخير هذه الأعمال الى الثقة من بطانته، مثل كاتبه نصر بن حمزة الجروي [٤].ويبدو أن انصراف الأمير محمد الأول الى حياته الخاصة كانت سبباً في أن يُخلص ابنا حميد معه والقيام بجميع الأعباء لاستكمال أعمال الحكم ، على أن ذلك كان مثار حنق الأمير أحمد وخاصته الأمر الذي دفعهم لأجتياح قصر الأمير محمد في ظهيرة يوم السبت السادس عشر من شهر شعبان سنة (٢٣١هـ) وقتل في تلك الأثناء محمد بن علي بن حميد ، وعلم الأمير محمد بالخبر فاعتلى قبة عمه زيادة الله وحدث قتال بين رجال الفريقين [٥] وقد أراد المقتحمون الحد من الوضع

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر جـ٥ .ص ٢٥٣

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٣٩

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١١٨

(٤) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١١٨

(٥) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ . ص١٤١

فصاحوا بأصحاب الأمير محمد قائلين (ما لكم تقاتلون ؟ لاطاعة إلا طاعة محمد انما قمنا على أولاد علي بن حميد الذين قهروكم . واستأثروا بمال مولاكم دونكم وأما نحن ففي الطاعة ما خلعنا منها يداً) (١) وتوقف اثر ذلك القتال والتقى الأميران في القاعة العامة لفض النزاع وسد الخلل وتم الصلح بينهما على أن لا يغدر أحداهما بالأخر وأن يسلم الأمير محمد الأول لأخيه الأمير أحمد أبو حميد أحمد بن علي بن حميد الذي كان قد فر اثر مقتل أخيه محمد بن علي الى الأمير محمد ، واشترط الأمير محمد على أخيه أن لا يصيبه بأذى لكنه لم يوف معه بالشروط حيث قتله أثناء رحيله الى مصر التي كان قد نفاه اليها (٢). ويبدو انه استهدف من وراء ذلك تجريد أخيه الأمير محمد من أقوى مناصريه ولم يشأ نفيه الى خارج البلاد بل رأى أن قتله أفضل ليتسنى له السيطرة التامة على مقاليد الحكم دونما وجل ، وبالفعل قام الأمير أحمد بعدة خطوات جعلته رجل الأمارة الأول ولم يعد لأخيه الأمير محمد من سلطة الحكم إلا الأسم فقط (وعظم قدر أحمد واشتد سلطانه ، وجعل الدواوين الى نفسه وصار الأمر كله له ولم يبق لمحمد إلا مجرد الاسم)(٣).

كما عين حجابا آخرين بعد ما عزل القدامى وكانوا من الموالين له وعين له حرساً خاصاً بلغ ٥٠٠ رجل واتخذ نصر بن حمزة الجروي وزيرا له (٤).

وكان هذا الاجراء سبباً في نقمة المناصر الأخر للأمير أحمد وهو داوود بن حمزه الوادري الذي كان يطمع في الوزارة ومن هنا ستبدأ المؤامرة ضد أحمد من قبل ابن

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١١٩

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ ١ ص ١٤١

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١١٩

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ ١ ص ١٤٢

حمزة لأنه لم يضع الأمور في نصابها[١] .

لم يتمكن الأمير أحمد رغم ما وصل اليه من نفوذ في أمارة أخيه محمد من العيش بدون مشاكل ولا عجب في ذلك فلا يمكن بأي حال أن ينسى العامه أن السلطة الشرعية ليست له ، كما أن الصراع ظهر بين أتباعه متمثلاً في شخصيتين بارزتين كانا عضد المؤامرة التي حاكها للوصول الى تلك المنزلة هما داوود بن حمزة الوادري ، ونصر بن حمزة الجروى ، فلقد حنق الأول على الأخير توليه الوزارة في حين كان يرى أحقيته لها، فأرسل الى الأمير محمد يخبره بما يدبر له أخوه في الخفاء لنزع السلطة منه وهنا تنبه الأمير الشرعي وأخذ يعمل لأستعادة نفوذه[٢] .

اضافة الى يقظة الأمير محمد ، فان سياسة الأمير أحمد التي قادها سنة واحدة دون صبغة شرعية أي حتى سنة (٢٣٢هـ) كانت تنم عن سوء طبع فلا ينسى أنه قاتل ابنا علي ابن حميد اللذين كانا من أكبر المناصرين للمذهب السني ، ولا يمكن أن يغفر له الناس اعلانه في المساجد القول بخلق القرآن[٣] ، كما لم يكن من السهل أن ترضى الأسرة الأغلبية مثل هذه الأوضاع من الخروج على الحكم الشرعي[٤] .

وبذا تضافرت جميع الظروف على إسقاطه ، وتم ابعاده من قبل أخيه الشرعي محمد الى المشرق .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ٢ . ص ٨٠-٨١ ، محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ص٢٥١

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٢٠

(٣) أنظر تفاصيل هذا الموضوع في الفصل الثالث من البحث الحياة الفكرية في القيروان

(٤) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية من ص ٢٤٨ الى ص ٢٥١

هذا النزاع الداخلي حتماً سيؤدي الى نتائج سلبية على مقاليد الأمور الأمنية متمثلة في :

ثورة الزاب :

استغل سالم بن غلبون والي الزاب من قبل الأمير محمد الصراع الذي قام بين الأخوين ، وأعلن العصيان والخروج عن الطاعة وعزل الأمير محمد سالم بن غلبون عن ولاية الزاب بعد ما استقرت له الأوضاع سنة (٢٣٢هـ) لكن على ما يبدو لم يذعن لأمر العزل (١). ولذلك نراه يخرج من الزاب سنة (٢٣٣هـ) الى الأربس (٢) ، التي رفض سكانها استقباله فتوجه الى باجة وسيطر عليها ، فأرسل اليه الأمير محمد جيشاً بقيادة خفاجة بن سفيان تمكن من تضيق الخناق عليه ، فلاذ الثائر بالفرار من باجة وتعقبه القائد خفاجة بن سفيان حتى لحق به وقتله ، وأتى برأسه للأمير محمد ، كما قام بقتل ابنه رغبة في القضاء على جميع قوى المعارضة (٣).

ثورة القويبع :

هذه الثورة استمرت ما يقرب من عامين ونصف (٢٣٤ الى سنة ٢٣٦هـ) ورغم ذلك لا يورد ابن عذاري وابن الأثير (٤) سببا لهذه الثورة اطلاقاً في حين يذكر سعد

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١٤٣

(٢) الأربس : مدينه بافريقية أكثر غلتها الزعفران بها معدن الحديد تبعد عن القيروان ثلاثة أيام من جهة الغرب (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ١ ص ١٣٦)

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المصدر . جـ ٢ . ص ٨٥

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ١٤٤ – ابن الأثير : نفس المصدر .جـ ٥ . ص ٢٨٢

زغلول عبد الحميد أن سببها هم جند تونس الثائر دوماً [(١)].

بينما يضع الطالبي سببا لهذه الثورة مرده ظلم الأمير وعسفه بالرعية [(٢)]. وقد استمد استنتاجه هذا من موقف الامام سحنون القاضي أنذاك من هذه الثورة اذ طالبه الأمير محمد الأول بايعاز من بعض قواد ابن الأغلب - أن يعينه للقضاء على تلك الثورة ، وأن يحث العامة على ذلك فرفض الامام سحنون ابن سعيد وقال [غشك من ذلك على هذا متى كانت القضاة تشاورها الملوك في اصلاح سلطانها] ونهض من عنده [(٣)].

لربما هذه الرواية تدلل بشكل ما على ماذهب اليه الطالبي ، على أنه يبدو لنا أن الامام سحنون ابن سعيد قد يكون رافضاً المشاركة في القضاء على الثورة لأن القتال أصلاً بين فئتين مسلمتين والدليل في القرآن الكريم واضح حول هذا الموضوع ، من القتال يقول المولى تبارك وتعالى ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[(٤)].

والامام سحنون معروف عنه نزاهته في أبسط الأمور فما بالك في أمر فيه اراقة لدماء المسلمين . فلا يكون الخيار أمامه في هذه الحالة إلا أن يقف دون أن يشارك في فتنة لا يعلم إلا الله مدى ذنب المشاركة فيها .

---

(١) تاريخ المغرب العربي . جـ ٢ . ص ٨٤

(٢) الدولة الأغلبية . ص ٢٦٥

(٣) القاضي عياض : تراجم الأغلبية . ص ١٠٩

(٤) الأيه ٩ من سورة الحجرات

تمكن قائد الثورة عمرو بن سليمان التجيبي [١] المعروف بالقويبع في تونس أن يصمد أمام حملتين أرسلهما الأمير محمد للقضاء عليه الأولى بقيادة خفاجة بن سفيان سنة (٢٣٤هـ) والثانية بقيادة محمد بن موسى المعروف بعريان سنة(٢٣٥هـ) ، وكان نتيجة هزيمة جيش عريان أن انضم كثير من موالي الأمير محمد الأغلبي للثائر (القويبع) [٢]. الأمر الذي أحدث خللاً كبيراً في كيان دولة الأمير محمد بن الأغلب ولهذا يعبر ابن عذاري عن هذا الوضع بقوله(واشتدت شوكة القويبع)[٣] وما كان أمام الأمير محمد الأول إلا أن أخرج له سنة (٢٣٦هـ) جيشاً كثيفاً بقيادة خفاجة بن سفيان استطاع به أن يوقع هزيمة فادحة بالقويبع وقواته وقتل القويبع وحمل رأسه للأمير محمد وجزى قاتله بهدايا وخلع سينيه [٤] ويمكن القول أن هذه الثورات كانت عاملاً في اضطراب البلاد وكان سببها الأساسي الصراع بين الأخوين إلا أنه على الجانب الأخر يذكر أن تونس كانت دوماً حصناً للثائرين ، وكانت الزاب أيضاً تجنح الى العصيان كلما سنحت الفرصة ووجدت منفذا [٥] ، لكن افريقية رغم تلك الثورات وجهود الأمارة في القضاء عليها كانت تنعم بنوع من الأمن والأستقرار لا سيما في مدة قضاء الامام سحنون بن سعيد الذي رفع الظلم ونشر العدل وشملت أحكامه

---

(١) عمرو بن سليمان التجيبي : من بني تجيب من قبائل كنده من عرب الجنوب (محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ٢٦٥)

(٢) يذكر الطالبي أن انضمام الموالي الى الثائر عمرو بن سليمان ربما كان انتقاماً مما أحدثه الأمير محمد بن الأغلب بموالي الأمير أحمد اذ قتل أعداداً كبيرة منهم يوم أراد استرجاع مكانتة في قصر الحكم (الدولة الأغلبية . ص ٢٦٨)

(٣) البيان المغرب . جـ ١ . ص ١٤٤

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ ١ .ص ١٤٤

(٥) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ ص ٨٥

العامة من الناس والخاصة من أسرة الأمير ، الأمر الذي أظهر نوعاً من المساواة المطلقة بين سكان افريقية شريفهم ووضيعهم [(١)].

وفي سنة (٢٤٢هـ) تولى الأمارة الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب ولم يكن في عهده إلا ثورة أهالي طرابلس المعتنقين لمذهب الخوارج الأباضية الذين منعوا أداء العشر من خراج الأرض الأمر الذي اضطر والي طرابلس عبد الله بن محمد الى قتالهم لكنهم هزموه أكثرمن مرة فطلب معونة الأمير أحمد بن محمد الذي أرسل اليه جيشاً بقيادة أخيه زيادة الله . فأنزل بهم هزيمة ساحقة أذعنوا بعدها ودفعوا ما كان عليهم من أموال الخراج [(٢)].

ولعل سياسته التي اتسمت بالهدوء والحسنى كان لها دور كبير في أمن البلاد واستقرارها ، اذ سار على سياسة أبي عقال في زيادة أعطيات الجند لأنه أدرك أن ذلك عاملاً من عوامل ارضاء هذه الطائفة عصب الدولة وقوام أمنها ، وزيادة في الحذر قام باتخاذ جنود من السود جعلهم قوة في جيشه [(٣)].

وظلت البلاد طيلة عهد أخيه زيادة الله الثاني من سنة (٢٤٩-٢٥٠هـ) هادئة ساكنة شعر فيها الناس بجو الألفة بينهم وبين حكامهم [(٤)].

وفي أمارة أبي الغرانيق (من سنة ٢٥٠ الى سنة ٢٦١) كان اضطراب اقليم الزاب ، ذلك الأقليم الذي يوصف بأنه محصن طبيعياً ، ويعرف بقدرته على تحمل الصعاب [(٥)].ولعل ذلك يرجع لقرب الأقليم من منطقة سلطان الرستميين حكام تاهرت

---

(١٥) انظر الفصل الثالث (نشر مذهب مالك) من البحث ص ١٧٢

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ ٢٤.ص ١٢٣ - سعد زغلول عبد الحميد نفس المرجع . جـ٢ ص ١٠٠
- محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ٢٦٣

(٤) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ٢٧٤

(٥) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية .ص ٢١٤

أصحاب المذهب الأباضي أو لأن منطقة الزاب ذاتها تقطنها قبائل من البربر تعترف بامامة تاهرت الرستمية [١]. وسواءً أكانت تلك الدوافع أو غيرها فان اقليم الزاب كان مصدر ازعاج لحكومة القيروان ، وقد أرسل الأمير الأغلبي قائده أبو خفاجة في جيش كبير تمكن من انزال الرعب في قلوب البربر في كل من تهوذه [٢] ، وبسكره [٣] . ثم طبنه قاعدة اقليم الزاب وقدم البربر كل فروض الولاء والطاعة لكن القائد أبو خفاجه رفض الا اذلالهم وانزلهم على حكم السيف بسبب عدم خروج زعيمهم لمقابلته وطلب العفو منه ، وأمام اصراره على رفع السيف ألحق به جيش الثوار هزيمة فادحة رغم وصول المدد اليه من قبل جيش بلزمه ، وقائده حي بن مالك البلوي ، وذهب ضحية تلك الهزيمة قائد الأمير الأغلبي وكبار قواده وكثير من جنده [٤] .

في سنة (٢٦١هـ) تولى ابراهيم بن أحمد أمارة افريقية وبدأ عصره بحسن السيرة والعدل في الرعية ونشر الأمن وانصاف المظلوم لكن ما لبث أن انحرف عن الجاده بسبب سوء ظنه الأمر الذي جعله يسفك الدماء في المهم وغير المهم وأسرف في ذلك كثيراً ثم عاد في أواخر عهده الى الزهد والنسك [٥] ، ويعلل السيد عبد العزيز سالم سبب عودته الى العدل وترك الظلم الى ظهور خطر أبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة خوفاً من فرار الناس من دولته وتجمعهم حول أبي عبد الله فيكون بذلك قد هيأ لعدوه الأنتصار ومكنه من تحقيق مراده[٦] .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص ١٠٦

(٢) تهوذه : أرض بافريقية تسكنها قبيلة من قبائل البربر اسمها تهوذه (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ١ . ص ٦٤)

(٣) بسكره : بلده بالمغرب من نواحي الزاب وهي مدينة مدره بكثير فيها فيها النخيل (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ١ ص ٤٢٢)

(٤) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ٢٨٨

(٥) النويري : نفس المصدر ج٢٤ . ص ١٣٥

(٦) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . ص ١٤٠

ثم كان الخطر سنة (٢٦٥هـ) والمتمثل في زحف القوات الطولونية من برقة [(١)] بقيادة العباس بن أحمد بن طولون ، الذي فر من مصر الى برقة بعد ما خرج عن طاعة والده الذي أنابه عنه خلال خروجه لحملة عسكرية الى بلاد الشام لتأمين الحصون التابعة له وردع الخارجين عليه ومكث في برقه قرابة السنة ، يدرس خطة لأقتحام طرابلس وقام بمراسلة أهل طرابلس ، وقد استجاب له بعض زعمائها مما شجعه على الزحف اليها . فقام الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني بارسال قوات كثيرة يقودها أحمد ابن قرهب الى طرابلس ، وعمل القائد الأغلبي هناك على حشد الجند ثم سار الى لبده[(٢)] ليمنع العباس بن أحمد بن طولون من دخولها ، ولما لمح طلائع جند العباس خرج من لبده لملاقاته قبل دخوله لبده عند منطقة (وادي ورداسه) ، وتمكنت قوات العباس من هزيمة الجيش الأغلبي الأمر الذي أدى بجيش الأغالبة الى التراجع نحو طرابلس في حين دخل جيش العباس بن أحمد بن طولون لبده وعاث فيها فساداً وذلك سنة (٢٦٦هـ) ، ثم تابعت قوات العباس بن أحمد بن طولون مسيرتها حتى وصلت الى طرابلس وضربت عليها الحصار ، ودار قتال عنيف بين قوات الجيش الأغلبي وقوات العباس بن أحمد بن طولون غير أن موقف العباس ما لبث أن ساء بسبب هجمات بربر نفوسه من الجبل بزعامة قائدهم الياس بن منصور ، الأمر الذي أدى الى تراجعه بعد ما فقد الكثير من رجاله ، وكاد أن يقع أسيراً لولا معونة بعض رجال من السودان له فتقهقرتاركاً أمواله [(٣)].

وكان لغارة العباس بن احمد بن طولون تلك آثاراً اقتصادية سيئة على بلاد

---

(١) كانت برقة تابعه للطولونين ومن ممتلكاتهم (محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . ص ٨٧)

(٢) لبده : مدينه بين برقة وافريقية وقيل بين طرابلس وجبل نقوسه وهو حفنه من بناء بالحجر ولأجر (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٥ ص ١٠)

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٣٠ - ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ١٥٨

افريقية الى جانب القحط الذي كانت تعاني منه افريقية كثيراً في هذه الفترة مما أضطر ابراهيم الثاني الى أخذ حلي نسائه وبيعها للأنفاق على أمور الدولة .كما استفاد الناس من الأموال التي تركها ابن طولون بعد هزيمته [١] .

ثم كانت ثورة باجة سنة (٢٦٨هـ) وهوارة ، وقد تمكن الأمير ابراهيم الثاني من القضاء عليها ، ولما تكررت ثورة بعض أهالي باجة في تلك السنه أرسل اليهم جيشاً جراراً يقوده ابنه أبو العباس الذي تمكن من الفتك بهم وتفريق جموعهم [٢] .

ورغم تلك الصرامة التي استخدمها الأمير ابراهيم الثاني للقضاء على الخارجين والثائرين إلا أن الثورة عادت في البلاد ، فضرب الأمير الأغلبي عليها بيد من حديد، ففي سنة (٢٨٠هـ) قضى على ثورة جزيرة شريك [٣] ثم على ثورة قموده [٤] ثم تونس التي دخلها قائده ميمون ، وحاجبه الحسن بن ناقد بالسيف ، لكن رغم ذلك عادت تونس للثورة سنة (٢٨١هـ) ، ورغبة من الأمير في احكام سلطان الأغالبة على تلك المدينة القريبة من الساحل ولكي يشعر اهلها بانتمائهم الى الدولة الأغلبية قرر بعد القضاء على فتنتها اتخاذها مقراً له .

وفعلاً انتقل اليها في تلك السنة بعد أن بنى له بها قصوراً لسكنه حيث انتقل اليها يوم الأربعاء ٢٤جمادي الأولى ومعه أهل بيته وجميع قواده ومواليه [٥].

على أن أهل طرابلس أقلقوا مضجع الأمير ابراهيم ، فبينما هويعد العدة سنة (٢٨٢هـ) لمحاربة ابن طولون في مصر حيث خرج من تونس الى رقاده وبقى فيها ما

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١٥٨
(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٢٧
(٣) جزيرة شريك : كوره بافريقية بين سوسه وتونس قصبتها باشوا (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ٢ .ص ١٣٦)
(٤) قموده : لم أجد لها تعريف
(٥) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٣٣

يقرب من الشهر يدبر أموره ويجهز نفسه فلما خرج اعترضه أهل نفوسه بجيش عظيم في ربيع الأول ، وتقاتل الطرفان قتالا مريرا نتج عنه هزيمة أهل نفوسه وتتبع الأمير ابراهيم فلولهم حتى قتل منهم خلقاً ، وكان أهل نفوسه خوارج أباضية ، وكان الأمير ابراهيم لا يعرف على ما يبدو شيئاً عن عقيدتهم اذ قال بعد ما رأى البحر أحمر من دماء القتلى الملقاة فيه (لو كان هذا القتل لله لكان اسرافاً) لكن طابت نفس الأمير على قتله لهم بعد ما تأكد من مذهبهم الخارجي الذي به يكفروا الأمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه [1] بل زاد على ذلك أن قتل منهم خمسمائة رجل بيده في وقت واحد [2] .

هذه القوة والشدة في القضاء على الثورات كان لها نتائج سيئه بلغ صداها مركز الخلافة في بغداد ، وكانت شكوى أهل تونس للخليفة المتعضد بالله (٢٧٩-٢٨٨هـ) الذي طلب من الأمير الأغلبي أن يعتزل الأماره ويتنازل عنها فنزل الأمير ابراهيم على رغبة الخلافة في بغداد وبعث في طلب ابنه من صقلية ليتسلم زمام الأمور وخرج هو غازياً في صقلية .

ولعل هذا يبرز جانباً هاماً في نوعية العلاقة بين الأغالبة والخلافة في بغداد ، فمن جانب الخلافة كانت لا ترى مطلقاً خروج هذا الأمر (الاستقلال بافريقية) عن أسرة الأغالبة . ولا بد أن اخلاص هذه الأسرة للعباسيين من جهة. واستقرار الوضع في افريقية على أيديهم من جهة ثانية كان وراء ذلك الحرص أن يستمر أمر افريقية

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٣٣

(٢) الحكم الشرعي لقتال الخوارج مختلف فيه بين أهل العلم فبينما يرى الامام مالك جواز قتلهم اذا لم يتوبوا استنادا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (فأينما لقيتموهم فاقتلوهم) يرى ابو حنيفة والشافعي وجمهور أهل الفقه تحريم قتلهم اذا لم يخرجوا من قبضة الامام (ابن قدامه : المغني . جـ ١٠ ص ٥٨)

في يد الأسرة الأغلبية .

ومن جانب آخر كان الأغالبة ينصاعون لأوامر الخلفاء لشعورهم بأنهم أصحاب السيادة وأن لهم الحول والطول في العالم الأسلامي .

تلك الثورات التي تحدثنا عنها . والتي منها ما كان عقائدياً كثورة اقليم الزاب واقليم طرابلس ، أو ما كان سياسياً كثورات الجند ، أو ما كان من أطماع خارجيه كحملة ابن طولون ، تبرز الدور الكبير الذي لعبه الأغالبه في القضاء عليها لتحقيق أمن القيروان خاصة وأمن افريقية عامه اذ أن ما يصيب القيروان كعاصمة وما يصيب المدن التابعة لها سيؤدي حتماً الى زعزعة الوضع في المنطقة بأسرها ، ولهذا كانت جهود الأغالبة مكثفة في القضاء على جميع الثورات في العاصمه القيروان وفيما سواها .

تخطيط القيروان واقبال الناس على السكن فيها :-

أصبحت القيروان منذ انشائها مركزاً عسكرياً وثقافياً ومصرا لها دورها في تسيير عملية الحياة في الشمال الأفريقي الأمر الذي جعلها مقصد الناس من كل حدب وصوب فهناك أعداد كبيرة من قبائل قريش العريقة ومن مضر وربيعة وقحطان الى جانب العجم من البربر [١] ثم زاد عليها بعد ذلك عنصر الفرس زمن العباسيين اذ استوطنها بعض منهم [٢] .ومع ازدياد عدد ساكنيها أخذت هذه المدينة ترتقي في مدارج الحضارة رويدا رويدا وحرص الخلفاء والولاه على العناية بها عمرانياً وثقافياً واقتصادياً . إلا أن البلاد بلغت في عهد الأغالبة منذ سنة (١٨٤هـ) الذروة في التقدم الحضاري وأظهرت القيروان بذاخة الملك بكل المنشآت التي قامت فيها من منشآت عامه ومباني خاصة .

ويعلل حسن حسنى عبد الوهاب تلك الفخامة برغبة الأغالبة في التأسي بسيرة العباسيين في المشرق والتي كان الأغالبة ممثليها في المغرب . على أن ذلك لا يعني أن القيروان آنذاك كان يمكن اعتبارها كعاصمة على هيئة العواصم العصرية ،ولكن كانت مصرا لا يقل عن بقية الأمصار الأخرى المعاصرة لها مثل الكوفة والبصرة والفسطاط [٣]. كانت القيروان مقسمة الى حارات وغالباً ما تعرف الحارة باسم عالم جليل أو عائلة كبيرة معروفة كشارع ابن متعب وهو فقيه توفي سنة (٢٧٧هـ).

وكانت هناك الأرباض كربض الردحا ، وربض السدره ، وربض الديدان .

---

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٣٤٨

(٢) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ افريقية .ص ١٤٣ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق .ص ١٢.

ولعل من الجدير ملاحظته أن التخطيط الجيد كان حليف المدن الإسلامية منذ نشأتها رغم بساطتها ، فالاسواق مثلاً كانت تقام في مناطق بعيدة عن سكن الناس ويبدو أن ذلك كان بقصد عدم ازعاج السكان لما يكون في التعامل من الفوضى والصخب ، وكانت الأسواق عبارة عن دكاكين مصفوفة متقابلة مفروشة بالحصر يجلس في الدكان صاحبه وغلام يعينه في عملية العرض والبيع (١).

ثم هناك الدروب مثل درب السكة ، ودرب الهذلي ، ودرب الفرساس ودرب أزهر وغيرها (٢).

أما أزقة القيروان فكانت من السعة اذا ما قورنت بالأمصار الأخرى (٣)غير أنها كانت تحوي في جنباتها الفضلات التي يلقي بها سكان المنازل ، وكانت مجاري المياه تسير في تلك الأزقة ، وان كان بعضها يسير عبر قنوات تحت الأرض إلا أن تلك النوعية على ما يبدو كانت من محدثات الأغالبة ، فالقاضي حماس بن مروان قاضي الأمير زيادة الله الثاني يفتح القناة بنفسه اذا دعت الحاجة لذلك مما يدل على تواضعه (٤).

وأما المنازل بشكل عام فكانت تشبه الى حد ما منازل المسلمين في الفسطاط ، ولا يستبعد أن تكون كذلك ، فمعظم الوافدين من المشرق على القيروان كانوا يمرون بمصر ، ومن غير المستبعد أيضاً أن يكون البناؤون الذين عملوا في بناء الدور من مصر . وقد أنشأ الأغنياء الى جانب الدور مساجد وكتاتيب ، وكانت مجموعة الدور

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص١٦
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ١٥
(٣) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية . ص ٥٨
(٤) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة . ص ٤٢ – محمد الطالبي : دراسات في تاريخ افريقية .ص ١٤٦

تشكل حياً يطلق عليه اسم القبيلة الرئيسية فيه مثل (رحبة الأنصار) و (حارة يحصب) و(رحبة القرشيين) [(١)].

وقد وصفها البكري وصفاً دقيقاً اذ قال فيها (ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديد من الجنوب منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسه والمهدية وفي القبلة بحر اسفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي بينهما وبينه مسيرة يوم وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب ونظيف وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة وأحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الدراره .....وهواء هذا الجانب طيب صحيح)[(٢)] .

أما الأضاءة في الدروب والحارات فكانت معدومة الأمر الذي يضطر الخارج الى ضرورة في الليل أن يحمل معه سراجه ، وهذا ما يفسر انقطاع الحركة نهائياً بعد صلاة العشاء مباشرة بل واغلاق أبواب القيروان . وكان الأغنياء يستضيئون بالشموع في حين كان البسطاء من الناس يستضيئون بنور الكواكب [(٣)].

ويذكر أنه من شدة الوجوم الذي كان يخيم على المدينة بعد صلاة العشاء أن الحرس كانوا يقومون باخذ من يجدونه في دروبها الى السجن إلا أذا ثبت لهم معرفته كما حدث للشيخ أبو خالد عبد الخالق سنة (ت ٢١٠هـ) روى صديق له يدعى حسنون قال (قرع على الباب فقلت : من هذا ؟ فقال لي : أبو خالد فقلت : من أبو خالد ؟ فقال لي عبد الخالق . فخرجت اليه وأنا أقول لبيك ! حتى انتهيت اليه ، فقال لي : اعندك مصباح ؟ فقلت لا . قال: فاطلبه لي ، فذهبت الى طحان عندنا في

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضاره العربية . القسم الأول ص ٢٥

(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٤

(٣) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ افريقية . ص ١٤٧

الجوار فأوقدت من عنده المصباح : فقال لي : اذهب الى المسجد فأنطلقت الى المسجد وأمرني بأن نوقد القنديل . فأوقدته ثم قال لي : اقرأ وهو يتمرغ حتى كان السحر خرجنا من المسجد .... فبينما نحن كذلك اذ أقبل علينا العسس قاصديه . فلما رأونا انصرفوا عنا ، قال عبد الخالق : يا حسنون ما كان أحسن لو أصبحنا في الحبس يعني أنه انما تركهما لأنهما عرفاه)(١)

ثم كانت الرغبة في كسب ثواب الله تعالى دافعاً نحو انشاء المساجد في مختلف مناطق القيروان الأمر الذي أدى الى أتساع القيروان ونماء عمرانها . وكانت تلك المساجد في انشائها بسيطة فلم تحتوي على شيء من الزخرفة لكنها كانت تقوم بدور عظيم في الإشعاع الفكري والثقافي ، حيث كانت الى جانب أنها مكان العبادة مركزا للتحصيل العلمي ومجلس للقضاء .

وكانت دور القيروان ومساجدها تبني بالمدر غالباً وذلك لصعوبة استجلاب الحجارة من المناطق الأخرى كسبيطلة (٢) .

وللقيروان سور عظيم من الطوب سعته عشرة أذرع(٣) ، أنشأه قائد العباسيين محمد بن الأشعث الخزاعي سنة (١٤٥-١٤٦هـ) ، وهذا السور به أربعة عشر باباً ذكرها حسن حسني عبد الوهاب بقوله (وكان السور محيطاً بالمدينة وبه أربعة عشر منفذاً أو بابا وهي : باب ابي الربيع (بين القبله والشرق وفي شرقيه (باب عبد الله) نسبة الى عبد الله بن الزبير بن العوام أحد فاتحي افريقية ،(وباب نافع) وفي جوفيه (باب تونس) وفي غربيه (باب أصرم) و (باب سلم) ثم باب النخيل والباب

---

(١) أبو العرب : طبقات علماء افريقية وتونس ص ٦٤

(٢) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر العصور ازدهار الحضارة العربية .ص ٥٨

(٣) الذراع : وحدة لقياس الأطوال والذراع المصري هو الذراع الشرعي ويساوي بالمتر ٤٦٢ ومن المتر (محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية . ص ٢٨٧)

الحديث ولفصيل السور بابان و(باب الريح) و (باب الطراز وباب القلالين وباب سحنون الفقيه المشهور) [١].

والواقع أن القيروان اتسعت مساحتها باتساع الأعمال فيها ، فبطبيعة الحال يكون في هذه العاصمة دار الأمير والقاضي ومكان الدواوين ومسكن الجند وكانت سياسة المسلمين عند انشاء المدن الأسلامية أن يقوموا بتخطيط المسجد أولاً في وسط المدينة ثم يتركوا حوله فراغ تتفرع منه الطرق واليه تنتهي شوارعها وحاراتها والى جانبه في الضلع الجنوبي تقام دار الأمارة [٢].

وكانت دارالأمارة في القيروان تقع في الجهة القبلية من مسجد عقبة بن نافع تم تأسيسها مع بداية تأسيس المدينة وصارت مقر الحكومة ومسكن الولاة الأمويين والعباسيين الى عهد ابن الأغلب انتقل عنها الأمير ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٥هـ الى مدينة العباسية (القصر القديم) فصارت هذه الدار بعد ذلك خاصة بدواوين الدولة [٣].

وكنتيجة طبيعية لزيادة الثروة في ايدي الناس ظهرت البيوت الفخمة لأصحاب الطبقات الغنية حتى أن ترميم الدار لأحد الشخصيات في نهاية القرن الثالث الهجري بلغ اثنتي عشر مائة دينار وهو مبلغ له قيمته بلا شك في تلك الفترة [٤].

أما منازل العامة فكانت عبارة عن دور سفلي مربع الزوايا والغرف محيطه به . أيضاً من ضمن المنشآت التي كانت في القيروان دار الجذماء وهي دار كانت تعرف باسم (الدمنه) .

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ١٤

(٢) يسري عبد الغني : المدينه العربية الاسلامية .ص ١٦٩

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٢٤

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٢٤

ثم هناك دار ضرب النقود وقد أنشئت قبل عهد الأغالبة ، وقد حرص الأغالبة حرصاً كبيراً على جودة العملة وذلك دليل على رغبة الدولة في المحافظة على وضع اقتصادي جيد يضمن لها سلامة الأستقرارمن جهة وحيوية في النشاط الأقتصادي من جهة أخرى (١).

كماكان هناك المقابر المخصصة لدفن الموتى منها ما أنشىء قبل عصر الأغالبة مثل مقبرة قريش والمقبرة البلدية ، ومنها ما أنشيء زمن الأغالبة مثل (مقبرة سحنون) نسبة الى العالم سحنون بن سعيد (ت سنة ٢٤٠هـ) بالقرب من مقبرة ابن الأغلب (٢).

ويمكن القول أن الاتساع العمراني لمدينة القيروان يعود الى عاملين أساسيين :

العامل الأول : ذكره ابن خلدون في حديثه عن العمران أذ يقول (ومتى عظم الدخل والخروج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر) (٣). والملاحظ أن القيروان نعمت في ظل بني الأغلب بنوع من الإستقرار والأمن كفل لها نماءاً اقتصادياً ولا عجب فقد شهد ابراهيم بن الأغلب منذ بداية ولايته بأن افريقية ستدر من الخير الكثير أن وجدت من العناية والاستقرار ما وجدت ، وعلى هذا الأساس تكفل بدفع اربعين ألف دينار سنوياً لحكومة بغداد فضلاً عن توقف المساعدة التي كانت تقدمها مصر لولاية أفريقية .

أما **العامل الثاني** فهو الزيادة السكانية بسبب كثرة الهجرات ، فقد قُدر للقيروان أن تصبح مركزاً دينياً وثقافياً وعلمياً الأمر الذي أدى الى هجرة التابعين من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقومون بدور التوجيه والتوعية كما هاجر اليها كثير من

---

(١) انظر عن موضوع دار ضرب الاغالبه : الفصل الأخير من البحث ص٣٢٨

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٢٠

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ١٤ [نقلا عن ابن خلدون المقدمه . جـ ٣ . ص ١٠٠٩]

طلبة العلم من أنحاء العالم الأسلامي بالاضافة الى أعداد الجند الذين دخلوا أفريقية منذ عهد الفتح حتى ولاية بني الأغلب . ولاحظ تلك الزيادة السكانية في عملية الحاجة الى توفير المياة ، ولقد اتضحت تلك الحاجة منذ بداية الربع الأول من القرن الثاني الهجري (١).

أيضاً أقبل الناس على السكن في القيروان لما شعروه فيها من الأمن فقد أصبحت بمثابة ملجأ مأمون من ضربات الأعداء .

ولا يمكن أن ننسى ما لأهمية الموقع الجغرافي للقيروان في عملية التعمير السريع الذي شهدته المدينة منذ تأسيسها سنة (٥٠هـ) ، اذ أن موقعها على المسلك الرئيسي بين الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى من جهة والمشرق الأسلامي وموانيء المدن التجارية الواقعة على شواطىء افريقية من جهة ثانية(٢) .

والحقيقة أن تاريخ هذه المدينة في عصر الأغالبة ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مدينتين أنشأهما الأغالبة في فترة حكمهم وهما العباسية ورقادة .

أولاً: العباسية :

عندما يشرع الباحث في دراسة تاريخ العباسية يتبادر الى الذهن سؤال قد يكون تقليدياً وفي الوقت نفسه هوضروري . ما السبب لإنشاء هذه المدينة ؟ وهذا السؤال يحمل طابعاً تعجبياً ذلك أن الدولة الأغلبية ما تزال في ذلك الوقت في طور

---

(١) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ افريقية . ص ١٤٥

(٢) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ٤٨

التأسيس ، وما تزال تخمد أنفاس المناوئين وما تزال ترقب تحركات المجاورين لتقف على معرفة العدو من الصديق ، مع العلم أن القيروان كانت آنذاك محط نظر كل طامع في السلطان لأنها عاصمة البلاد وملتقى الشعوب من مختلف الأصقاع . فدولة هذه أوضاعها وفي تلك البقعة ما الذي يدعوها لإنشاء مدينة في هذا الوقت المبكر ؟ أذ أنه حسب رواية البكري(١) ان ابراهيم بن الأغلب بدأ بإنشائها سنة (١٨٤هـ) أي في نفس السنة التي تولى فيها أمر افريقية ، وحسب رواية ابن عذاري (٢) سنة (١٨٥هـ) أي السنة التي تلت تاريخ تعيينه وعلى أي حال ففي الحالتين نرى تبكيراً في انشائها ، علماً بأن إنشاء المدن لم يكن بالأمر الهين فاختيار المكان وعمل المنشآت واقامة الكيان السياسي والإقتصادي والاجتماعي والحربي وغير ذلك يحتاج الى جهد كبير بشري ومادي ، لاسيما في ظروف كظروف دولة بني الأغلب .

ويرجع السيد عبد العزيز سالم انشاء هذه المدينة الى رغبة الأمير ابراهيم بن الأغلب في التمتع بحياة اللهو والملذات حتى لا يتعرض له فقهاء القيروان باللوم والتقريع . ثم ذكر سببا آخر لإنشائها ألا وهو الرغبة في تقليد خلفاء المشرق باتخاذ القصور خارج العاصمة ، أو حب الأمير في الظهور بمظهر العظمة (٣) .

ولكن يبدو أن هذين الأمرين يجانبهما الصواب لأنه أولاً نجد من يثني على ابراهيم بن الأغلب سيرته ، فهذا ابن الأبار يقول (وكان فقيها عالماً أديباً شاعرا خطيبا ذا رأي وبأس وحزم ومعرفة بالحروب ومكائدها ، جريء الجنان ، طويل اللسان، حسن السيرة ، لم يول في أفريقية أحد قبله من الأمراء أعدل سيرة ولا أحسن

---

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٢٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٩٢

(٣) المغرب الكبير العصر الاسلامي . ص ٤٥٥

سياسة ولا أرفق برعية ولا أضبط لأمره منه)[١] فرجل هذا حاله وهذه سماته وتلك سياسته لا يمكن أن يمارس حياة اللهو مطلقاً ثم يعمد الى انشاء مدينة بكاملها لهذا الغرض . هذا جانب ، والجانب الآخر الذي لا يمكن أن يغفله رجل حصيف مثل ابراهيم أنه لا يخفى عليه أن لا يعلم الفقهاء حاله وهو في مدينته الجديدة ، فالعامة من الناس تحرص دائماً على معرفة سلوكيات حكامها وقادتها فمن باب أولى رجال الدين سواء كان الحاكم في نفس مدينتهم أو خارجها ثم أن رجلاً واجه منذ توليه الأمارة من الثورات ما واجه يستحيل عليه أن يكون مدينة للفخر والجاه ، وقد أنفق من خزانة دولته ما أنفق في سبيل تحقيق الأمن والإستقرار .

على أنه يمكن تعليل انشاء هذه المدينة لظروف سياسية فرضت عليه ، تلك هي الثورات المتتالية التي واجهته في القيروان والأضطرابات التي من شأنها أن تؤدي الى زعزعة الأستقرار في الدولة [٢] فعمد الى تأسيس قاعدة عسكرية بعيدة عن العاصمة العلمية والثقافية والسياسية والإقتصادية (القيروان) ليتسنى له مواجهة كافة الخارجين والمناوئين دون أن يؤدي ذلك الى عملية أرباك في المدينة الأم لاسيما اذا كانت تلك الثورات قد قام بها كبار الجند ، أضف الى ذلك محاولة الانتقال عن البيئة الاجتماعية والعسكرية في العاصمة القديمة وانشاء بيئة أخرى يكفيها ويوسعها كيفما يشاء حتى يتمكن من ضبط أمور بلاده الأمر الذي حدى به لشراء العبيد حتى بلغ عددهم ٥٠٠٠ رجل [٣] يستعملهم حرساً وجنداً صامتاً كما يصفهم الطالبي [٤] ولهذا نراه يجتهد في مداراة الجند القدامى ثم يسلخ عنهم مهامهم تدريجياً ويتقوى

---

(١) الحله السيراء . جـ ١ . ص ٩٣

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ٢ . ص ٣٢

(٣) البلاذري : فتوح البلدان . ص ٢٣٥

(٤) تاريخ الدولة الأغلبية .ص ١٥٤

بالعبيد من السودان ، فقد اشترى العبيد أولاً بحجة استخدامهم في الصناعة للتخفيف على الناس من صعوباتها ثم أستزاد منهم وحملهم السلاح بدلاً أن يحملها جنده الأول محاولة لتجريدهم من قوتهم ثم أخذ بعد ذلك يجهز المدينة بالسلاح والعدد[١] وفي هذا الصدد يذكر حسن حسني عبد الوهاب كيف أصبحت العباسية حصناً منيعاً لكل مناوىء للدولة الجديدة [٢] .

على أي كان تأسيس المدينة أمراً جدياً وخطوة فعالة في محاولة القضاء على حركة الجند المتمرد بالدرجة الأولى ، وضرورياً لاستقرار أمن الدولة الأغلبية بالدرجة الثانية .

أما اطلاق اسم العباسية عليها فهو أعلان صريح بالولاء للخلافة العباسية واعلاناً للجميع بأن الدولة الأغلبية في المغرب هي الممثل للدولة العباسية في المشرق. أما موقعها فهي تقع جنوب القيروان على بعد ثلاثة أميال منها ، وكانت هذه البقعة ملكاً لقوم يعرفون ببني طالوت [٣].وقد أمدنا البكري بمعلومات طيبة عن هذه المدينة حيث ذكر أنها عمرت وكثرة فيها الحمامات والفنادق والأسواق ومواجل الماء التي كانت تستخدمها القيروان نفسها عند نفاذ الماء منها ، كما بنى فيها مسجد وصفه البكري بأنه (وله صومعة[٤] مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم يبدو أحكم منها ولا أحسن منظرا)[٥].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ . ص ٣٤

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول . ص ٣٥٦

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١٦٢

(٤) الصومعة : هي المئذنة كما يطلق عليها المناره (زكي محمد حسن : فنون الاسلام – ص ١٤٤) .

(٥) البكري : نفس المصدر . ص ٢٨

وكان في داخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان ، وأحيطت المدينة بسور له خمسة أبواب هي (باب الرحمة قبلي ، وباب الحديد قبلي ، وباب غلبون شرقي ، وباب الريح شرقي ، وباب السعادة غربي ، يقابل المقبرة الكبيرة)(١) أما عن التطور العمراني للمدينة فقد تم سريعاً في العباسية وزاد من ذلك أن نقل ابراهيم بن الأغلب دواوين الدولة من دار الأمارة في القيروان اليها مما أدى الى انتقال كبار رجال الدولة من القيروان الى العباسية (٢).

وكان أول ما بدىء ببنائه في تلك المدينة القصر الذي عرف بالرصافة أنشأه على ربوة عالية وجعله لسكناه وسكنى حاشيته ، كما أنشأ قصراً آخر أطلق عليه أسم القصر الأبيض ، نزل فيه ولداه عبد الله وزيادة الله الاول أثناء أمارتهما(٣).

ولتحقيق الأمن والإستقرار للعاصمة العباسية أسس ابراهيم بن الأغلب على أطراف المدينة الجديدة (العباسية) أبنية بسيطة التصميم - اذ كان الهدف من انشائها تحقيق غاية الأمن فقط - تحوي تلك الأبنية على عدد من الغرف الصغيرة جعلها مسكناً لحرسه الخاص الذي كانوا من السودان استعداداً لمواجهة أي حركة تزعزع أمن الدولة (٤).

أما مواد البناء التي استخدمت في بناء المدينة الحديثة فهي الآجر ويتميز الآجر الذي استخدم في عهد الأغالبة بصلابته وكبر حجمه ، حيث يبلغ طول الواحدة منه ٤٣سم في حين يبلغ العرض نيفا وثلاثين سم (٥). وقد أدى استخدام الآجر في البناء

---

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٢٨

(٢) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية . ص ٦٠

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . جـ١ . ص ٣٥٤

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . جـ ١ . ص ٣٥٦

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . جـ١ . ص ٣٥٥

الى أن تكون العباسية أكثر تمدناً وحضاره من المدن التي بنيت بالمدر كالقيروان مثلاً[١].

واتسعت المدينة شيئاً فشيئاً بإقبال الناس على السكن فيها اما رغبة بالتنعم بالأمن والأستقرار أو حباً في التعمير والتطور ، فزاد بذلك عدد الأبنية تبعاً للزيادة السكانية ، بالاضافة الى منشآت الأمراء أنفسهم . فهذا الأمير زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠هـ) ينشيء فيها العديد من القصور ثم أنشأ الأمير محمد بن أحمد المعروف بأبي الغرانيق سنة (٢٥٠-٢٦١هـ) برجا في منطقة الساحل كان يمارس فيه هواية الصيد [٢].

ولعل كثرة المنشآت فيها أدى الى أن تسمى أثارها (بقصور الأغالبة)[٣].

ولقد كان للعلاقات الدبلوماسية التي أنشأها أمراء الاغالبة مع دول أوربا أثر في ذيوع صيت تلك المدينة ، فبادىء ذي بدء استقبل الأمير ابرهيم بن الأغلب رسل الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان ملك الفرنجة كما حضر في ذات الوقت سفراء شارلمان الى العباسية ونزلوا جميعهم في دار الضيافة في العباسية ، وقد استمرت تلك العلاقات الدبلوماسية مع دول أوربا بعد وفاة ابراهيم الأكبر أي مع خلفائه من بعده[٤].

ظلت هذه المدينة آهلة عامرة تنعم بألوان التقدم وأثرت في ظل امارة بني الأغلب حتى سنة (٢٦٣هـ) حينما أنشأ الأمير ابراهيم بن أحمد مدينة أخرى هي رقادة فكان

---

(١) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية . ص ٦٠

(٢) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع .ص ٤٤٥

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٢٦

(٤) حول العلاقة بين الشرق الاسلامي والغرب المستمر أنظر كتاب عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوروبا . ص ١٥٣ وما بعدها

ذلك نهاية العباسية التي أصابها الهدم والتخريب وأطلق عليها فيما بعد (القصر القديم) ويذكر السيد عبد العزيز سالم أن هناك حفريات أجريت سنة (١٩٢٣م) كشفت النقاب عن وجود بعض أثار لغرف صغيرة لتلك المدينة ، ولعل هذا مما أدى الى أن يبقى موقعها محدداً تماماً [(١)].

ثانياً : رقاده :

هذه هي ثاني المدن التي أنشأها الأغالبة حول القيروان ولا تبعد عنها كثير اذ تقدر المسافة بينهما بحوالي أربعة أميال كما أن مساحتها حوالي أربعة وعشرون الف ذراع وأربعون ذراعا [(٢)].

أسسها الأمير الأغلبي ابراهيم ابن أحمد وقد بدأ تأسيسها سنة(٢٦٣هـ) واستكمل البناء فيها سنة (٢٦٤هـ) ، وأحاطها بسور عظيم جعل فيه سبعة أبواب عليها صفائح من حديد وكان باب القيروان أعظم أبوابها ومنه يخرج الأمير الى القيروان [(٣)].

وذكر سعد زغلول عبد الحميد وحسن حسني عبد الوهاب [(٤)] أن الدافع الذي أدى بالأمير ابراهيم بن أحمد الى انشاء هذه المدينة هو الرغبة في السير على نهج كبار الحكام ، أما الحميري فيذكر أن الأمير ابراهيم بن احمد أصيب بداء الأرق فلما

---

(١) المغرب الكبير في العصر الاسلامي .ص ٤٥٦

(٢) البكري : المغرب في ذكر افريقية والمغرب . ص ٢٧

(٣) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية وتونس .ص ٥٢ – حسن حسني عبد الوهاب : الورقات من القسم الاول . ص ٣٦٣

(٤) تاريخ المغرب العربي . جـ ٢ ص ١١٦ ، الورقات القسم الأول . ص ٣٦١

فشل الطبيب اسحاق في علاجه بالأدوية والعقاقير أمره برياضة السير حتى اذا وصل الى المنطقة التي انشئت عليها تلك المدينة نام فسميت برقاده [(١)]. ولعل كلا الإقتراحين مقبول إلا أن هناك سبباً آخر يمكن أيضاً أن يضاف لهذين السببين الأولين.

فكما هو معلوم أن تولية الأمير ابراهيم بن أحمد كانت بعيدة عن موافقة أهل القصر اذ كان أخوه الأمير أبو الغرانيق محمد قد عهد لابنه الطفل أبي عقال بالولاية من بعده وأن يكون أخوه ابراهيم بن أحمد واليه على القيروان وصيا عليه حتى يبلغ سن الرشد واستحلف أخاه ابراهيم بن أحمد خمسين يميناً بألا ينازع ابنه على السلطان وأشهد على ذلك جماعة من أهل الحل والعقد .ولكن بمجرد وفاة أبي الغرانيق طلب أهل القيروان من الأمير ابراهيم بن أحمد أن يتولى عليهم في القيروان . وأوجدوا له مخرجاً من أيمانه التي عقدها لأخيه بكراهيتهم لأمارة الطفل الصغير ، هذا أولاً ، أما ثانياً فلا ينزل في قصر الأمارة بل ينزل في قصره فلا يكون بذلك منازعاً للطفل ولي العهد [(٢)]. فأمام هذه الظروف لا يستبعد أن يفكر الأمير ابراهيم بن أحمد في انشاء مدينة جديدة تكون بعيدة عن العناصر الموالية للطفل ولي العهد فيؤدي بذلك مهام الحكم دون مشاكل أو متاعب من أي نوع كانت ، حرصاً على سلامة كيان الدولة .ولكن هل يمر هذا الحدث (بناء المدينة) دون ضجة وردود فعل ؟ لا فان الحرس الصقلي الذي قامت على أكتافة العاصمة القديمة (العباسية) كان له سطوته ومكانته فأعلن العصيان والثورة احتجاجاً على انتقال مركز الحكم من العباسية الى رقادة[(٣)].

---

(١) الروض المعطار . ص ٢٧١

(٢) ابن عذاري : نفس المرجع . جـ ١ ص ١١٦

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . ص ١١٩

وما كان من الأمير ابراهيم بن أحمد إلا أن أمر بقتل زعيم هذا التمرد من الموالي الصقالبه ويدعى (مطروح بن أم بادر) [١]، فرد الموالي الصقالبة على مقتل زعيمهم بالخروج وقطع الطريق بين رقادة والقيروان ، واذا كان الأمير ابرهيم بن أحمد لم يخرج للقضاء على التمرد فإن أهالي القيروان الموالين للأمير ابراهيم ، قد أوقفوا الثوار وأجبروهم على طلب الأمان . هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد انتهز الأمير مناسبة توزيع أرزاق الجند وجرد الجميع من السلاح ، ولم يكتف بذلك بل سجن بعضهم وفر البعض الأخر الى صقلية كما أمر بقتل عدد منهم[٢]. رغبة منه في الأخذ بالقوة على العناصر الثائرة حتى يتمكن من تحقيق الأمن في بلاده.

ويصف المؤرخون هذه المدينة بأنها من أجمل بقاع الأرض منظراً وأطيبها هواءا وأكثرها انشراحاً وأن الإنسان يسر فيها من غير سبب [٣].

وقد أخذت هذه المدينة في مدارج الرقي والحضارة منذ انشائها اذ لم يبخل عليها الأمير ابراهيم بن احمد في عمليات التعمير من اجراء المياه وبناء القصور وزراعة الأرض بغرس أصناف من الثمار والأزهار .

وكثرت فيها المباني حتى اشتهرت بأبنيتها فالأصطخري يذكر (وخارج القيروان أبنية كانت معسكرا آل الأغلب ومقامهم بها كانت تسمى رقاده)،[٤].ولعل كثرة القصور التي أنشأها الأغالبة زاد في اعطاء المدينة الصبغة المعمارية ، وأول تلك

---

(١) يذكر الطالبي أثناء حديثه عن هذه الثورة أن السبب في مقتل مطروح ابن أم بادر مجهول ، وأن ثورة الصقالبة رده فعل لمقتل هذا الرجل ولا ينوه اطلاقاً على أنها ردة فعل لانتقال مركز الحكم من العباسيه الى رقادة أنظر الدولة الأغلبية . ص ٣٠٧

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع .جـ٢ . ص ١١٩

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٢ ص ٧٩٧ – الحميري : الروض المعطار ص ١١٩

(٤) المسالك والممالك .ص ٣٤

القصور كان قصر الفتح الذي أنشأه الأمير ابراهيم بن أحمد على درجة عالية من الفخامة اذ يحوي على كثير من الحجرات ورحبة واسعة خصصت للإستقبال ، ولم يكتف بهذا القدر بل أنشأ الى جواره قصورا أخرى أقل شأناً منه مثل (قصر الصحن) الذي أنشىء به جناح خاص للمكتبة التي أطلق عليها (بيت الحكمة) وأنشأ قصرين آخرين أحداهما يسمى (قصر بغداد) وواضح من أن التسمية تدل على مدى رغبة الأغلبة في زيادة الثقة بينهم وبين العباسيين .والآخر يسمى (قصر المختار)[١].

أما المسجد وهو دعامة المدينة الأسلامية منذ فجر التاريخ ، فقد كان في وسط المدينة تماماً كما هي عادة القادة والأمراء من المسلمين أثناء اتخاذ القاعدة أو العاصمة أو بناء مدينة جديدة وقد عين له الأمير ابراهيم بن أحمد اماماً لأداء الصلوات الخمس وأجرى عليه راتباً كبيراً قدر بعشرة دنانير ذهبية شهرياً ، وبجوار محراب المسجد مقصورة ، كان الأمير يؤدي فيها صلاة الجمعة ويجتمع فيها بكبار رجال دولته للتشاور في أمور الدولة [٢].

وتحقيقاً للأمن سار ابراهيم بن أحمد في انشاء الثكنات العسكرية التي أسكنها العبيد من السودان الذين بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف جندي [٣].

وما زال الأمراء من بعده يعطون الناحية العمرانية بالمدينة عناية كبرى ، فالأمير زياد الله الثالث سنة(٢٩٠-٢٩٦هـ) ينشيء قصراً جديداً هو غاية في الفخامة والأبهة وقد أنشأه أمام الصهريج الذي بلغ طوله خمسمائه ذراع وعرضه أربعمائة ذراع ، استخدمت فيه ساقية تعمل على جعل الماء منهمراً مما أعطى القصر اسم

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٣٦٤

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٣٦٧

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٣٧١ .

(قصر البحر) وحوالي القصر بستان كبير للغاية ثم أنشأ قصراً آخر يفوق الأول جمالا يتكون من طبقات أربع بلغت تكلفة أنشائه ٢٣٢ألف دينار أسماه (العروس)(١) .

ومن بديع تنظيمات الأغالبة الطرق الفسيحة التي تسير فيها العربات التي استخدمت كوسيلة للنقل بكثرة في العصر الأغلبي ، وكانت تحمل مواد البناء واحتياجات الجند وغيرها في حين لا نجد لها أثرا فيما بعد عصر الأغالبة (٢) .

أما عن طرق المواصلات بين رقاده العاصمة الجديدة والقيروان فهي طريق سابلة لا تنقطع عنه الحركة ليلاً ونهارا ، في حين كان الاتصال بين العاصمة رقاده والولايات البعيدة التابعة لها كصقلية وطرابلس يعتمد على الحمام الرسائلي (الحمام الزاجل) الذي عني الأغالبة به فقد بنى له الأمير ابراهيم بن أحمد برجاً خاصاً في رقاده ، وكانت الرسالة بين رقاده وصقلية تصل في يوم ارسالها (٣) .

وما زالت تزداد الحركة العمرانية اتساعاً في رقاده حتى أصبحت في نهاية عصر ابراهيم بن أحمد من حيث المساحة أكبر من مساحة القيروان كما ذكر ذلك ابن الأبار(٤) .

ولم يغفل الأغالبة المنشآت الأخرى التي تعتبر من ركائز المدينة المتحضرة بل حرصوا على ذلك منذ تأسيس العاصمة رقادة . فمن الناحية العلمية أنشأ الأغالبة داراً للكتب أطلقوا عليها بيت الحكمة كما أنشأوا دارا للطراز تنسج فيها الألبسة الحريرية والقطنية ، ومسشفى عرف باسم الدمنه كما أنشىء مصلى للعيدين قريب من

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ .ص ١١٧ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٣٧٢.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٣٧١ .

(٤) الحله السيراء . جـ .ص ١٧٦

الميدان الفسيح الذي كان يستخدم لعرض الجند وسباق الخيل [١].

وعلى كل فقد أصبحت رقاده عاصمة الأغالبة منذ سنة ٢٦٤هـ وغلب على أهلها طابع البذخ وزاد على ذلك عملية اباحة شرب النبيذ فيها في حين حرمه ابراهبم بن أحمد في القيروان ،

والحكم الشرعي في تناول النبيذ مباح بشرطين : الأول ألا يمكث في الماء مدة طويلة فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينقع له الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد الى مساء الليلة الثالثة ثم يأمر به فيراق [٢] والثاني ألا يخلط بين النوعين للنبيذ كأن يضع التمر مع الزبيب والعله في ذلك أن الخلط يعجل في عملية التخمير فيصبح المنقوع مسكراً ويظنه الشارب أنه غير مسكر ويكون مسكراً [٣].

لقوله صلى الله عليه وسلم عن جابر ابن عبد الله « لاتجمعوا بين الرطب والبر وبين التمر والزبيب نبيذا » رواه مسلم [٤].

ولا نعرف أي نوع كان نبيذ أهل افريقية ابان عهد الأمير ابراهيم بن أحمد وأن كان نميل الى أنه من النبيذ المحرم الذي افتقر أحد شرطي النبيذ المباح أو الى كليهما حتى حرمه الأمير ابراهيم في عاصمة الأسلام الأولى هناك بدليل شعور الامير بحرمته مما أدى الى تحريمه في عاصمة الدين والعلم ونسى عفا الله عنه أن التحريم لابد أن يسري على جميع المسلمين سواءً كانوا في الشرق أم الغرب لحرمته بنص الكتاب :

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات القسم الاول . ص ٣٦٨ - ٣٧٢

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتبذ له أول الليل فيشربه يومه ذلك والليلة التي تجيء والغد والليلة الأخرى والغد الى العصر فان بقى شيء سقاه الخادم أو أمر به فصب] النووي : صحيح مسلم . جـ١٣ . ص ١٧٣

(٣) وهبه الزحيلي : الفقه الاسلامي وأدلته . جـ٣ .ص ٥٣٩

(٤) النووي : صحيح مسلم . جـ ٣ .ص ١٥٥

﴿يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [١]. لكن يبدو أنه كانت للقيروان رهبة بسبب وجود طائفة الفقهاء الى جانب طلبة العلم فاكتسبت القيروان مكانة دينية لم تكتسبها أي مدينة أخرى .

وقد اندثرت مدينة رقاده مع دخول أبي عبد الله الشيعي سنة(٢٩٦هـ) اليها وأزال ملك بني الأغلب عنها على عهد الأمير زيادة الله الثالث واحتلها وأقام فيها حتى سنة(٣٠٨هـ)[٢] .

ولرقاده حالياً بقايا على بعد ٩كم جنوب القيروان متمثلة في حوض عظيم مربع الشكل له جدران ضخمة ودعامات قوية يذكر سعد زغلول عبد الحميد أنها شبيهة بدعامات مواجل القيروان وأنه في الغالب الأعم هو الماجل الكبير الذي كان يعرف بالبحر[٣] ، كما يوجد للقصر المعروف باسم (قصر البحر) آثار جدران وأرضية مكسوة بالفسيفساء زخرفتها في شكل ضفائر حلزونية وقد أورد زيتون في ثنايا كتابه وأثناء حديثه عن رقاده صورا للآثار الباقية من قصر الصحن وفسيفساء من قصر البحر[٤] .

والحقيقة كان انشاء العباسية ورقاده من عظيم أعمال الأغالبة العمرانية اذ أدى ذلك الى عملية توسيع رقعة المنطقة السكنية في افريقية كما أدى الى ظهور دولة الأغالبة بمظهر القوة أمام الدول المجاورة العدوه منها والصديقة .

---

(١) سورة المائدة آيه ٩٠

(٢) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ص ٤٥٧

(٣) تاريخ المغرب العربي . جـ ٣ .ص ١١٨

(٤) القيروان ودورها في الحضارة الاسلاميه .ص٩٩

ولكن لابد من القول أن انشاء تلك المدينتين (العباسية - رقاده) وبالتالي تحويل مركز الدولة على التوالي من العباسية الى رقاده لم يقلل اطلاقا من شأن القيروان كمركز اشعاع ثقافي وديني وعلمي وذلك راجع الى وجود طائفة من أهل الدين والفقة والصلاح يقومونم بواجبهم على أكمل وجه مع ما حظوا به من ثقة الأمراء الأغالبة كأسد ابن الفرات وسحنون بن سعيد وعبد الله بن غانم وأبو محرز [(١)]. كما أدى قدوم طلبة العلم من المغرب والأندلس الى القيروان الى نشاط الحركة العلمية بها بشكل كبير فساعد ذلك على أن تظل القيروان لا سواها مركز الثقل في هذا المجال أضافة الى ذلك ظلت القيروان ايضاًمركزاً تجارياً هاماً في افريقية ، كما كانت من قبل حيث ساهم الأغالبة في أعمال كثيرة ، ضمنت للقيروان استمراريتها كمركز تجاري كبير . وقبل هذا وذاك حرص الأغالبة على زيارة القيروان مرتين في الأسبوع خلال يومي الاثنين والخميس وأداء الجمعة فيها أحياناً هذا عدا المناسبات الأخرى في ليالي شعبان ورمضان اذ اتخذوا عادة ، أن يسيروا في موكب يتكون من خاصتهم وحاشيتهم يخرجون من العباسية أو رقاده الى القيروان ويدخلونها من باب أبي الربيع ويقومون بتوزيع الأموال على الضعفاء والمساكين والمرضى في الدمنة (المستشفى)ثم يدخلون بعد ذلك الى المسجد الجامع بالقيروان حيث يستقبلهم الناس بالحفاوة والتكريم ويدعون لهم [(٢)].

واذا كان هذا الأهتمام الذي أولاه أمراء الأغالبة للقيروان قد أدى الى استمراريتها في النشاط الثقافي والعلمي فهو أيضاً قد أدى الى أن تظل القيروان وفيه لأسيادها في العباسية ورقاده .

---

(١) انظر حول الموضوع الفصل الثالث من البحث ص ١٦١.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٧٢

توسعة مسجد عقبة بن نافع في عهد الأغالبة :

أ - التوسعة الأولى سنة٢٢١هـ

ب- التوسعة الثانية سنة ٢٦١هـ

منذ أن أنشأ عقبة بن نافع المسجد الجامع بالقيروان ، وكل عصر من العصور السياسية التي تمر بها القيروان تترك بصماتها في هذا المسجد بعمل بعض الزيادات وادخال بعض التحسينات ،ولاننسى أن بنيان المسجد زمن عقبة بن نافع لم يكن يحمل عناصر القوة المعمارية التي تسمح باستمرارية ذلك الصرح مدة طويلة [١]. ولا عجب في ذلك فان الزمن الذي أنشأ فيه عقبة المسجد الجامع كان زمناً صعباً يحتاج الى تكثيف الجهود لبناء الدولة الأسلامية في تلك المنطقة في جميع جوانبها ، فكانت الحاجة ماسة الى انشاء الركيزة الأولى في كيان الدولة الاسلامية وهي المسجد بأي صفة وبأي شكل لذا كان المسجد في بداية انشائية بسيطا اذ كان عبارة عن تخطيط دون بناء ، ثم ركز عقبة بن نافع فيه لواءه . وكان يتكون من بيت الصلاة قائم على جذوع النخل مسقف بالعريش وصحن مكشوف له نفس مساحة بيت الصلاة[٢].

أما حجم المسجد في بداية انشائه فغير معلوم [٣] غيرأن أحمد فكري يذكر أن طوله كان زمن ولاية يزيد بن حاتم وحكم زيادة الله الأغلبي ١٢٧م و٧٧سم ، كما هو طوله اليوم [٤]. أما شكل المسجد فهو عبارة عن مستطيل غير متساوي الأضلاع عرضه سبعة وسبعون مترا وطوله سبعة وعشرون ومائة . أما البهو فهو فسيح طوله حوالي سبعة وستين مترا وعرضه ستة أمتار وربع وتنقسم الواحدة منها الى رواقين .

---

(١) أحمد فكري : مسجد القيروان . ص ١٢

(٢) حسين مؤنس : المساجد . ص ١٨٠

(٣) حسين مؤنس : نفس المرجع . ص ١٨٠

(٤) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٢٤

وبيت الصلاة في مسجد عقبة بن نافع طوله سبعون مترا وعرضه سبع وثلاثين مترا وسبعون سنتمترا . وبه سبعة عشرة رواقا (١).

ولبيت الصلاة بابان متقابلان احداهما في حائط الجهة الشرقية والآخر في حائط الجهة الغربية وهما عند نهاية الأسكوب الخامس . كما أن للمسجد خمسة أبواب ، ثلاثة في المجنبة الغربية واثنين في المجنبة الشرقية (٢).

والقبلة في المسجد الجامع منحرفة عن شطر المسجد الحرام اذ لم يحدث تغيير في قبلة المسجد منذ أن ركز عقبة لواءه (٣).

وفي ولاية حسان بن النعمان (سنة٧٢ - ٨٤هـ) حظيت القيروان بفضل جهوده الإدارية المختلفة بمكانة حضارية مرموقة حيث دون الداووين ، ونظم الأراضي ، وعين الموظفين (٤). وأولى مسجد عقبة عناية كبيرة حيث جدده جميعاً عدا المحراب . ونقل اليه ساريتين (عامودين) من كنيسة قديمة (ويذكر كل من رآهما أنه لم يرفي البلاد ما يقترن بهما) (٥).

ويقيم أحمد فكري دراسته للتوسعة في عهد حسان ابن النعمان على فرضيات مرئية اذ يقول (واذاكان القوم قد تحاشوا تبديل حائط المحراب ، فقد كان من الجائز لهم أن يزيدوا في طوله ، وهذا ما فعلوه، وظننا أن أطرافه قد امتدت في عهد حسان ابن النعمان أيام اصلاحه للمسجد، وأن حساناً زاد في عدد أروقته وظننا أيضاً أنه لم يكن لبيت الصلاة حينئذ إلا أربعة أساكيب وأنه لم يكن لبهو المسجد مجنبات)(٦).

---

(١) الرواق : الممر المتجه الى حائط المحراب الاعمده من اليمين الى اليسار (أحمد فكري .نفس المرجع . ص ١٩)

(٢) أحمد فكري : نفس المرجع .ص ١٩

(٣) انظر حول موضوع قبلة المسجد الجامع وانحرافها : أحمد فكري : مسجد القيروان .ص٢٢٠

(٤) فرج الهوني : النظم الادارية والمالية . ص ٢١٠

(٥) البكري : المغرب في ذكر افريقية والمغرب . ص ٢٣

(٦) أحمد فكري : نفس المرجع .ص ٢٣

وقد أعطى أحمد فكري بهذا الشكل صورة واضحة لما كان عليه المسجد زمن عقبة بن نافع ، ثم ما أحدثه فيه حسان بن النعمان ، وبالتالي ستبرز تحسينات وزيادات التاليين.

في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) كان واليه على افريقية بشر بن صفوان (١٠٣-١٠٩هـ) الذي أرسل اليه يخبره بضيق المسجد الجامع بالناس وأنه يرى ضرورة توسعته وأشار عليه بأرض كانت مجاورة للمسجد ملك لبني فهر . فأرسل الخليفة هشام يأمره بشراء الأرض وتوسعة المسجد ، فأصبح المسجد سنة(١٠٥هـ) يمتد من قبلة عقبة الى المئذنة التي أنشأها الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد ظلت الآصلاحات التي تمت في عهد الخليفة هشام المتمثلة في المئذنة ودعامتي جدار القبلة والتوسعة بأرض بني فهر لم يدخل عليها تغيير (١). وقد أدت تلك الزيادة الى اتساع مساحة المسجد حيث زاد ثلاثة أساكيب لبيت الصلاة وبني المئذنة التي كانت على شكل برج فوق بئر الجنان في منتصف الجدار الشمالي داخل الصحن، وكانت عبارة عن طابقين فقط أما الطابق الثالث فتذكر سعاد ماهر أنها من الأضافات التي تمت في القرن الخامس الهجري (٢).وجدير بالذكر أن شكل مئذنة القيروان أصله شامي ، وقد أضحت بفخامها وتناسق بنيانها أنموذجاً لمساجد المغرب والأندلس قاطبة(٣).

في عهد الوالي يزيد بن أبي حاتم [١٥٥ - ١٧٠هـ] في خلافة أبي جعفر المنصور هدم هذا الوالي سقف المسجد وأعاد بناءها من جديد واشترى العمود الأخضر

---

(١) البكري : نفس المصدر والمغرب . ص ٢٣ - أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٦٧

(٢) سعاد ماهر : العماره الاسلاميه جـ ١ .ص ٢١٩

(٣) أحمد فكري : نفس المرجع .ص ١١٢

بمال كثير ووضعه فيه[١]. ولعل تغييرا واضحاً بدأ على هيئة المسجد حمل المؤرخين على القول بأن يزيد بن أبى حاتم هدم المسجد الجامع كله عدا المحراب [٢].

أمّا التوسعة التي تمت في عهد الدولة الأغلبية فقد كانت على مرحلتين:

أ-المرحلة الأولى في عهد زيادة الله الأول سنة (٢٢١هـ) . وما حدث من توسعة في المرحلة الأولى على يد الأمير زيادة الله الأول شملت هدم سقف الجامع وأعاد نباءه من جديد وزاد في ارتفاعه [٣].

وكان بيت الصلاة يتألف من ثمانية عشر رواقا، قام زيادة الله بهدم الرواقين التاسع والعاشر وجعلهما رواقاً واحدا يتوسط الجميع ويتميز عن بقية الأروقه بارتفاعه واتساعه وتحمل عقود الأروقه السبعة عشر ، أربعة عشر عموداً من الرخام [٤].

أما المحراب فانه أراد أن يهدمه وقد كان هذا المحراب هو الأثر الباقي من أيام عقبة بن نافع ، وكل من عمل في زيادة الجامع أو أدخل تحسيناً عليه لم يتعرض لهذا المحراب إما رغبة في الحفاظ على بعض آثار عقبة صاحب الفضل الأول في انشاء هذا الجامع أو تجنباً للدخول في متاهات تحويل القبلة وكان اصرار الأمير زيادة الله على هدمه كبير ، وسبب ذلك اما أن المحراب أصبح قديماً لا يوجد بينه وبين التوسعات التي طرأت في العصور التالية تناسق أو أنه ليس من الفخامة بحيث

---

(١) البكري : نفس المصدر . ص ٢٣

(٢) البكري : نفس المصدر . ص ٢٣

(٣) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٢٥

(٤) حسين مؤنس : نفس المرجع .ص ١٨١

يناسب المستوى العام الذي أصبحت عليه القيروان [١]. وأمام إلحاح الأمير زياد الله في هدم المحراب أشار عليه أحد البنائين باقامة حائطين يحجبان المحراب عن الرؤية ، فوافق على ذلك [٢]. وبنى محراباً وجدارقبلة كساهما بالرخام الأبيض المغطى بالزخارف والكتابات ووضع الساريتين الحمراويتين أمام المحراب ، وما تزالان باقية الى اليوم [٣] وقد استخدم زيادة الله في عملية البناء الصخر والآجر كما استخدم الرخام لاسيما في الحائطين اللذين يحجبان المحراب القديم حيث غطاهما به من أسفلهما الى أعلاها لكن ذلك لا يمنع من رؤية محراب عقبة اذأمكن ذلك عن طريق النقوش البديعة ذات الشقوق الموجودة في الرخام .

وقد أحدث زيادة الله في هذا التجديد القبة المعروفة بقبة المحراب واقيمت عند تقاطع البلاط الأوسط مع أسكوب المحراب المحاذي لجدار القبلة .

ويذكر السيد عبد العزيز سالم أن تلك القبة تعتبر من روائع الفن المغربي لما تحويه من زخارف ونقوش بديعة وقد انتهج مهندسو بلاد المغرب في تصميم القبب نهج هذا القبة في المساجد الأخرى [٤].

أما القبة من الناحية الفنية الزخرفية فقد أورد أحمد فكري لها وصفاً دقيقاً من كتاب [جورج مارسيه] [٥] الذي شاهد وعاين تلك القبة حين زارها وصعد قمتها

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ .ص ٧٣

(٢) البكري : نفس المصدر . ص ٢٣

(٣) ابن الأبار : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٦٣ (لقد سنحت لي الفرصة وزرت المسجد الجامع وشاهدت محراب عقبه بن نافع من خلال الجدار الرخامي عن طريق الشقوق الموجوده في الرخام)

(٤) المغرب الكبير - العصر الاسلامي . ص ٤٣٠

(٥) قباب وسقوف في القيروان . ص ٩ وما يليها

وطاف بها .تتكون القبة التي أنشأها زيادة الله من ثلاثة أجزاء - القاعدةالمربعة أسفلها قائمة على أربعة عقود ، والغطاء الكروي أعلاها ، والقبةنفسها مقسمة الى أربعة وعشرين ضلعاً رأسياً يتفرع من القمة ،ويصل القسم الثالث بين هاتين الطبقتين وهو على شكل مثمن يتكون من ثمانية عقود مستديرة وقائمة على ثمانية أعمدة صغيرة . ملتصقة بالحائط [(١)]. ويتضح من هذا الوصف أن العناصر الزخرفية لقبة المحراب عبارة عن أقواس وضلوع وأعمدة وعقود تشكل عن طريق اتصالها ببعض قواقع ومقرنصات[(٢)] وعيون ودوائر ومنحوتات وشبابيك وقنوات وطاقات [(٣)].وتضم هذه القبة تيجان صغيرة رائعة جداً وتعتبر هذه الصبغة الجديدة في التيجان المرحلة الأولى لنشأت التاج الأسلامي [(٤)].

ويذكر أحمد فكري في شأن التوسعة التي أحدثها الأمير زيادة الله الأول قوله(وقد كان من المتفق عليه أن قبة زيادة الله هذه هي أقدم قباب المسجد وأن زيادة الله خصها كما خص محرابه بكل عناية فأبدع صنعها وأتقن نقوشها وزخرفها ووسع من أجلها رواق المحراب قدر سعة أسكوبه ، حتى تكون قاعدتها مربعة ، وزاد في علوه حتى تتناسق نسبتا ارتفاع القبة والأعمدة التي ترفعها . ولهذا فلم يكن في ادخال هذه القبة على البناء القديم اساءة الى وحدة نظامه ، بل انها أضافت جمالاً الى مظهره ورفعت من علو قيمته[(٥)].

وهناك نقطة جديرة بالمناقشة تلك هي ما أورده البكري حول التغيير الذي أحدثه

---

(١) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٩٠

(٢) المقرنصات : حلبات معمارية تشبه خلايا النحل ترى في العمائر مدلاة في طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض (زكي محمد حسن : فنون الاسلام . ص ١٥٢ .

(٣) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٩٣

(٤) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ١٤٠

(٥) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٨٨

زيادة الله في المسجد الجامع اذ قال (فلما ولى زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب هدم الجامع كله وأراد هدم المحراب فقيل له : ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع) (١) والواقع أن الأمير زيادة الله لم يهدم الجامع كله اذ من غير المعقول أن تذهب التعديلات والإضافات التي تمت قبل عهد الأغالبة والتي أصبح فيها المسجد طابع حضاري واضح . وكانت أعمدته وعقوده وحدها تمتد على أكثر من سبعمائه متر كما ذكر ذلك أحمد فكري (٢). ويقول المرجع نفسه (كما أن الغالب على الظن أن أعمال زيادة الله في المسجد لم تتعد توسعته للرواق المتوسط واقامته لمحرابه الثمين ، وللقبة البديعة التي تعلوه؟ وتغطيته بيت الصلاة بمجموعة من السقوف غالية الثمن فريدة الصناعة ، وهذه الأعمال كبيرة هامة . شملت أجزاء عديدة من المسجد كله) (٣).وكما أسلفنا القول كانت التحسينات قد أضافت الى المسجد شكلاً جديداً سواء من الناحية الخارجية أو الداخلية وسواء ما كان متعلقاً بالناحية الزخرفية والمعمارية جعل الناظر اليها يتمثل اليه أنه هدم بكامله وأعيد بناؤه من جديد .

ب- المرحلة الثانية : تمت في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد سنة(٢٦١هـ)، وشملت اصلاحاته وزياداته مجنبات البهو ، وكانت عناصر البناء منه نفس العناصر في بيت الصلاة (٤). كما أنشأ القبة فوق منتصف البهو تقوم على اثنين وثلاثين عمودارخاميا بينهما الساريتان الحمراوان وبداخلها نقوش وزخارف بديعة الصنع والأتقان وطراز عقود القبة بين المدبب وحدودة الفرس وتتكون القبة من أربعة وعشرين

---

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقية والعرب ص ٢٣
(٢) أحمد فكري : مسجد القيروان ص ٦٧
(٣) أحمد فكري : مسجد القيروان . ص ٦٧
(٤) أحمد فكري : مسجد القيروان . ص ٢٦ - ٩٣

عقداً مدبباً تسمى كل منها ضلع ، وهي مثمنة وبوجود قبة البهو الى جانب القبة الأولى المعروفة بقبة المحراب أمكن لأهل القيروان تحديداتجاه القبلة عن طريق خط مستقيم يصل بين القبتين (١) وهذه التوسعة التي أحدثها الأمير ابراهيم بن أحمد هي التي بقي عليها شكل المسجد الى اليوم (٢) .

واخيراً فان الدارس لمسجد عقبة بن نافع يتضح له :

أولاً: ان بيت الصلاة في جامع عقبة بن نافع يتميز بميزة نجدها في جميع مساجد المغرب الإسلامي ألا وهي أنه يكون عميقاً بحيث يغطي نصف مساحة المسجد كله وذلك رحمة بالمصلين من حرارة الصيف وبرد الشتاء (٣).

ثانياً : المجنبات التي أنشأها الأمير ابراهيم بن أحمد أدت الى اتساع المسجد للمصلين اذ تظلهم سقوفها دون أن يضيق الصحن وكانت مساحتها عبارة عن رواقين فقط.كما أدى الصحن دورة في انفاذ الضوء والهواء الى بيت الصلاة(٤)

ثالثاً: مئذنة جامع عقبة هي أقدم مئذنة في العالم الأسلامي تحتفظ حتى الان بعناصرها المعمارية المتكاملة ، ولعل متانة وجودة بنائها أكسبها قوة أدت بها الى أن تظل الى يومنا هذا وهي على شكل برج من ثلاثة طبقات مربعة الشكل، والطبقة الأولى أكبرها حجماً ثم تليها الثانية ،فالثالثة .وارتفاع المئذنة الكلي يبلغ حوالي ٣٧ . ٣١م أي ما يعادل ارتفاع عمارة من تسع طوابق في العصر

---

(١) حسين مؤنس : نفس المرجع .ص ١٨٢

(٢) حسين مؤنس : نفس المرجع .ص ١٨٢

(٣) أحمد فكري : نفس المرجع . ص ٥٣ – نفس المرجع .ص ١٨٢

(٤) أحمد فكري : مسجد القيروان . ص٥٣

الحالي كما يذكر ذلك حسين مؤنس [(١)]. وقد زرت هذه المئذنة وصعدت اليها وعدد درجاتها حوالي (١٨٣درجة) منبسطة ومريحة وفي جوانبها شبابيك للتهوية والأضاءة ، والناظر من أعلاها يشاهد مدينة القيروان برمتها.
والمئذنة في جامع عقبة وجوامع المغرب الأسلامي تكون بناء مستقلاً عن المسجد وفي بعض الأحيان تكون خارج سور المسجد أيضاً [(٢)]. علماً بأن هذه المئذنة من أعمال الوالي بشر بن صفوان في خلافة هشام بن عبد الملك .
رابعاً : جميع عناصر البناء في المسجد الجامع من المئذنة الى القباب والمحراب وبيت الصلاة اسلامية صرفه .

ونختم حديثنا عن الصرح العظيم الذي يعتبر من مفاخر أمة الأسلام الحضارية بكلمات لأحمد فكري (ان يكن نظام مسجد القيروان قد تطور بين عهدي عقبة وابراهيم بن أحمد وثم ترتيبه بعد اصلاحات أدخلت عليه وزيادات أضيفت اليه فأن هذه الأصلاحات والزيادات كانت كلها تخضع لمقتضيات واحدة، وتعبر عن فكره واحدة، وهذه الفكرة لم تنشأ في مسجد القيروان ، ولم تكن قاصرة عليه فان أنظمة مساجد الاسلام كلها تعبر عنها)[(٣)].

---

(١) حسين مؤنس : المساجد .ص ١٨٣
(٢) حسين مؤنس : المساجد .ص ١٨٢
(٣) أحمد فكري : مساجد القيروان .ص ٢٦

المنافع العامة في القيروان:

يقصد بهذه المنافع تلك المنشآت التي تنشئها الدولة ليستعملها العامة من الشعب وهي ذات دلالة واضحة على مدى قوة الدولة وقدرتها على رعاية شئون الرعيةمن ناحية ورفاهيتها من ناحية أخرى .

ولعل أبرز تلك المنافع هي:

أولاً: الحمامات :

انتشرت الحمامات في الدولة الإسلامية وكانت من ضمن النماذج الإسلامية التي برع فيها المهندس العربي في الجانب المعماري ، وهي حمامات ساخنة اذ يذكر أبو صالح الألفي (ويقسم الحمام الى ثلاثة أقسام حسب درجة حرارة المياه) وكان للمسلمين طرق فنية رائعة في عملية التسخين هذه حيث يوقدون النار تحت أرض البناء(١).

أما الحمام بصفة عامة فيتكون من قاعة رئيسية لخلع الملابس لها قبة تقوم على أعمدة ، وقاعتان أخريتان احداهما للماء المتوسط الحرارة والأخرى للماء شديد الحرارة وفي تلك القاعتين فتحات صغيرة تسمح بدخول الضوء أما السقف فكان عبارة عن قبو نصف اسطواني(٢).

وكان الفنان المسلم يحرص على تزيين جدران تلك الحمامات بالنقوش وسائر أنواع الزخرفة بغية ادخال السرور على نفس قاصديها(٣) وكان طراز الحمامات في بلاد

---

(١) الفن الاسلامي . ص ١٢٤ .

(٢) زكي محمد حسن : نفس المرجع . ص ١٢٠ .

(٣) أبو صالح الألفي : نفس المرجع . ص ١٢٥ .

المغرب متأثرا بطراز أبنية الرومان شأنه في ذلك شأن الفن في العصر الأموي [(١)].
ويبدو أن هذه الحمامات كانت بمثابة أمكنه للأستحمام اذ تبين ذلك من خلال وصفها .
كما قد تكون من عناصر الرفاهية والصحه معا . ولم نستطيع الحصول على معلومات
دقيقة عن أول من أنشأ الحمامات في القيروان وان كنت أرجح أن مثل هذه المنافع
أنشئت في عهد متأخر حيث أن القيروان في بداية تأسيسها كانت بمثابة قاعدة
عسكرية ثم بعد استقرار أوضاعها في بداية عصر الولاة ابتليت بحركات الخوارج من
الصفرية والأباضية الأمر الذي أدى الى انصراف الولاة عن تأسيس مثل هذه المعالم
الى القضاء على حركات الخارجين [(٢)]. والذي ترتاح اليه النفس .ان هذه المنشآت قد
أسست على عهد دولة بني الأغلب حيث الأستقرار الأمني والنماء الأقتصادي ، وقد
رأينا عدداً من هذه الحمامات أنشىء في بعض المرافق الحيوية كالدمنه ويذكر البكري
أن عدد الحمامات التي في القيروان في القرن الخامس الهجري أربعة وثمانون
حماماً[(٣)]. وليس لدينا دليل على عدد الحمامات التي أنشأها بنو الأغلب في
القيروان من نهاية القرن الثاني الهجري وحتى نهاية القرن الثالث الهجري ولكن لابد
أنهم أنشأوا عددا لابأس به لما عرف عنهم من حب للتشييد وميل الى الرفاهية ،
وانشاء تلك الحمامات يؤشر الى وفرة المياة في الدولة [(٤)]. وهذا ما عرف عن عصر
بني الأغلب .

---

(١) زكي محمد حسن : نفس المرجع . ص ١٢٠

(٢) راجع التمهيد من هذا البحث

(٣) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٢٦

(٤) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ٩٥

ثانياً : الدمنة :

الدمنة هي المستشفى أو البيمارستان وأصل تلك التسمية أن أول بيمارستان في القيروان كان في منطقة تعرف باسم الدمنة بالقرب من المسجد المعروف مسجد السبت فاقتصرت في اللفظ على الدمنه دون ذكر بيمارستان الدمنه [١] . وأول منشىء لهذه الدار هو الأمير الأغلبي زيادة الله الأول حينما قام بتحويل قسم من ملجأ كبير كان مخصص لأيواء الفقراء الى مكان لعلاج المرضى[٢] .أما الهيكل العام لهذه المنشآت فقد كان عبارة عن بناء مربع له باب كبير يقع على دهليز طويل ويوجد بجانبي الدهليز حجرتان لحراس البيمارستان وعلى طول ذلك الدهليز توجد مقاعد مخصصة لجلوس زوار الدمنة ، واخر الدهليز باب صغير ينفذ على صحن مكشوف تحيط بجانبه أروقة من بعدها حجرات لنوم المرضى كما كان هناك مسجد في وسط الرواق المواجهة للمدخل بالأضافة الى ذلك كله يوجد قسم آخر شبه منفصل عن المبنى خاص بمرضى الجذام المعروف بسرعة العدوى [٣]. ويوجد في الدمنة بعض المنافع العامة التي تضفي على هذه المنشأة نوعاً من الأكتفاء الذاتي داخل الدمنة مثل الحمام وماجل الماء[٤].

أما أطباء الدمنه فكان هناك عدد من الذين اشتهروا بالطب واشتغلوا به مثل زياد بن خلفون الذي كان يداوم على زيارة الدمنه ويتتبع حالة المرضى .

كذلك كان هناك بعض الذين أكتسبوا خبرات طبية بالوراثة واستعملوا الأعشاب والعقاقير في التطبيب ، وهؤلاء يطلق عليهم (فقهاء البدن) وكانوا يقومون بزيارة

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : القسم الأول . ص٢٧٥ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٢٢

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٢٧٦

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٢٧٧

الدمنه بين الحين والآخر ، ويعنون بالمرض عناية فائقة ابتغاء الأجر من الله [(١)] .

ويذكر حسن حسني عبد الوهاب أن هناك ممرضات من السودان مهمتهن تقديم المساعدة للمرض كما كان هناك مشرفين على الدمنه للمحافظة على النظافة والراحة للمقيمين بها [(٢)] . ومن هنا يمكننا مقارنة الدمنة بأي مستشفى في العصر الحديث من الأدارة والطب .

أما الصرف على الدمنه فمجهول مصدره ولم يكن يعرف أهو من ضمن مصروفات بيت المال أم هو على حسنة أهل الخير [(٣)] . ولكن لابد أن الدولة الأغلبية التي شيدت المعالم الترفيهية وصرفت عليها الكثير لم تكن لتبخل على مثل هذا المجال حرصاً منها على رفع المستوى الصحي قدر الأمكان فمن غير المستبعد أن يكون لهذا المجال بند في مصروفات بيت المال .

ولقد عني الأغالبة بالدمنه عناية كبيرة وليس أدل على ذلك من أنهم أول من أنشأها ثم أنهم حرصوا بعد انتقالهم الى العواصم الجديدة (العباسية ثم رقادة) على الخروج في المواسم لزيارتها واغداق الهبات والعطايا على نزلائها ، وفي هذا الصدد ذكر المالكي قوله (وكان أمراء بني الأغلب يأتون الى جامع القيروان في تينك الليلتين - (ليلة النصف من شعبان ، وليلة النصف من رمضان - ويكون فيهما من الصدقات أمر كثير يخرجون من المسجد الى الدمنه).[(٤)] والواقع أن انشاء مثل هذا المرفق في الدولة ليدل بوضوح على مدى حرص الدولة على رفع المستوى الصحي ولعل في نشر الدمن خارج القيروان كدمنه سوسه التي أنشأها الأمير زيادة الله بن

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول .ص٢٧٢-٢٧٨

(٢) الورقات القسم الأول . ص ٢٧٨

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٢٧٨

(٤) رياض النفوس . جـ ١ .ص ٣١٨

ابراهيم [(١)] خير دليل على العناية بهذه الناحية .

ثالثاً : المواجل والخزنات والقناطر :

اهتم الأغالبة اهتماماً كبيراً بعملية توفير المياه من مصادره بشتى الطرق ووصل اهتمامهم وعنايتهم بأمر المياه أن استحدثوا ادارة جديدة يكلف صاحبها بالنظر في شؤون المياه وأطلقوا عليه اسم [صاحب المياه] [(٢)] . وهذه الادارة على ما يبدو على غرار ما هو موجود اليوم من ادارة المياه والصرف الصحي التي تعني بجميع شؤون المياه سواء من تحلية أو توفير أو ايصاله بالطرق الحديثة الى الأحياء والمنازل .

ولم يبخل الأغالبة على القيروان بكل ما من شأنه توفير المياه فيها الأمر الذي حدا بهم الى صرف المبالغ الطائلة من أجل اصلاح المنشآت المائية القديمة التي ترجع الى العصر القرطاجي أو الروماني أو البيزنطي [(٣)].

والحقيقة أن المسلمين منذ بداية فتحهم لبلاد المغرب حرصوا على توفير المياه وذلك أمر ضروري لابد منه لأمة ترغب في الأستقرار ، ولعل هذا الذي حدا بالقائد معاوية بن حديج السكوني أن يحفر البئر التي تحمل الى اليوم اسم آبار حديج عند باب تونس حيث عسكر بجنده هناك [(٤)].

كما أنشأ الأمير هرثمة بن أعين سنة (١٨٠هـ) البئر المعروفة باسم بئر روطه قريباً من سوق الأحد ، وكان العمران قد امتد الى تلك النواحي فكانت الضرورة ملحة

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب :الورقات . القسم الاول . جـ١ .ص ٢٨٥

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ .ص ٣١٩

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ . ص ٣١٩

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١٩

لتوفير المياة أكثر [١].

ويتضح أن تلك الابار لم تكن لتسد حاجة القيروان بسبب تلك الكثافة السكانية التي شهدتها البلاد بعد انتهاء عملية الفتح حيث غدت مركز الأشعاع الفكري في بلاد المغرب قاطبة ومركز الثقل في الناحية الأقتصادية أيضاً ، لذا نجد مستحدثات لتوفير المياه وخزنه من الأمطار وكان ذلك في عهد مبكر في خلافة هشام بن عبد الملك حيث قام واليه بشر بن صفوان أثناء تجديد المسجد الجامع بالقيروان بأنشاء ما عرف باسم الماجل في صحن المسجد [٢].

والماجل عبارة عن بناء مستدير الشكل يكسو سطحه طبقة من الملاط شديدة الصلابة يحيط به من أعلى سور له ركائز من الداخل أو الخارج أو من الناحيتين معاً ، وحتي يصل الماء الى هذا الماجل خالياً من بقايا الطين وغيره فقد عنوا بانشاء ماجل صغير مهمته أن يترسب فيه الطمي الذي تحمله القنوات [٣]. أما طريقة وصول الماء الى الماجل فقد كان يتم عن طريق الجداول (وكانت المواجل تزود بالمياة عن طريق الجداول تجري نحو المواجل بواسطة قناطر أو جسور أو بواسطة تجميع مياة العيون[٤].

وكان الماجل الذي في صحن المسجد الجامع الذي أنشأه بشر بن صفوان هو الأول من نوعه في القيروان ،ثم كثرت المواجل وعنوا بتشييدها خارج القيروان لسهولة الحصول على المياة من الأودية

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب :الورقات . القسم الأول . جـ١

(٢) البكري : نفس المصدر . ص ٢٣

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . .ص ٤٥٩

(٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . .ص ٤٥٩

(وخارج سور القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره)[(١)].

أما أعظم تلك المواجل فهو الماجل الذي بناه الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد وهو عبارة عن بناء مستدير الشكل متناهي الأتساع في وسطه برج مثمن الشكل في أعلاه قصبة (مجلس) له أبواب أربعة تعلوها قبة قائمة على أحد عشر عموداً ، والى جوار هذا الماجل من الشمال ماجل آخر أقل اتساعاً يعرف بالفسيقية يصل اليه الماء سريع الجري من الوادي فتخف حدة الماء في هذا الماجل حتى اذا بلغ قامتي رجل تدفق عن طريق الصرح (فتحة) الى الماجل الكبير [(٢)] ولعل سعة هذا الماجل سمحت للأمير الأغلبي زيادة الله الثالث أن ينشىء زلاجاً وقد قدم الأمير زيادة الله الثالث سنة ٢٥٢هـ من تونس الى القيروان ونزل في مجلس الماجل الكبير[(٣)].

أما الخزانات فهي الأبنية التي تبنى داخل الأرض تحفظ مياه الأمطار ولم أستطع أن أقف على أول من أنشأ الخزانات في القيروان ولا على عددها ولا حتى على اسم أحدها ولم أعرف سوى خزان السفر في سوسه الذي يرجع تاريخ انشائه الى عصر بني الأغلب [(٤)].

كما أنشأ الأغالبة القناطر للمسافرين والسابلة في الطرق المؤدية الى القيروان حتى لا تتعرقل عملية السير ، ويبدو أن أول من أنشأ هذه المعالم هو الأمير زيادة الله بن ابراهيم الأغلبي . حتى أنه ليتباهى بعمله ذلك لما له من أهمية في حياة القيروان الاقتصادية والسياسية والأجتماعية فيقول (ما أبالي ما قدمت عليه يوم

---

(١) الوزير السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية . جـ ١ . ص ٢٣٨

(٢) الوزير السراج : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٢٣٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع .٤٦٠

(٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع .ص٤٦٠

القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات بنائي المسجد الجامع بالقيروان ، وبنائي قنطرة أبي الربيع ، وبنائي حصن مدينة سوسه ، وتوليتي أحمد ابن أبي محرز قاضي افريقية) [١]. وتقع تلك القنطرة التي عرفت بقنطرة أبي الربيع جنوب مدينة القيروان خارج باب أبي الربيع حيث يبدأ الشارع الرئيسي الذي كان مخصصا للمتاجر والصناعات وقد تم تجديد هذه القنطرة بعد سيل سنة (٢٤٢هـ) حيث تصدعت ، فأمر الأمير أبوابراهيم أحمد بن محمد باصلاحها فكان ذلك سنة (٢٤٨هـ) [٢].

ويمكن القول أن عملية توفير المياه كانت ضرورة أساسية لحياة الرعية في بلاد المغرب ، لعدم وجود الأنهار به ولعل من الجدير قوله أن المواجل كانت من ضمن المنشآت الأساسية في المنافع العامة ، فالدمنة مثلاً كانت تحوي على ماجل لسقيا أهلها . كذلك حرص أعيان القيروان على انشاء المواجل في منازلهم كحرص الخلفاء على ذلك في قصورهم .

كما لم يقتصر الناس في أستخدامهم على المياه العذبة فقط بل استخدموا في شئون المنزل لغير الطبخ ، المياه المالحة كاستخدامهم مثلاً مياه وادي السراويل [٣].

ومن هنا ندرك أن حرص امراء الدولة وكذلك أفراد الرعية على المياه بجلبة من مصادره وصرفه في شئون الحياة الخاصة والعامة حسب الطلب وضروريات الحياة قد أدى بطبيعة الحال الى انعدام مشكلة المياه في القيروان .

وأخيراً فان هذا الاهتمام الذي أولاه الأغالبة للقيروان بالقضاء على الثورات فيها وتوسعة المسجد وإنشاء المرافق المختلفة قد جعل المدينة حاضرة زاهره ومركزاً ثقافياً وعلمياً وتجارياً يؤدي دوراً محمود للإسلام والمسلمين شرقاً وغرباً .

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ .ص ١٦٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . جـ ٢ .ص ٤٦١

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ٩١

الفصل الثاني

التكوين الاجتماعي لمدينة القيروان في عهد الاغالبة

- عوامل الزيادة السكانية في القيروان
- عناصر تكوين المجتمع القيرواني
- فئات المجتمع في القيروان : الامراء - العلماء - الجند - التجار - الفلاحون
- الصناع - أهل الذمة - الرقيق
- تقدير عدد السكان في القيروان في عهد الأغالبة .
- أهم المظاهر الاجتماعية في القيروان في عهد الأغالبة

ا - عوامل الزيادة السكانية في القيروان

نتيجة طبيعية لتأسيس أي مدينة نجد أن عدد سكانها يتزايد تدريجياً مع الزمن ، ولكن تتفاوت هذه الزيادة حسب موقع المدينة وحسب الأهمية السياسية التي تصل اليها ، وحسب الوضع الحضاري الذي ترقى اليه ، ولذلك نرى أن هناك عدداً من العوامل الأساسية ساهمت بشكل كبير في عملية الزيادة السكانية في القيروان ، وأهمها :

أولاً : بعد القيروان عن مركز الخلافة

كان لبعد مدينة القيروان عن مركز الخلافة ما جعلها مقصد الفارين من سلطان الخلافة ، فمثلاً حين زالت دولة بني أمية هرب كثير من أفراد البيت الأموي الى القيروان للحفاظ على أرواحهم من سيوف بني العباس الذين راحوا يتعقبونهم ، وكان فيمن هرب ابنان للوليد بن يزيد وغيزهما مع نسائهم فاستقروا في القيروان واتخذوها مقاماً لهم (١) .

ثانياً : ظهور المذاهب في الدولة الاسلامية

كان لظهور الفرق الاسلامية الغير سنية أثر كبير في العالم الاسلامي . وقد كان لتطور افكار الخوارج (٢) اثر كبير في مجريات الاحداث في الشرق الاسلامي اذ قام

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٦٧

(٢) عن مبادىء : الخوارج انظر : الشهر ستاني : الملل والنحل . جـ ١ .ص ١٨١

الولاة الأمويون بتعقب أصحاب تلك المذاهب من أمثال زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي الأمر الذي دفع أصحاب المذاهب بعد ما سددت لهم الضربات هناك الى البحث عن ميادين أخرى لنشاطهم فاتجهوا صوب بلاد المغرب واتخذوا من القيروان التي كانت تجمع عددا من العلماء والطلبة من مختلف بقاع الأرض مركزاً لهم (١) . وقد وجدوا في البربر حقيقة أرضاً خصبة لتقبل مبادئهم (٢) .

ثالثاً : الثورات المتتالية (ثورات البربر - ثورات الجند)

كانت ثورات البربر التي تندلع من وقت لاخر في العاصمة القيروان سببا في أن تدفع الخلافة سواء في دمشق أو في بغداد بالجيوش الجرارة للقضاء على تلك الثورات . فقد أدت ثورة البربر بقيادة ميسرة المدغري سنة (١٢٢هـ) وهزيمة قوات والي القيروان عبيد الله بن الحبحاب بالخليفة هشام بن عبد الملك أن يقسم على أن يرسل الى افريقية من العرب ما يجعل منهم كثرة لا تقل عن البربر اذ قال (والله لأغضب لهم غضبه عربية ، ولأبعثن اليهم جيشاً أوله عندهم وأخره عندي ثم لا تركت حص بربري الا جعلت الى جانبه خيمة قيسي أو تميمي) (٣) . وقد بر الخليفة بيمينه حيث أرسل كلثوم بن عياض القشيري والياً على القيروان في رمضان سنة (١٢٣هـ) ومعه اثنى عشر ألفاً من جند الشام وطلب من كل مصر يمر به أن يبعث معه من أجناده حتى وصل عدد قواته ثلاثون ألف رجل ، عشرة الاف منهم من بني أمية وعشرون ألف من باقي بطون العرب (٤) . ودخل مع الوالي العباس محمد بن

---

(١) عن انتشار مبادىء الخوارج في افريقية انظر صالح باجية : الأباضية بالجريد ، ص ٢٣

(٢) ابراهيم حركات : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٠٢

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر ، ص ١١١

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر ،جـ ١،ص ٥٧

الأشعث الخزاعي سنة (١٤٤هـ) أربعون ألفا عليهم ثمانية وعشرون قائداً بأمر من الخليفة أبو جعفر المنصور لقتال الصفرية بقيادة أبي الخطاب [١]. ودخل خمسمائه فارس سنة (١٥١هـ) مع الوالي عمرو بن حفص [٢]. هذا عدا الجيوش الأولى التي دخلت قبل انشاء القيروان .

رابعاً : مركز القيروان الفكري والتجاري

ان نمو الوعي الديني الذي أسهم فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز بالتابعين الذين أرسلهم الى افريقية قد أدى الى أن تصبح القيروان على كونها مركزاً سياسياً مركزا تعليمياً يضم علماء من مختلف أنحاء الأرض ، وهذا دفع بالطلبة الراغبين في التحصيل لاسيما من المغرب الأقصى والأندلس الى الاستقرار في القيروان بدلاً من الارتحال الى المشرق وأخذ العلم من معلميها [٣] كما حرص بعض الامراء الأغالبة من أمثال ابراهيم الثاني على استقدام أعداد كبيرة من الاطباء والمهندسين من المشرق الاسلامي الى بلاده للمساهمة في النهضة التعليمية [٤] . أما مأداه موقع القيروان كمركز تجاري فسياتي الحديث عنه في حينه [٥] .

خامساً : ضروريات الاماره الجديده

أسلفنا القول أن الأمير ابراهيم بن الأغلب بعد أن كثرت ثورات الجند ضد سلطة

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ٨٣ – الناصري : نفس المصدر جـ ١ .ص ١٢٨

(٢) الناصري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١٣

(٣) حول هذاالموضوع أنظر الفصل الثالث من البحث .ص ١٧٢

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص١٩٣

(٥) انظر ص ٢٨٧ من البحث

الولاة قبل عهده ، اضطر الى أن يستقدم السودان للعمل عنده كجند نظامي ، فما أن استكمل بناء عاصمته الجديدة العباسية حتى كان عدد حرسه الخاص من السودان خمسة الاف رجل ، وفي هذا يقول الرقيق القيرواني (واشترى موضع القصر القديم من ابن طالوت وابتني به قصراً فجعله منتزهاً ثم جعل ينقل اليه السلاح والاموال سراً وهو في خلال ذلك يراعي أمور أجناده ويصلح طاعتهم ويتفقد أمورهم ويصبر على جفائهم وأخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يريد أن يتخذ من كل صناعة صنعه تغنيه عن استعمال الرعيه في كل شيء من أمورهم " (١).

هذا العدد من العبيد سيؤدي حتماً الى زيادة كبيرة في التعداد السكاني ، وسوف يسير على خطى الامير ابراهيم في هذه السياسة بعض الامراء الأغالبة ، فقد بلغ عدد الرقيق الأسود في عهد الأمير ابراهيم الثاني رقماً خيالياً ، وفي هذا الصدد يقول النويري (أمر ابراهيم بن أحمد بشراء العبيد السودان فبلغت عدتهم مائة ألف" (٢) وهذا يعني أن متطلبات الاماره الجديدة لتحقيق الأمن من جهة وفتح مناطق جديدة من جهة أخرى قد ساهم بشكل كبير في عملية الزيادة السكانية ، فاذا كنا لم نسمع عن جيوش جديده قادمة من المشرق بعد نشأة الدولة الأغلبية في افريقية الا أننا نرى أن باباً أخر قد سد مسد قوات المشرق وذلك هو استقدام الرقيق .

عناصر تكوين المجتمع القيرواني : -

العوامل التي أدت الى الزيادة السكانية أدت الى زيادة عدد العناصر التي تشكل المجتمع القيرواني . فالمجتمع القيرواني فيه من العناصر العرب الذين انشيئت

---

(١) تاريخ افريقية والمغرب .ص٢٢٢ - أنظر ابن عذاري : نفس المصدر جـ١ .ص ١١٧

(٢) نهاية الأرب .جـ٢٤ . ص ١٣١

المدينة على أيديهم وكانوا من مختلف البطون وكانوا بمثابة جنود وولاة وأعوان تبعث بهم الخلافة لتدعيم مركزها وسلطانها لادارة المرافق الادارية المختلفة (١) .

ووصل عدد البطون العربية التي دخلت افريقية ما يقرب من خمسين ونيف والدراسة التي قام بها عبد الله الزيدان في هذا المجال تعطي صورة أقرب الى الحقيقة من غيرها حول عدد البطون العربية وزمن دخولها وتطورها في المراحل المختلفة والاجيال المتعددة التي أفرزتها تلك الأسر . كما بين ارتحال بعض الاسر وانقطاع نسلها عن القيروان في فترة ما من بعد دخولها مثل عائلة مسروق اليعشوبي الذي كان قائداً ضمن عسكر موسى بن نصير (٢).

أما عن بطون العرب التي استقرت في القيروان فأهمها :-

بنو عبد المطلب :

عاش أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب في القيروان حوالي القرن الثالث الهجري حيث عاش أبناء أحمد بن علي بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب وهما فاطمه ومحمد ، ويذكر عبد الله الزيدان أن لهما مقبرة غير أنه لم يؤرخ تاريخ وفاتهما . كما عاش أفراد من أسرة الحسين بن علي بن أبي طالب (٣).

بنو الأشبح :

وأصلهم من البصرة في العراق وأول من قدم من تلك الأسرة سعيد بن الأشبح الذي عاصر البهلول بن راشد ورباح بن زياد وكان من نسله عبد الله بن محمد بن

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص٣٨٢

(2)Abdullah al-zaidan : the people of Qayrawan624

(3)Abdullah al-zaidan : the people of Qayrawan624

سعيد ، وهو عالم فاضل له باع طويل في المناظرة على طريقة أهل العراق [(١)].

بنو الأزدي :

ومن نسلهم زمن الأغالبة أبو جعفر بن متعب بن أبي الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدي ،من تلاميذ الامام سحنون رضي الله عنه ، وكانت له صحبة مع الامير ابراهيم بن أحمد فقد كان الامير يراسله (الى أخي في الاسلام وشقيقي في المحبة) [(٢)].

عائلة أبو سفرة الأزدي :

وقد لعب من نسل ابن سفرة الأذري دوراً هاماً في شمال افريقية عمرو بن حفص ابن قبصية بن أبي سفرة الأزدي (١٥١-١٥٤هـ) ، ويزيد بن حاتم بن قبيصه بن المهلب (١٥٥ - ١٧١ هـ) [(٣)].

عائلة تميم الدرعي :

كانوا من العرب القادمين مع جيوش العباسيين سنة (١٤٤هـ) في حملة محمد بن الأشعث الخزاعي ، وكان تميم يشغل وقتذاك منصب قائد البربر العسكري توفي وله ولدان : سلمه وتمام ، وتمام هو الذي خرج على ابن مقاتل العكي ثم لقى حتفه في بغداد [(٤)]. أما سلمة فقد عاش عمره في افريقية . وترك تمام إربعة من الأبناء هم عبيد وأحمد ومحمد وتميم ، وأحمد بن تميم كان من القادة العسكرين للأغالبة ، وهو والد أبو العرب التميمي صاحب كتاب الطبقات [(٥)].

---

(١) الدباغ :معالم الايمان . جـ٢ ،ص٢٣٢

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ،ص٣٧ - الدباغ : نفس المصدر . جـ ٢ ،ص ١٨٢

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ ،ص٩١-٩٨

(٤) أنظر تفاصيل نهايته في ابن الأبار :الحله السيراء ،جـ١ ،ص٩٣

(5)Abdullah al-zaidan : the people of Qayrawan624

الفهريون :

مؤسس هذه الأسرة عقبة بن نافع ، وقد رأينا الدور الذي قام به عبدالرحمن بن حبيب في افريقية وما أنتهى اليه أمر بني فهر [(١)].

الكناني :

قيس بن يسار بن مسلم الكناني هو أول من دخل افريقية من أسرته وكان ذلك في حملة عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة (٢٧هـ) ، وقد ترك ابنان هما عبد الله وعبد العزيز . وممن عاصر منهم الأغالبة القاضي أبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن يسار المتوفي سنة (٢١٤هـ) [(٢)].

عائلة الموصلي :

قدم أول مؤسس لهذه الأسرة في افريقية في حملة محمد بن الاشعث سنة (١٤٤هـ) وهو عبد الرحمن بن نافع الموصلي ، ومن نسله كان عامر بن نافع الثائر مع منصور الطنبذي زمن حكم زيادة الله بن الاغلب ، وقدتوفي عامر على فراشه سنة (٢١٣هـ) ، وقال الأمير زيادة الله عندما سمع بموته (اليوم وضعت الحرب أوزارها[(٣)].

عائلة الرعيني :

كان غانم من قواد حنظلة بن صفوان أثناء قتال الخوارج ، ذكر عمربن غانم ما

---

(١) أنظر ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ .ص٦٥ الى ٨١

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ .ص٣٩

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ .ص١٣٢

يفيد قائلاً " أخبرني أبي ،قال : لما كان اليوم الذي انهزمنا فيه لم نصب شعيراً لخيلنا فعلفناها القمح .... فلما توافينا الى القيروان تحاسبنا ففقدنا عشرين ألف فارس ووصلنا في عشرين ألفا " (١) ، وولد عمر هو القاضي الذي أسلفنا الحديث عنه عبد الله بن عمر بن غانم (٢) .

التميمي :

هم أصحاب الأسرة الأغلبية ، وأول شخصية تظهر في افريقية وتكون الأسرة هناك هو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي الذي دخل مع قوات ابن الأشعث سنة (١٤٤هـ) ومعه أعداد كبيرة من أفراد أسرته ثم صار والياً لأفريقيا من قبل الخليفة المنصور (١٤٨ - ١٥٠ هـ) (٣) .

عائلة حميد التميمي :

من سلالة الأغالبة التميميين وأول شخصية تبرز في افريقية من هذه الأسرة شخصية على بن حميد الذي كان وزيراً لزيادة الله وكانت له تجارة واسعة في العاج ربح منها أموالاً طائلة . بعد وفاته ترك أولاداً ، اثنان منهما كانا على خطى والدهما في ممارسة الحياة السياسية وهما أحمد ومحمد اللذين كانا ضحية الصراع الذي نشب بين الأمير محمد وأخيه الأمير أحمد (٤) .

عائلة التنوخي :

سعيد بن حبيب التنوخي من أهالي حمص قدم مع جيوش حمص . ذكر محمد بن

---

(١) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص ١١٨

(٢) أنظر تفاصيل أخباره في الفصل الثالث

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١ .ص٨٦

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١ .ص١١٨

سحنون قوله لوالده " قلت له : يا أبت أنحن صليبة من تنوخ ؟ قال لي : وما تحتاج الى ذلك ؟ فلم أزل به حتى قال لي : نعم ، وما يغني عنك ذلك من الله شيئاً ان لم تتقه" (١)

عائلة البصري :

أبو معمر عباد بن عبد الصمد أصله من البصرة ، سكن القيروان واستوطنها ، عاصر أسد بن الفرات .ذكر المالكي قوله أسد عنه : " قال أسد بن الفرات كان عندنا بالقيروان شيخ يقال له أبو معمر " (٢).

هذه الأسر العربية التي لعبيت دوراً في فترة الحكم الأغلبي ، وما عداها في الأزمنة الأخرى كثير ، وحتى لا نخرج عن موضوعنا أثرنا عدم ذكرها لكن ما نسبة العنصر العربي في المجتمع الافريقي؟

الحقيقة أنهم كانوا قلة اذا ما قورنوا بالبربر أهل البلاد الأصليين ، فعلى أكبر تقدير لم يكن عددهم يتجاوز مائة ألف أو مائة وخمسين ألفا استقروا في المناطق الحضارية مثل القيروان وتونس ، لكن رغم قلتهم العددية لعبوا دورا عظيماً في الساحة السياسية والحضارية معاً (٣).

أما البربر وهم الغالبية العظمى من السكان فهم أصلاً من الجنس السامي ويستدل على هذا الرأي بالتشابه الكبير بين البربر وبين العرب في الملبس والمسكن والعادات والتقاليد وطرق المعاش (٤) .

---

(١) القاضي عياض : نفس المصدر .ص٨٦

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ .ص٨٨

(3)Hicham . Djait - farhat Dachraoui :Histair De la Tunisie Le moyen Agem Age P-83

(٤) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب .جـ١ .ص٢٢

أما عن تسميتهم بالبربر فقد اختلف فيه المؤرخين ، فبينما يذهب الفريق الأول مذهب العرب في تقسيم الشعوب على أسس متعارف عليها من ارجاع التسمية الى الجد البعيد لذا قالوا أن البربر اتخذوا اسم أحد آبائهم البعيدين وهو بر بن قيس غيلان وان بركان له ابنان أحدهما اسمه برنس واليه ينسب البرانس والثاني مادغيس المعروف بالأبتر واليه ينسب البربر البتر (١) . في حين نرى الفريق الثاني يفسر اللفظ تفسيراً لغوياً فالبربرة في لسان العرب هي اختلاط الأصوات الغير مفهومه ومنه يقال بربر الأسد اذا زأر (٢) .

وكانت الحروب بين طائفتي البربر تقوم دائماً لأن البربر البتر رحالة متنقلين يرحلون من مكان لآخر وفي أثناء تنقلهم يغيرون على مزارع المستقرين من البرانس وهؤلاء بدورهم يطلبون مساعدة البيزنطيين ضد المعتدين من البربر البتر (٣) . ووصل البربر البرانس الى درجة حضارية مرموقة ساعدهم عليها اتصالهم بالبيزنطيين وقيام علاقات مختلفة بين الطرفين (٤) . وكان من أهم قبائلهم المعروفة أزداجة ومصموده وأوربه وكتامه وصنهاجة وأوريقه (٥) . وكانوا يسكنون المناطق الشمالية الحصينة وكان عيشهم رغيدا (٦) .

أما البتر من البربر فكانوا أهل بداوة ، ومن اشهر قبائلهم أداسه ونفوسه وفريسه وبنولو الأكبر تنحدر قبيلتا نقراوه ولواته (٧) . وكان البتر يسكنون الصحاري

---

(١) ابن خلدون : العبر .جـ ٦ .ص ٨٩

(٢) ابن خلدون : العبر .جـ ٦ .ص ٨٩

(٣) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي .جـ١ .ص ١٦

(٤) شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي . ص ١٨١

(٥) ابن حزم جمهرة : أنساب العرب . ص ٤٩٥

(٦) الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا .ص ٢٨

(٧) محمود شيت خطاب : نفس المرجع .جـ١ .ص ١٦

والواحات والجبال وكانوا شديدي النفور من الروم وقد تمكنوا من تقليص نفوذهم الى السواحل وذلك في القرن السابع الميلادي (١) .

أصبح البربر بعد اسلامهم عضدا قوياً في الولاية الافريقية غير أنه باعتناق بعض قبائلهم لمبادىء الخوارج الأباضية والصفرية قد سمحوا لأنفسهم بالخروج على الوالي الممثل الشرعي للخلافة في شكل ثورات متكررة أزعجت الخلافة بالمشرق وعرقلت عملية التطور الحضاري . لكنهم لعبوا دوراً بارزاً زمن الأغالبة بمساعدتهم للأمير زيادة الله في ثورة منصور الطنبذي وكانت قبيلة نفراوة صاحبة الشرق في تلك الضائقة (٢).

الى جانب البربر كان هناك بقايا الأمم السابقة من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين ، وكانوا من الناحية العقائدية اما على اليهودية أو النصرانية ولم يكن لهم تأثير كبير على الحياة في القيروان غير ما كان من دورهم في الحياة الاقتصادية اذ عمل اليهود في التجارة كما سنرى ذلك في مكانه وعمل النصارى بالطب وسك العملة . وقد سكن البيزنطيون منهم في طبنه وباغايه (٣) كما سكنوا القيروان الحاضرة (٤).

وايضاً كان هناك الافارقة سكان المدن وهم من أهل البلاد ولكن ليسوا من جذور بعيدة فيها وكانوا على النصرانية (٥) . وكان مسكنهم زمن حكم الاغالبة منطقة

---

(١) الطاهر أحمد الزاوي : نفس المرجع . ص ٢٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص١٣ – وعن ثورة منصور الطنبذي أنظر الفصل الأول .ص

(٣) باغايه : مدينه كبيرة في أقصى أفريقية بين مجانة وقسنطينه (ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ١ .ص٣٢٥)

(٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . جـ٢ .ص ٤١٩

(٥) شكري فيصل : نفس المرجع . ص١٨ – محمود شيت خطاب : نفس المرجع . جـ١ .ص٢

الجريد ، وكانوا يعملون بالزراعة لاسيما زراعة الزيتون واستخراج الزيت منه وقد أسند أمراء الأغالبة اليهم بعض المناصب لمحاولة كسبهم والاستفادة من خبراتهم على أن يسلموا . (وعرض ديوان الخراج على سوادة النصراني على أن يسلم فقال : ما كنت لأدع ديني على رئاسة أنالها) وكان ذلك سنة (٢٧٨هـ) في امارة ابراهيم بن أحمد بن الأغلب(١) . في عهد خلافة بني العباس دخلت مع جيوش الولاه عناصر من الفرس والخراسانين وكان الفرس يشكلون عصباً قوياً في جند العراق أما الخراسانيون فقد ساهموا بعد دخولهم القيروان في الجهاد في صقلية ، فحملة زيادة الله لفتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات كان معظم جنودها من الخراسانيين أضافة الى الفرس(٢)

هذا عدا طلبة العلم من المغرب والاندلس الذين أكتفوا في رحلاتهم العلمية بالاخذ عن علماء القيروان التي ذاع صيتها وبلغت في العلم مبلغاً (٣) . كما أن حجاج افريقية والاندلس كانوا يمرون بالقيروان فلا غرو أن يمكثوا بها أثناء عبورهم ليتزودوا من علم شيوخها (ولا شك أن ازدهار القيروان شجع هؤلاء الحجاج على التزود من مناهلها العلمية وكثيراً ما استقروا بها طلباً للعلم على أيدي أئمتها وفقهائها) (٤).

وقد هاجرت أسر اندلسية بغية تحصيل العلم الى القيروان واتخذتها مسكناً لها مثل يحي بن عمر بن يوسف الأندلسي من أهالي قرطبة وكانت وفاته سنة (٢٨٩هـ)، واختلف في قبره هل هو في سوسه أم في القيروان (٥) . ومحمد بن محمد بن خيرون

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب . جـ١ .ص ١٦٢

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . العصر الاسلامي . جـ٢ .ص٤١٨

(٣) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ٤١٤

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة .ص ١٧٥

(٥) الدباغ :معالم الايمان .جـ٢ .ص٢٣٣-٢٤٤

المعافري الأندلسي الذي استوطن القيروان وله بها مسجد واستشهد فيها سنة (٣٠١) [١]. كما استقر بعض المغاربه مثل محمد بن اسماعيل المغربي وأصله من سوسه المغرب الا أنه أستوطن القيروان وكانت وفاته سنة (٢٩٩هـ) [٢]. هذا عدا طلبة المشرق الذين توافدوا على القيروان أيضاً . فمحمد بن القطان أصله مشرقي من نسل أبو موسى الاشعري [٣]. وأسمه : أحمد محمد الاشعري [٤] .

كما أدى فتح صقلية وجزر البحر الابيض المتوسط (سردانية - قلورية) الى قدوم عدد كبير من الرقيق الأبيض اضافة الى الرقيق الأسود الذي كان يجلب من بلاد السودان [٥].

والحقيقة إن هذه العناصر المختلفة المكونه للمجتمع القيرواني امتزجت مع بعضها مكونه وحدة اجتماعية اتسمت بسمات خاصه وكونوا كما يقول البشير بن سلامه (بشراً خاصاً تأثرت بالبيئة والمناخ وبمقتضيات الحياة) [٦].

لكن ذلك الامتزاج بين العناصر البشرية لم يكن يمنع ظهور تباين في المجتمع في القيروان مرده - طبيعة العمل أو ما يمكن تسميته بالاختلاف الناتج عن الثروة والمال أو السلطة والجاه ، فكانت هناك فئات مختلفة لكل منها نمط حياة يناسب وضعيتها .

---

(١) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ .ص٢٨٩

(٢) الدباغ : نفس المصدر جـ٢ .ص٢٨٥

(٣) الدباغ : نفس المصدر جـ٢ .ص٢٠١

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . نفس المرجع . جـ٢ .ص٤٢٠

(٥) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . نفس المرجع . جـ٢ .ص٤٢٠

(٦) الشخصية التونسية خصائصها ومقوماتها .ص٧٣

جـ - فئات المجتمع في القيروان :

أولاً : أمراء الاغالبة :

يرجع نسب الأغالبة الى عرب بني تميم وكان جدهم الأكبر الأغلب بن سالم من قواد ابي مسلم الخراساني ، سكن مع أسرته في مصر أثناء ولاية محمد بن الأشعث، فكان عنده في مكانة عالية . دخل افريقية مع قوات ابن الأشعث سنة (١٤٤هـ) أثناء ثورات الخوارج فعينه ابن الأشعث عاملاً على الزاب . ثم أصبح والياً للقيروان سنة (١٤٨هـ) بأمر من الخليفة أبي جعفر المنصور [(١)].

ولهذا نقول أن أسرة الأغالبة كان لها باع طويل في مجال الجندية ثم الولاية ، وقد مهد ذلك لأن تستقل بأمر أفريقية وتصبح أهلاً لقيادتها وباقرار الأمن وأعادة الهدوء اليها واستكمال البناء الحضاري الذي بدأه الفاتح عقبه بن نافع . فلا غرو اذاً أن تصبح أول أسرة عربية تحكم أفريقية على تلك الصورة التي أسلفنا الحديث عنها .

كان أول أمير من هذه الطبقة هو الامير ابراهيم بن الاغلب (١٨٤-١٩٦هـ) وقد استطاع بحسن تدبيره وبعد نظره أن يحكم سيطرته على البلاد وأن ينقذ افريقية من انفراط عقدها وقد حقق للخلافة في بغداد ما أرادت [(٢)].

وقد حظى بشعبية كبيرة اذا ما قورن بابن العكي - الوالي السابق له الذي أساء السيرة فيهم فمنع أرزاق الجند ، كما أن الفقهاء من المالكية كرهوا ولايته بسبب قتله البهلول بن راشد ضرباً [(٣)].

والحق كان ابراهيم بن الاغلب قد خبر منطقة المغرب تماماً ، فقد كان جندياً في جيوش بني المهلب ، ومن ثم ازدادت خبرته في فترة حكمه الزاب . ولعل ذلك أدى به

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١ .ص ٨٦ - ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ .ص٢٦

(٢) حسن أحمد محمود وأحمد الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي .ص ٤١٥

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ .ص١٤١ - أبو العرب التميمي : نفس المصدر .ص ٥٩

الى اتخاذ سياسة معينه أنتهجها من بعده جميع أفراد الطبقة الحاكمة الا وهي سياسة كسب الخلافة من جهة بتقديم الولاء لها واحترام رأيها وتنفيذ أوامرها وأخذ العهد بالامارة منها اضافة الى الشكليات الاخرى التي كانوا يمارسونها في حق خلافة بغداد، هذا من جهة ومن جهة ثانية تسهيل سبل الرخاء للشعب بما أنجزه الأمراء من مرافق مختلفة لخدمة المواطنين سواء ما كان منها في الصحة والتعليم والاقتصاد . ومن جهة ثالثة التصدي لكل مناوء يزعزع أمن افريقية وفتح مناطق جديدة تحقيقا لأهداف ثلاثه ، أولها : نشر الاسلام . وثانيها تفريغ طاقات الجند في ما ينفعهم دنيا وأخرى بتوجيههم الى الفتح والجهاد فينشغل الجند عن الثورة ضد السلطه الحاكمه وينسى العصبية أمام المهام الكبرى التي يواجهها في الفتح ، وفي هذا الصدد " عمل زيادة الله على استئصال شافة الجند والتخلص نهائياً من خطرهم ، في نفس الوقت الذي يساهم فيه في حركة الجهاد فشرع في فتح صقلية سنة (٢١٢هـ) وغدت الجزيرة منذ ذلك التاريخ هدفاً لحملات الجهاد " (١). وثالثها : اشعار العدو والصديق أن دولة الأغالبه دولة قوية قضت على الاضطراب في الداخل وخرجت بجيوشها الى الخارج تمكيناً للسيادة الاسلاميه في حوض البحر المتوسط (٢) .

ومن حسن سياسة ابراهيم بن الاغلب تأسيس العباسية ليوفر لنفسه جوا من الثقة والاطمئنان فيركز دعائم امارته دونما خوف أو قلق (٣).

وظهرت أسرة بني الأغلب كطبقة حاكمه لها تأثير على الحياة الاجتماعية في القيروان ، وغدا مركز هذه الطبقة مدينة العباسية العاصمة الجديدة حيث القصور

---

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . وسياستهم الخارجية . ص ٤٢

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . وسياستهم الخارجية . ص ٤٢

(٣) حسن أحمد محمود وأحمد الشريف : نفس المرجع . ص ٤١٦

الفاخرة المزودة بضروريات الحياة كمواجل المياه وكمالياتها كالحمامات .

لكن ما مدى النفوذ الذي كانت تتمتع به هذه الطبقة الحاكمه من الناحية السياسية والاجتماعية ؟ كما هو معلوم أن الخليفة هارون الرشيد كان يحرص على استمرارية وجود بلاد المغرب كجزء من الدولة الاسلامية التي يرأسها لكن المشاكل الكثيرة التي حدثت في هذا الاقليم اضافة الى بعد المسافة بين بغداد وبلاد المغرب أدت الى تعيين ابراهيم بن الاغلب من قبل الخلافة في بغداد على أن ذلك ما كان ليمنع مطلقاً كزيادة في تأمين وضع هذه الناحية بأن جعل الرشيد للقاضي في افريقية سلطة موازية لسلطة الأمير . وكان الفقيه عبد الله بن غانم قاضياً لافريقيه منذ ولاية روح بن حاتم عليها سنة (١٧١هـ) [١]. فقد أوضح الخليفة هارون الرشيد للأمير ابراهيم بن الأغلب بأن سلطته محدودة ولعل في مقولة الخليفة الرشيد للأمير ابراهيم بن الأغلب (وأنا أعلمك أني لا أفك لك كتابا حتى يكون مع كتابك اليّ كتاب ابن غانم) [٢]. دلاله واضحه من الرشيد للأمير ابراهيم بمشاركة القاضي له في تسييس أمر افريقية . وهذا ماحدا بابن الأغلب الى القول بعد وفاة القاضي عبد الله بن غانم سنة (١٩٠هـ) " والله مالملكنا أفريقية ولا أمنا الا اذ مات ابن غانم " [٣].

والدارس لهذه الأوضاع يرى مدى رغبة الخليفة في المشرق في عدم استيئثار حاكم واحد تطلق يده في أمور الولايه كلها أي بمعنى أدق الحد من سلطان الوالي أو الأمير في تلك البقعة النائية عن مركز الخلافة . وهي محاوله بلا شك لمعرفة دقائق الأمور التي تجري في أفريقية عن طريق هذا القاضي . وليس أدل على ذلك من القدر الكبير

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ،ص١٧١

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ،ص١٥٢

(٣) الرقيق القيرواني : نفس المصدر ،ص ٢٢٨

من التقدير والأحترام الذي يصرفه الخليفة الرشيد للقاضي ابن غانم ، ممثلاً في الرسائل التي كان يبعثها اليه مقرونه برسائله الى الأمير الأغلبي [(١)].

لكن يمكن القول أن الاغالبه وان كانوا تابعين اسمياً للخلافة في بغداد حيث كان الأمير يدعو للخليفة على المنابر ويتخذون السواد شعار العباسين ويدفعون الخراج السنوي المقرر الا أن الأغالبة حصلوا على امتيازات كبيره لعل من أهمها سك النقود في امارتهم بأسمائهم وحصر ملك افريقية في أسرتهم [(٢)]. ويبدوا أن ذلك كان من دعائم قوة الأغالبة من ناحية وسبباً في حرية التصرف التي كان يتمتع بها الأغالبة في تلك المنطقة البعيدة من ناحية اخرى والتي تبدو مظاهرها واضحة في عملية ارسال الجيوش للفتح دون أخذ الاذن من الخليفة في بغداد [(٣)].

لكن ذلك أيضاً لم يكن يعني استقلالية الأغالبة تماماً وتصرفهم بحرية كاملة ، وليس أدل على ذلك أنهم كانوا يضطرون لمعاداة عدو بغداد ويصادقون صديق بغداد ، فلم يكن بين الأغالبة والأمويين في الأندلس صداقة وعلاقة متينه على الرغم من أنه لم يكن بينهما خلاف مذهبي اذ مذهب الدولتين السني المالكي .

كما أنه لم يكن هناك أي نوع من النزاع في أي مجال بين الدولتين على الأطلاق[(٤)]. اذ لانرى المصادر تتعرض لغير ما يمكن أن نسميه كيد كل دولة للأخرى الأمر الذي يحتم علينا القول بأن هناك عداء لا أساس له سوى أن الأغالبه يرغبون في ترضية الخلافه في بغداد .

---

(١) السيد محمد أبو الزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقية .ص ١١٩-١٢٢

(٢) حسن حسني عبدالوهاب الورقات . القسم الأول . جـ١ ص٦٧

(٣) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبه . وسياستهم الخارجية . ص٥٤

(٤) الصلات التي كانت بين الاغالبة والامويين في الاندلس كانت في الناحيتين الثقافية والتجارية وما من شك في أنها مصالح أفراد ومنافع شعب ولايمكن بحال من الاحوال للحكام الوقوف في وجهها (حول هذا الموضوع أنظر : محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبة وسياستهم الخارجية من ص ١٦٥ الى ص ١٨٠

والأمويون بدورهم يناصبون كل مؤيد لبغداد العداء فمثلاً يذكر ابن الأثير أن الامام عبد الوهاب بن أفلح أحرق المدينه التي أنشأها أبو العباس محمد الأول سنة ٢٣٩هـ والتي كان اسمها العباسية بالقرب من تاهرت فكافأه الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) بمبلغ من المال قدره مائة ألف درهم [١] كما ناصر الأغالبة الثائرين على حكومة الأندلس اذ تم تبادل الهدايا بين الاغالبة والثائر عمر بن حفصون الذي رغب في المساندة الأغلبية ضد الأمويين [٢]. لذا يمكن القول أن حياة الأغالبة السياسية دارت في فلك سياسة بغداد ولاعجب في ذلك فكل امرءٍ يحمد ولي نعمته .

أما حياة الأمراء الاجتماعية فأنها كانت تشبه الى حد كبير حياة الخلفاء في بغداد وسامراء فيما بعد " حتى غدا البلاط الأغلبي صورة صادقة لبلاط سامراء [٣].

وقد عمد أمراء الأغالبة الى اتخاذ الوزراء . فقد أتخذ الأمير زيادة الله أخاه غلبون وزيرا له ، وأتخذ محمد الأول أخاه أبا جعفر وزيراً له . في حين أسند البعض منهم الوزاره الى غير أفراد البيت الحاكم حيث عين الأمير ابراهيم بن أحمد عبد الله بن اسحاق وزيراً له . وأسند زيادة الله الثالث أمر الوزارة والبريد معاً الى عبد الله بن الصايع [٤].

---

(١) لا تتعرض لهذه الحادثة من المصادر الا الكامل لابن الاثير جـ ٥.ص ٢٦٣ ، والعبر لابن خلدون جـ٤.ص٤٢٩. علما بأن بني رستم في تاهرت كانوا أباضية والامويون في الاندلس كانوا سنه مالكية ولم يكن يجمع بينهما سوى العداء للأغالبة والعباسيين.

(٢) ابن الأثير :الكامل في التاريخ . جـ٥.ص١٦٣. أنظر تفاصيل هذا الموضوع في ابن حيان : المقتبس ص ٩٣.

(٣) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . ص ٤٦

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١.ص ١٦٠-١٨٣

ولابد من إلقاء الضوء على علاقة الأغالبة كحكام بطبقة العامة كمحكومين الحقيقة ان العلاقة بين الطرفين تعتمد في رأينا على سياسة الحاكم نفسه التي بدورها تعكس الاستجابة من قبل العامه. فابراهيم بن الأغلب يذكر له ابن عذاري رأفته وعدله وفي هذا الصدد يقول (لم يل افريقية أحسن سيرة منه ولاسياسه ولا أراف برعيه ، ولا أوفي بعهد ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت افريقية في أيامه) [١] ، فانعكست سياسته تلك على الرعية اذ كان الشعب بكل مستوياته الفكرية والمهنية - عدا ما كان من طائفة الجند -معه ولاننسى أنهم هم الذين طالبوا بتعيينه أميراً عليهم لما كان عليه من كريم الخصال ، كتب صاحب البريد الى الخليفة الرشيد بمشاكل افريقية زمن محمد بن مقاتل العكي ، فاستشار الخليفة هارون الرشيد هرثمة بن أعين قائلاً : (أنت قريب عهد) فقال له : (ياأمير المؤمنين ، قد سألتني في مقدمي منها عن طاعة أهلها واخبرتك انه ليس بها أحد أفضل طاعة ولا أبعدصيتاً ولا أرضى عند الناس من ابراهيم . ثم صدق قولي قيامه بطاعتك) .فقال أصبت وأرجو أن أكون قد رميتها بحجرها) [٢].

كما كان لسياسة بعض أمراء الأغالبة مثل الأغلب بن ابراهيم المتمثلة في التوسعة على الرعية بالمال لاسيما العمال والجنود أثر في تأليف القلوب . فلم يشهد عصره (٢٢٣-٢٢٦هـ) ايه انتفاضة على الاطلاق . في حين نرى عكس ذلك في سياسة أخيه عبد الله بن ابراهيم حين تشدد في الجباية فجعلها نصاباً مفروضاً أصابت الأرض أم لم تصب فكرهته العامه وسخطت عليه [٣].

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ .ص ١١٦

(٢) الرقيق القيرواني : نفس المصدر . ص٢٢٠ - وقارن ذلك بما ذكره النويري : نهاية الأرب جـ٢٤ .ص١٠١

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ .ص ١٣٩ - ابن الأبار : نفس المصدر . جـ١ .ص١٦٨

كما لا يمكن أن نغفل أثر الصدقات التي كان يقدمها الأمراء في المناسبات وأثناء زيارتهم البيمارستان للضعفاء من ذوى الحاجه والمساكين [١]. فكل ذلك يؤدي الى كسب رضا العامه .

أيضاً لاننسى جلسات الأمراء لسماع شكوى الرعية . فهذا الأمير ابراهيم الثاني يعقد أسبوعياً مجلسا لسماع شكوى رعاياه بنفسه وذلك بالمسجد الجامع بالقيروان ، يجلس فيه بعد صلاة الجمعه وينادي مناديه (من له مظلمه) [٢].

هذه السياسة الطيبه من الحكام للمحكومين تجعل المرء يدرك أن الحاكم كان يضع في حسبانه ذات المحكومين ويتطلع الى ارضائهم ويرغب في مسرتهم ويحرص على راحتهم فلا يكون هناك تذمر ولا ضجر ولا ثورة ولا اضطراب فيهنأ الحاكم والمحكومين على حد سواء .

ولهذا لم يعمد الشعب الخروج عن دائرة الأغالبة في حاله فقدان الكفء المرشح للأماره ، كما حدث أثناء ولاية ابراهيم بن أحمد [٣]. بل نجد الثائر في عهد الأمير زيادة الله عامر بن نافع يوصي أولاده بحسن الصله مع الامير زيادة الله مع ما كان بينهم لثقته بصلاحية واخلاص تلك الأسرة لتسييس أمر افريقية ، وقد نقل عنه النويري قوله: (يابني ما رأيت في الخلاف خيراً ، فاذا أنا مت ودفنتموني فلا تعرجوا على شيء حتى تلحقوا بزيادة الله فهو من أهل بيت عفو وأرجو أن يسركم ويقبلكم أحسن قبول) [٤].

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات القسم الأول . ص٧٢

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ٢٤.ص ١٣٩

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١.ص ١٥٤ - النويري : نفس المصدر . جـ٢٤ .ص ١٢٧

(٤) النويري : نفس المصدر . جـ٢٤ .ص ١١٤

كما لابد أن نلقي الضوء على المستوى الثقافي لفئة الحكام ؟ فعند استقرائنا لتراجم أمراء الدولة الأغلبية نجد اختلافا بين أفراد الطبقة الحاكمة في الثقافة والتعليم فنرى المؤرخين يثنون على ابراهيم بن الأغلب بقولهم : (وكان ابراهيم بن الأغلب فقيهاً أديباً شاعراً خطيباً ذا رأي ونجده وبأس وحزم ... وكان ابراهيم قد سمع من الليث بن سعد)[١]. ونراهم يقولون في زيادة الله :" وكان من أفصح أهل بيته لساناً وأكثرهم بياناً وكان يعرب كلامه ولا يلحن من غير تشادق ولاتلحين) [٢].

وفي محمد بن الأغلب يقولون : (وكان أجهل الناس) [٣]. وفي أحمد بن محمد يقال : (أنه ذو دين)[٤]. وقد وصف زيادة الله الثاني بأنه عالم [٥] كما أن عبد الله بن عباس بن ابراهيم كان يدرس علم المناظرة والجدل على أحد أساتذة ذلك العلم وهو عبد الله بن الأشبح [٦]. كما عرف عن ابراهيم الثاني ولعله الشديد بالعلوم الرياضية والحكمة والفلسفة دفعه الى انشاء بيت الحكمه واستقدام المعلمين والاطباء والمهندسين من المشرق الاسلامي [٧].

هذه اللمحات البسيطه التي يشير اليها المؤرخين عن ثقافة وتعليم امراء الدولة تبين أن أمراء بني الأغلب قد أخذوا بقسط من علوم عصرهم وأنهم شجعوا وناصروا الحركة العلمية حتى أضحت القيروان في أرقى المستويات الفكرية في العالم الاسلامي وقتذاك ، في حين كان القليل منهم لايحب العلم ولم يتزود من مناهله

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١ .ص ١١٦- ابن الأبار : نفس المصدر جـ١ .ص٩٣

(٢)النويري : نفس المصدر .جـ٢٤ .ص ١١٥ - ابن الأبار : نفس المصدر . جـ ١ .ص ٢٦٣

(٣) النويري : نفس المصدر جـ٢٤ .ص١١٨(٢) ابن عذاري : نفس المصدر جـ١ .ص ١٤٠ (وكان محمد هذا قليل العلم)

(٤) النويري : نفس المصدر .جـ٢٤ .ص ١٢٤(٢) ابن عذاري : نفس المصدر .جـ١ .ص ١٤٧

(٥) النويري : نفس المصدر . جـ٢٤ . ص ١٢٥

(٦)النويري : نفس المصدر . جـ٢٤ . ص ١٤٤

(٧)حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ١ . ص ١٩٣

ولذلك كان الى الجهل أقرب

واذا كانت الصورة التي تبدو للناظر عن الحياة الاجتماعية لأمراء الأغالبة أنها صورة يشوبها نوع من التحرر وعدم الالتزام بتعاليم الاسلام وتنم عن بذخ ولهو فمن الانصاف ان نقول أنها صورة فرديةلا يمكن أن تصبغ كل الامراء بتلك الصبغه . فلم يكن شرب الخمر عندهم جهرا بل كان من الامراء من يحرص أن تظل سيرته عند العامة طاهره نقية لا يعتريها شك في حسن خلقه وبعده وتجنبه لما حرم الله كما رأينا ذلك في ابراهيم بن الأغلب . بل نجد الأمير عبد الله بن أحمد بن ابراهيم يسجن ابنه زيادة الله الثالث ليمنعه من تناول المسكر (١) . وهذا يجعلنا نؤكد على رغبة بعضهم في نهج السلوك الاسلامي القويم تقية من الله تعالى .

وقد أثرت الحياه الاجتماعية لفئة الامراء على الطرق المعيشية عند العامه الذين حاولوا تقليدها في حياتهم في انشاء القصور والاكثار من الخدم وعلى حد تعبير الحبيب الجنحاني :(حسب امكانياتها المحدوده وعلى طريقتها الخاصة)(٢) .

كما أن السياسة الجبائية المتشددة لم تكن سمة عامة لكافة أفراد البيت الحاكم بل كانت أعمالاً فردية تتغير بعد موت محدثها . فقد ألغى الامير الأغلب بن ابراهيم ما أحدثه عبد الله في أمر الجباية (٣) . وقد أدرك الأمير ابراهيم بن أحمد الأثر السيء لسياسة التعسف والتشدد الجبائي بعد دخول أبي عبدالله الشيعي والتفاف كتامه حوله ومناصرتها له فأعلن التوبه وردالمظالم وأخذ العشر طعاماً وترك لأهل البساتين خراج سنة أطلق عليها سنه العدل (٤) . رغبة منه في تحسين علاقته بالعامه .

---

(١) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ،ص ٥٣- المالكي : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ١٥٢

(٢) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية ،ص ١٥١

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ ،ص١٣٩

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ ،ص١٧٧

هذا ولم تكن ظاهرة الثراء التي وضحت تماماً في عهد الأغالبة وبدت آثارها على حياتهم الخاصة وعلى ما أحدثوه في أفريقية من مرافق مختلفة وتنظيمات متعددة بسبب سياسة التشدد الجبائي . لا بل ان ظاهرة الثراء ملموسة منذ عهد الفتح حيث غنم الفاتحون كثيرا من الذهب وحملوه الى المشرق وقد حمل حسان بن النعمان ثمانية ألف دينار الى الخليفة عبد الملك بن مروان [١]. انما مرجع ظاهرة الثراء الى النشاط الاقتصادي الذي حفلت به افريقية زمن حكم الأغالبة ، كما أدى فتح صقلية الى كثرة الأموال وكانت الغنائم تفوق حد الوصف وفي هذا الصدد يقول النويري على سبيل المثال (وأصاب القائد الأغلبي أحمد بن الأغلب من الغنائم مالم يوجد في مدينه من مدائن الشرك)[٢] ، وكان هذا يوم فتح سرقوسه سنة (٢٦٤هـ) . وقد بدت صورة الثراء واضحه في قصور رقاده التي تزاحم عليها الناس بعد رحيل زيادة الله أخر أمراء الأغالبة ومن معه وقد حملوا ما حملوا (وأصبح الناس من ليلة خروج زيادة الله هرباً الى مدينة رقاده فانتهبوها وأخذوا من بقايا أموال بني الأغلب وصنوف الأنيه من الذهب والفضه ما لا يحيط به وصف ، وراح القوي يأخذ من الضعيف ما سبقه اليه)[٣].

وأخيراً فأن فئة الأمراء في دولة الأغالبة يمكن اعتبارها كصورة لأي مجتمع أخر من الأمراء في أي دوله لها وعليها ، ولا يمكن بحال من الاحوال اغفال أثرها الحسن على بلاد المغرب بأقرار الأمن والمحافظة على الاسلام السني الصحيح فيه ، بل لها فضل كبير في زيادة رقعة الدوله الاسلامية بما أنجزته من فتوحات أسهمت في انتشار

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ .ص ٣٨

(٢) نهاية الإرب . جـ٢٤ .ص ١٢٨

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ١ .ص ٢٠١

الاسلام في جزر البحر المتوسط وجنوب أوروبا وهو فضل له ما بعده ويعتبر من مفاخر دولتهم [١].

ثانياً : فئة العلماء :

كانت فئة العلماء في دولة الأغالبه لاسيما الفقهاء منهم العصب الثاني في الحياه الاجتماعية والسياسية في المجتمع القيرواني ، وقد استمدوا سلطانهم من الدين أولاً ثم من الرعية ثانياً حيث كان ينظر العامه اليهم نظرة اجلال وتقدير وكونوا قوة لا تضاهي مع مرور الزمن . وكانت نواة هذه الطائفةالفقها العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الى افريقية سنة (١٠٠هـ) ويبدو أنه منذ هذا التاريخ بدأت أهميتهم تظهر في المجتمع القيرواني . وكان صنيع الخليفة عمر بن عبد العزيز ذلك ركيزة قوية في أنشاء المجتمع الايماني الواعي في بلاد المغرب [٢].

وقد أدى العلماء والفقهاء دورهم الديني والتربوي خير قيام أضحت القيروان بفضل جهود أولئك وطلبة العلم ومن وفد بعدهم مدرسة ذاع صيتها في الأمصار ومحط أنظار الراغبين في التحصيل العلمي من المغرب والأندلس [٣].

كما كان لهم دور بارز في السياسه أثناء ثورة الخوارج في عهد الوالي حنظلة بن صفوان سنة (١٢٤هـ) الأمر الذي يجعلنا نؤكد على أهمية طبقة العلماء منذ مبدأ تكوينها في المجتمع القيرواني ، ولولا ذاك لما طلب الوالي منهم ان يوجهوا رسالة

---

(١) عثمان الكعاك : نفس المرجع . ص ١٧

(٢) أفراد البعثة التعليمية أوردهم المالكي : رياض النفوس جـ ١.ص ٦٤-٦٩-٧٠-٧٢-٧٣-٧٥-٧٦ وهم (حبان ابي جبله اسماعيل بن عبيد الله الأنصاري – طلق بن حابان – بكر بن سواده – عبدالرحمن بن رافع – عبد الله بن يزيد الحبلي – سعيد بن مسعود التجيني – جعثل بن عاهان – اسماعيل بن عبيد الأعور).

(٣) محمد العروسي المطوي : سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية . ص ٢١

الى الخارجين .يدعونهم فيه الى الطاعة والجماعه [١]. وطبقة العلماء هذه كانت ايضاً طبقة كادحة فلم تقتصر على طلب العلم وتعليمه خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة فقد كان منهم التاجر والفلاح ، لذا نجدهم في المواسم يغادرون المدينه الى أراضيهم للقيام بالحرث والحصاد فيها . وقد أنكر أسد ابن الفرات على طالب علم له يترك حانوته أياما ليطلب العلم [٢].

ولقد تعلقت العامه بهذه الطبقة تعلقاً كبيرا ، ولعل مرد ذلك راجع الى أن هذه الطبقة كانت لاتهاب سطوة الحكام ، وكان العامه يدركون ذلك تماماً لذا كانوا يرجعون اليهم في كل نازله جاءت من الحكام فيقوم أولئك بدور الردع والتأديب للسلطان الجائر ، كما حدث في أسرى الحرائر من الجزيرة حيث أمر الأمير محمد بن الاغلب بسبيهن ، فأرسل القاضي سحنون بن سعيد لمن بيده الأسرى مائة رجل تقريباً وطلب منهم احضار الحرائر اليه مع التنبيه عليهم بعدم سفك الدماء والملاطفة قدر الامكان ، وكان له ماأراد . فلما علم بالخبر ابن الأغلب أرسل الى القاضي سحنون يطلب منه تسليم المسبيات فرفض سحنون ذلك وأرسل ابنه محمد مع سجله الى الأمير الأغلبي يرفض تولي القضاء ان أصر الامير على أخذ الحرائر ، لكن الأمير عاد الى رشده وشكر لسحنون حسن عمله فلما قدمت العامه على سحنون لتقديم الشكر له . طلب منهم أن يذهبوا الى الأمير لشكره لما قام به من تأييد الحق [٣] فكانت هيبة السلطان مفقودة عند العلماء الأجلاء وبها تمكنوا من احقاق الحق لا يخافون لومة لائم وقد عبر عنها الأمير محمد بن الأغلب ممثله في شخص سحنون بقوله:(ان سحنون لم يركب لنا دابة

---

(١) انظر نص الرسالة في رياض النفوس للمالكي . جـ ١ .ص ٦٧

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٨٥

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ١١٤

ولا ثقل كمه بصره ولا أخذ منا رزقا ولا تعرض الينا في مسألة حاجة فلم يخافنا) [١].والحقيقة أن العالم الصادق المخلص وان كان موظفاً في الدوله الا أنه لن يتورع من الردع والأمر بالمعروف لأنه يعلم أن مناط الأرزاق بيد الله وحده والآجال بيده وكل أمر له سبحانه،فلم الخوف أو الجزع من سلطان ليس بيده تقديم نفع أو دفع ضرر .

كما كان تأثير الفقهاء على العامه من الناس كثيرا جدا ، وقد أدرك ذلك الخارجين عن سلطه الامارة الأغلبية . ويبدو ذلك بوضوح أثناء ثورة عمران بن مجالد على الأمير ابراهيم بن الاغلب سنة (١٩٤هـ) حيث طلب ذلك الخارج من الفقيه أسد بن الفرات أن يسانده في ثورته فرفض فهدده بأن يبعث اليه من يجره من قدميه . فقال أسد لرسول عمران : (للئن أخرجتني لأنادين القاتل والمقتول في النار) [٢] . فلما سمع عمران ذلك تركه لأن قوله ذلك يعني أن الثورة في غير حق وأن الشريك فيها ذاك مصيره فتنفر العامه وينفض عنه الأتباع في حين كان هدفه من ضم القاضي أسد اليه اضفاء نوع من الشرعية على ثورته من ناحية ، وكسب عناصر جديدة من ناحية ثانية . كما يدل موقف القاضي أسد بن الفرات ذلك على نصره الأمير الأغلبي ضد أصحاب الأهواء والخارجين على النظام الحاكم [٣] .

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ١١٢

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ٦٨

(٣) كان العلماء أعلم الناس بخطورة الخروج على الامام وكان لهم في الشرع الله الهدى والبرهان فلم يكن يخفى عليهم حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي رواه عوف بن مالك وفيه قال عليه الصلاة والسلام " خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنوهم " قيل : يارسول الله أفلا ننابزهم بالسيوف ؟ فقال : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، واذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه ، فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يدا من طاعة " (الحافظ المنذري : مختصر صحيح مسلم . ص ٣٢٣)

لكن هذه المنزله التي وصل اليها الفقهاء عند العامه كان لها آثار سلبية في نفوس بعض أمراء الأغالبه الأمر الذي كان يدفعهم الى مداراة هذه الفيئة مع ابطان شيء أخر حتى يكسبوا تأييد الجماهير (١).

كما كان الفقهاء يقومون بدور الرقيب على الأمراء فاذا ما صدرت عنهم أحكام لا توافق الشرع وفيها اجحاف وجور ألبوا العامة على مناهضتها والثوره على السياسة المالية سنة (٢٠١هـ) في عهد الأمير عبد الله بن ابراهيم خير شاهد على ذلك حيث حرض الفقهاء العامه على رفض تلك السياسة الماليه وأطلقوا عليها المغارم، اذ فرضت ثمانيه دنانير على كل زوج تحرث من البقر بدلا من الضريبه المعروفه وهي العشر على ما تنتجه الأرض ، كما قام وفد منهم بمقابلة الأمير على رأسه الفقيه حفص بن عمر الجزري (٢) كما أسلفنا القول (٣) .

وكان الفقهاء يعيشون حياتهم بين العامه ويقومون بواجبهم في الارشاد والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لذا ما كانت تعوزهم المناصب للقيام بتلك المهمه التي نذروا أنفسهم لها حتى أنهم كانوا يرفضون الرتب الرسمية خشية أن يؤثر عليهم ذوي السلطان وهذا سحنون لم يقبل القضاء الا بعد عام من طلب الأمير محمد بن الأغلب ومراجعته له وقال لابنته يوم تولى القضاء : (اليوم ذبح أبوك بغير سكين)(٤) . فأي زهد وأي علم وأي فقه بعد هذا فالعالم الذي يبغي بعلمه وجه الله لا يطلب منصباً ويرى نفسه أقل من ذلك ، فقد رد سحنون بن سعيد على الامير

---

(١) السيد محمد العزم داود : نفس المصدر . ص ١٤٩

(٢) حفص بن عمر الجزري : كان رجلا فاضلا زاهدا وربما ظهرت له وكرامات عاصر دولة الاغالبة في بداية امارتهم (المالكي : رياض النفوس جـ ١ . ص ١٣٨)

(٣) أنظر أحداث المقابلة مع الأمير عبد الله في الفصل الأول ص٤٥

(٤) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ٩٩

محمد بن الاغلب حين ولاه القضاء بقوله : (أصلح الله الأمير لا أقوى عليه) ولم يرضى بذلك المنصب الا بعد أن حلف عليه الأمير الأيمان وقبل شروطه باقامة العدل ولو على أقرب الناس اليه وأخذ على ذلك المواثيق وعهد الله [١] . وكان العلماء في تشددهم مع الأمير لا يرجون منزله ولا بلوغ شأن عند أحد من الناس بل كانوا يقومون بذلك خشية من الله واحتسابا للأجر من عنده ، وقد أدرك الأمراء الأغالبة ذلك لذا نجدهم يتغاضون عند شدتهم في كثير من الاحيان . فقد قال سحنون للرسول الذي قدم عليه من الأمير محمد بن الاغلب يسأله أن يتغاضى على تصرفات أحد أعوان الأمير قال له سحنون صراحة : (ليس هذا الذي بيني وبينه وقل له : خذلتني خذلك الله : فقال الأمير لرسوله : (ما نعمل به ؟ انما أراد الله) . وفي هذا القول من الأمير شعور بأمانة العطاء من قبل العلماء الى جانب معرفة الأمير أن هذا الذي قيل حق ويقين لا يحتاج الى جدال فليس بعد الحق الا الضلال وهذا ما لا يرضى به رجل مثل سحنون وغيره من العلماء الأفاضل .

وقد ساهمت طائفة الفقهاء في الفتوحات فأسد بن الفرات كان قائد المسلمين لفتح صقلية سنة (٢١٢هـ) ، كما رابط عدد كبير من علماء القيروان في الرباطات التي أنشأها الأغالبة لحماية الدولة الاسلامية مثل عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي المتوفي سنة (٢٤٧هـ) [٢] .

ولم يغفل الفقهاء أثر النظافة وصحة البيئة على الانسان ، فقد حرصوا على ذلك ورأوا من واجبهم الأخذ بالأسباب لضمان سلامة المجتمع من الأمراض فنجد سحنون

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ ص ٢٧٩

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ١٥٨

يأمر أعوانه بقتل الكلاب وتسديد الحراب لها للقضاء عليها لمنع انتشار داء الكلب[١] .

ولابد من القول أن العلماء ساهموا في عملية النضج الفكري في هذه الفترة بشكل كبير حيث كثرت حلقات العلم في المساجد ولم تكن قاصرة على الدراسات الشرعية والعقائدية ، ولم يكن العلماء فقهاء فقط وانما كان لبعضهم دراسات في النحو والشعر والخطابه والكتابه ، فمن الذين برعوا في النحو أبواليد المهري ، وأبو عبد الله بن اسماعيل الذي كان له مكتب بالقيروان يعقد فيه ندوات في دروس النحو يقبل عليها الراغبون في مثل هذه الدراسة [٢] . وكانت عملية التدريس في المساجد مهمة يضطلع بها العلماء دون أجر ، ولذلك يذكر أن علماء القيروان بصفة عامة - عدا الآحاد منهم ، كابن غانم متوسطي الحال [٣] . ونستطيع القول أن هناك سمات عامة لطائفة العلماء في العصر الأغلبي . وهي :

أولاً : لزوم طائفة من أهل العلم الثغور والمرابطة فيها وحراسة البلاد من غارات البيزنطيين وغيرهم [٤] .

ثانياً : أن طائفة العلماء لقيت على أيدي السلطة العديد من الابتلاءات فكانوا أمامها كالجبال الراسيات لا يؤثر فيها شيء مطلقاً وما محنه الامام سحنون وعبد الله ابن طالب الاغيض من فيض [٥] .

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدراك وتقريب المسالك . جـ ٤ . ص ٦١ ، وأنظر محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الاسلامية .ص ٢٦٣

(٢) حول هذا الموضوع أنظر الفصل الثالث الحياة العلمية ص١٦١

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٧٠

(٤) محمد ابو العزم داود : نفس المرجع . ص ٣٣٢

(٥) أنظر عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بافريقية . ص ١٩٠ - ١٩٧

ثالثاً : ان طائفة العلماء كان لها وزن عند الأمراء ، وكانت طائفة الأمراء تهابها رغم سلطانها وقوتها اذ هي في الحقيقة مهابه للحق الذي يضعف فيه الجبار مهما طغى وتجبر وعلا وفي هذا يقول الأمير ابراهيم بن أحمد (على بابي رجلان ما رأت عيني مثلهما أحدهما يخاف الله ولا يخافني والثاني يخافني ولا يخاف الله فأما الذي يخاف الله ولا يخافني فهو ابن طالب والثاني فلان فذاك عظيم الحرمة عندي وهذا الذي يخافني هين عندي) (١) .

هذا وقد أدى هؤلاء العلماء دورا محموداً في بقاء افريقية على المذهب السني الصحيح بعد أن آلت الى حكم الشيعة العبيديين فقد منعوهم من التدريس في المساجد غير أن هذا لم يمنعهم من مواصلة دورهم في تفقيه الناس خفية في البيوت ودكاكين الحرف (٢) .

ثالثاً : فئة الجند :

كان الجند العرب الذين جاؤا الى أفريقية تحت امرة عقبة بن نافع الفهرى هم الذين استقروا في مدينة القيروان بعد تأسيس عقبة بن نافع لها واتخاذها دارا للأمارة . وكان عدد هؤلاء الجند يتزايد تدريجياً بدخول جيوش المشرق أثناء الفتن والثورات التى مرت بولاية افريقية . وكان الجند في بداية الأمر - أي في العصر الأموي . من العرب اليمنية والقيسية ثم البربر بعد دخولهم في الاسلام ، ولما استعمل العباسيون في زمنهم العنصر الخراساني في الجيش كان هذا العنصر ضمن الجند الذين أرسلهم الخلفاء العباسيون في الحملات التي صاحبت ولاتهم لاخضاع الفتن والثورات في بلاد

---

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ١٣٥

(٢) عبد العزيز المجنوب : نفس المرجع .ص ٢١٣

المغرب كما أسلفنا القول آنفا . وكانت هذه الأعداد التي وصلت القيروان تمثل الجيش النظامي للولاية . ونظراً لكثرة الثورات ضد السلطة الحاكمة في القيروان منذ عهد الوالي محمد بن الأشعث سنة (١٤٤هـ) فاننا لانعرف عن أحوال هؤلاء الجند سوى اشتراكهم في هذه الثورة أو تلك ، وفي عهد الأغالبة استعمل الأمير ابراهيم بن الأغلب . كما سبق أن ذكرت (١) . الجند من السودان حيث اشترى خمسة الاف رجل اتخذهم حرساً خاصاً له وجنداً في جيشه كما استخدم بعضهم في الصناعة . كما استقدم الأغالبة جنداً من الرقيق الأبيض من أوروبا (٢) .

ويذكر أحد المؤرخين الجيش في العهد الاسلامي حتى العصر الأغلبي بقوله : (ان الجيش انتابته تغيرات عديده على عهد الأغالبة ففي الأصل كان الجيش يتألف من كتائب من الجند العربي ثم سرعان ما حلت جيوش من السودان متآلفة من العبيد مكان الجند الأول ثم جنود الصقالبة الذين كانوا في الأغلب من لمبرديا (ايطاليا) كانوا يشترونهم من تجار نابلي والبندقية وبذلك نقص دور الجند العربي خاصة بعد الثورة التي زعزعت أركان عرش زيادة الله الأول ونلاحظ أيضاً نفس التطور في صلب القيادة فكان الميل الى اختيار القواد الكبار من بين الأمراء الأغالبة ومن أحلاف الدولة) (٣) .

ولعل السبب الذي حدا بالاغالبة الى استخدام جندا آخرين غير الجند السابقين من العرب والبربر والخراسانيين ، أن هؤلاء الجند أصبحوا في عصر الولاة العباسيين

---

(١) أنظر الفصل الاول من البحث .

(٢) عثمان الكعاك : نفس المرجع .ص ٢٤

(3)HICham Djait . Farhat Dachraoui : Histaire De La Tunisie . Le moyen Age , P-149

مصدر الفتن والأضطرابات التي كانت تحدث في بلاد المغرب من حين لآخر ، وقد فطن الامير ابراهيم لهذا الامر منذ بداية تسلمه زمام الأمور في القيروان . فلا بد أنه لم ينس قط أن والده كان ضحية تلك الثورات المتكرره (١) لذا شعر بخطرهم ورأى ضرورة استخدام الحيطة (٢) . ولا حرج في ذلك اذ الجند هم عصب الأمن في الدولة فولاؤهم واخلاصهم سبب من أسباب استقرارها الأمني كما هو سبب قوتها وعظمتها . لكن ذلك لم يمنع الأمير ابراهيم من ضم بعض الجند السابقين الى جنده الجدد ولابد انه تخيرهم ممن يثق بهم ثقة كبيرة (٣) .

ولابد من معرفة الاسباب الحقيقة الكامنه وراء ثورات الجند المتكررة والتي بدأت ملحمتها منذ عهد الوالى محمد بن الأشعث سنة (١٤٤هـ) اذ لم تكن لهم قبل ذلك التاريخ أي حركة ثورية على الاطلاق . فلم نشاهد في عصر الولاة الامويين رغم دخول أعداد كبيرة من الجند الى افريقية عصيانا أو تمرد على هذا النمط الذي حدث منذ سنة (١٤٤هـ) من قبل الجند .

أولاً : قيام الدويلات المستقلة :

نستطيع القول أن نشأة الدويلات المنفصلة عن القيروان في بلاد المغرب حيث نشأت سنة (١٤٠هـ) أول دولة مستقلة هي الدولة المدرارية في سجلماسة كان حافزا قويا دفع كل صاحب سلطان وقوة أن يعلن الثورة وينشىء له كياناً على المنهج الذي يريد . صحيح أن سلطان الخلافة منذ سنة (١٢٣هـ) أي بعد معركة وادي سبو - بقيادة كلثوم بن عياض القشيري قائد جيش الخلافة الذي خرج لردع تمرد الخوارج

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ٨٧

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية . ص ٣١

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع ص ١١٠

الصفرية - لم يتعدى حدود افريقية وان منطقتي المغرب الاقصى والاوسط قد اصبحت في يد الخوارج الصفرية [(١)]. غير أن انشاء دول لها كيان مستقل وادارة منفصلة لم يتم الا في سنة (١٤٠هـ) . ولهذا نجد ثورات الجند تحدث بعد عام سنة (١٤٠هـ) الذي يمكن اعتباره نقطة تحول في وضع بلاد المغرب السياسي اذ به يبدأ قيام الدويلات المستقلة .

ومما يدعم صدق القول أن حركات الجند وجدت في قيام الدويلات المستقلة حافزا أن الثوار من الجند كانوا دوما يسددون ضرباتهم الى السلطة في القيروان وكان الوالي اما يطرد الى المشرق كما حدث لابن الأشعث ، واما يقتل كما انتهى اليه مصير الأغلب بن سالم (٢). بل نجد الجند في عهد الأغالبة أكثر جرأة من ذلك اذ كانوا يتحدثون من مصدر قوة لا يضاهي وأبرز مثال على ذلك أنهم كتبوا الى زيادة الله أن ارحل من أفريقية ولك الامان في نفسك ومالك (٣) .

والحقيقة هذا التطاول لا يتأتى الا لهدف واحد لاغير وهو اقصاء السلطة الحاكمة والتسلط على زمام الامور بعدها ، وفي هذا أكبر دليل على تأسيهم بالدويلات المستقلة التي قامت ولم تجد من يعارضها في تلك البقعة البعيدة عن مركز الخلافة . لكن الثوار نسوا أن القيروان بالنسبة للخلافة كانت تمثل عصباً قوياً في كيان الدولة الاسلامية ، وأن الخلفاء لا يتورعون عن تقديم المساعدات المتنوعة للحفاظ عليها واستمراريتها جزءا من كيان دولتهم . وقد رأينا الخليفة في بغداد لم يتأخر على الأمير ابراهيم الأول زمن ثورة عمران بن مجالد في ارسال الأموال فكان ذلك عاملاً

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ٦١

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ٨٥ - ٨٧ - النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ٧٦ - ٧٨

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٣٠

قوياً في القضاء على الثورة أدى بالجند الى التخلي عن صاحبهم زعيم الثورة [(١)] .

ثانياً : - كان لسوء معاملة بعض الأمراء من الأغالبة للجند من أكبر العوامل الكامنه وراء ثوراتهم وخير شاهد على ذلك ثورة الجند في عهد زيادة الله . يقول النويري في هذا الصدد " ولما ولي زيادة الله أغلظ على الجند وأمعن في سفك دمائهم واستخف بهم ، وحمله على ذلك سوء ظنه بهم لثورتهم على الأمراء قبله وخلافهم على أبيه مع عمران بن مجالد ، وكان أبوه أغضى عن كثير من زلآتهم وصفح عن اسأتهم فسلك زيادة الله فيهم غير سبيل أبيه " (٢) .

هذا النص يبين سياستين مختلفتين من حاكمين لفئة بعينها فالجند هم الجند في عهد ابراهيم الأول وعهد زيادة الله الأول ، نعم اندلعت لهم ثورة في عهد الأمير ابراهيم الأول بقيادة عمران بن مجالد لكن بمقارنتها بثورة الجند بقيادة منصور الطنبذي في عهد زيادة الله نجد أمرا جللا قد حدث ، ذلك أن سوء سياسة زيادة الله ضد الجند قد ألبت الرأي العام للرعية عليه الأمر الذي دفعهم للأنضمام مع الثائر " وأخذ منصور في اصلاح سور القيروان ، فولاه أهل القيروان وحاربوا معه فدامت الحرب بين منصور وبين عسكر زيادة الله على القيروان أربعين يوماً (٣) . في حين لم يكن للرعية أدنى تأييد لحركة عمران بن مجالد . وتتضح أثر سياسة اللين مع الجند في عهد الامير أبو عقال الاغلب بن ابراهيم فلم تقم لهم قائمة بفضل تلك السياسة (٤) .

ثالثاً : يعزي محمود اسماعيل عبد الرازق أسباب ثورات الجند الى الصراع بين الجند العرب والجند الخراسانيين ، ويذكر أنه بعد عزل محمد بن الأشعث عين عيسى بن

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١٠٨

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١٠٨

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ١٢٩

(٤) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ ص ١١٧

موسى الخراساني والياً على القيروان (١). وقد حكمها مدة ثلاثة أشهر كما يذكر ذلك ابن عذاري (٢) .

رابعاً : - كان تأخر أعطيات الجند ونقصها يؤدي الى ثورتهم ، وقد حدث ذلك في عهد محمد بن مقاتل العكي " ولم يكن بالمحمود السيرة ، فاضطربت عليه أحواله واختلف جنده وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند " (٣) .

وهذا ويمكن تقسيم طبقة الجند الى عدة أقسام ، فهناك القادة الذين يمكن اعتبارهم من الطبقة الخاصة حيث حظوا بامتيازات كبيرة من قبل الأمير وكانوا من علية القوم مثل حمزة السبال أحد القواد الشجعان الذي كانت له منزله عاليه عند الامير ابراهيم بن الاغلب (٤) . وسفيان بن سوادة قائد الظفر في محنة زيادة الله الأول (٥). ومحمد بن عبد الله بن الأغلب من أفراد البيت الحاكم والعباس بن فضل قائد المسلمين في صقلية سنة (٢٣٩هـ) والذي أحرز انتصارات في قصريانه (٦) . وقطانيه (٧) وسرقوسه (٨) . وغيرهم من الذين قادوا الثورات ضد سلطة الاغالبة كعمران بن

---

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق :الأغالبة وسياسة الخارجية .ص ١٣

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١١٥

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ٩٦- ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١١١

(٤) ابن الابار : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٠٧

(٥) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص١٣٠

(٦) قصر يانه : مدينه كبيرة في جزيرة صقلية على سن جبل وهي غنية بالمحاصيل الزراعية (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٤ .ص ٣٦٥)

(٧) قطانيه : مدينه كبيرة في جزيرة صقلية في شرقيها مقبرة لعدد من شهداء الفتح الاسلامي وبين قطانية وقصريانه مقبرة القاضي أسد بن الفرات (ياقوت الحموي :معجم البلدان .جـ ٤ .ص ٣٧٠)

(٨) سرقوسه : أكبر مدينه بجزيرة صقلية وتعتبر عاصمة الجزيرة وكان بها سرير ملك الروم (ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٣ .ص ٢١٤)

مجالد ، وعامر بن المعمر التميمي ، ومنصور الطنبذي (١) .

أيضـاً هناك الجند النظامي الذي هوعـصب الجـيش في الدولة وهؤلاء هم الذين تُسجل أسماؤهم في الديوان ليقبضوا أرزاقهم من بيت مال المسلمين بالإضافة الى الأعطيات المقررة لهم نظاماً ، ويبدو أن هذه الفئة لم تكن لها حرفة أخرى ترتزق منها لذا نجدها تجنح الى الثورة عند تأخر العطاء عنها . أو خفضه (٢) . وهذا يعطينا فكرة أن عطاء الجندي كان مقداره ثابتاً حتى في أشد الظروف التي تمر بها الدولة .

كذلك كان هناك الجند المتطوع الذي يلحق بالعمليات العسكريه الجهادية ابتغاء نيل الثواب من الله تعالى وكانوا محترفين لفنون القتال (٣) . فقد شارك الفقيه القاضي أسد بن الفرات في فتح صقلية سنة (٢١٢هـ) وكان لصيحة أسد في الناس للجهاد أن دفعت الناس الى الانضمام اليه والخروج معه حتى خرج معه كما يقول ابن عذاري " أشراف افريقية من العرب والجند والبربر والاندلسيين وأهل العلم والبصائر وذلك في حفل عظيم وعدة جليلة " (٤) .

ويمكن اعتبار الحرس الاميري الخاص من طائفة الجند وان كان لهم وضع خاص مغاير تماما فقد كان حرس السودان أو غيرهم يجلب الى افريقية صغيرا ثـم يربي في

---

(١) ابن الأبار : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٠٤ – ١٠٦ – النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ . ص ١٠٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ . ص ١١١

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٧١

(٤) البيان المغرب . جـ ١ .ص ١٣٢

القصر على عدة أمور ، اما للحراسة الخاصة ، واما لمهمة اعمال القصر واما لفنون القتال ، واما لأعمال أخرى كالحرف والصنائع وغيرها (١) .

وإذا كانت تلك طوائف الجند فمن الأولى أن نقف لنعرف مدى العلاقة التي تربط الجند بالسلطةمن جهة ، والعلاقة بين بعضهم البعض ، والعلاقة بين الجند والعامه من جهة أخرى . فمن الملاحظ أن العلاقة بين الجند والسلطة زمن الاغالبة قد بدأت من جانب الامير بالحيطة والحذر بسبب ما عرف عن هذه الفئة من الثورة والعصيان ، وأدى ذلك بالامير الى محاولة الاستغناء عنهم والاستعاضة بغيرهم لتجنب مشاكلهم ، فشعر الجند بمرارة الاقصاء . وكانت العباسية المقر الجديد للأمير الذي لم يسمح للجند الاول بالأنتقال اليه غير من كان يثق فيه كثيرا وقد زاد ذلك في اتساع الهوة بين الجند وحاكمهم (٢) . ولو حاولنا تقييم تصرف الامير في تلك الخطوة التي اتخذها تجاة الجند لوجدناها صائبة بناءً على معطيات سابقة في تاريخ تلك الطائفة . فحرصاً على انشاء امارة آمنه مستقرة منتعشة كان لابد للأمير أن يتصرف على ذلك النمط الحذر . ومع ذلك فأن الأمير مع استغنائه عنهم تدريجياً لم يتعرض لهم بأذى مطلقاً ولم يحاول استشارتهم بل كان يداريهم ويتغاضى عن زلآتهم (٣) . ولو كان الجند بشراً هادياً لا يحمل في نفسه كوامن ثوره وأحقاد لوجدناهم ينصاعون لأوامر الامارة الجديدة وينزلون على حكم سلطانها دونما نزاع وشقاق .

أما علاقة الجند مع بعضهم البعض فتربطها المصلحة قبل كل شيء .

فالخطوة التي اتخذها الأمير ابراهيم ضدهم من الإستغناء عن خدماتهم والحذر منهم قد أدت الي تعاضدهم وانضمامهم الى الثائر عمران بن مجالد زعيم الثورة ضد

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الثاني . ص ١١٨

(٢) محمد الطالبي : الدوله الأغلبيه .ص ١٦٧

(٣) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١٠٢

السلطة ، واستمر حالهم معه لمدة عام كامل تسرب اليهم خلالها الملل ، ولما لم يصلوا الى بغيهم من الانتصار وتبؤ المكانة التي كانوا يحلمون بها ويخططون لها في حالة نجاح الثورة ، اضافة الي ان الحاجة الي المال قد أصبحت ماسة جدا فأنهم لم يتورعوا - حسب ما تقتضيه المصلحة من ترك زعيم ثورتهم حين نادى منادي الأمير بالعطاء (فلما صار المال اليه - اي الي الأمير ابراهيم - تطلعت أنفس الجند الى أرزاقهم وهموا بأسلام عمران) [١] . وزيادة علي ذلك ما كان عند الأمير من أموال رجحت بها كفته وغيرت مجرى الأحداث أراد الأمير أن يبرز قواه العسكرية ايضاً فخرج بهيئة توحي للجميع قوة السلطة الحاكمة والتي لا يمكن ان تساويها طائفة ما مهما علا شأنها وعظم جمعها ،فيصبح عمران في نظر الجند ليس أكثر من ثائر يملك بعضاً من اسباب القوة وبذلك لا يكون للبقاء معه اي مبرر . يقول النويري " فركب ابراهيم في خيله ورجله وعبيده وعبأ عساكره تعبئة الحرب وتوجه الى القيروان حتى اذا قرب منها أمر مناديه فنادى (من كان له أسم في ديوان أمير المؤمنين فليتقدم يقبض عطاءه) [٢] . وهذه المصلحة للجند هي التي دفعت بجند منطقة الزاب للأنضمام الى عمران بن مجالد حين تأخرت أرزاقهم [٣] . لكن هل التعاضد بين طبقة الجند يوحي بوجود الثقة بين جميع افراد الجند ؟ الحقيقة لا ثقة بين الجميع مطلقاً ، فجند تونس صارحوا منصور الطنبذي بذلك بقولهم (نحن لا نثق بك) وطالبوه ليكون عند ثقتهم به أن يقتل بعضا من آل البيت الحاكم - بني الاغلب - فقالوا له ولا نأمن من أن يستنزلك السلطان بدنياه وماله فتميل له ولكن ان أحببت أن نقوم

---

(١) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١٠٤

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١٠٤

(٣) محمد الطالبي : الدوله الأغلبيه .ص١٦٨

بنصرك فاخصب يدك في دماء أصحاب السلطان وأهل بيته) [١] . فلما قتل منصور عامل تونس اسماعيل بن سفيان من الأغالبه وابنه محمد انضم اليه الجند وهم مطمئنين بأنه لن يخذلهم ولن يوقع بهم [٢] .

أما علاقة الجند بالطبقة العامة فتعوزنا المصادر كثيرا في هذا الصدد اللهم الا ما كان من انضمام أهالي القيروان الى الثائر منصور الطنبذي عندما دخل القيروان ، وان كنا لم نقف على الدوافع الحقيقية لانضمامهم . وقد تكون لقسوة زيادة الله على الجند واسرافه في سفك دمائهم ثم ما كان من قتل الأمير زيادة الله عمرو بن معاوية صاحب القصرين وولديه الذين لم يكن لهما ضلع في الثورة - وقد أوضحا للأمير ذلك ، بتلك الصورة البشعة المستهجنه [٣] . أثر في انضمام أهالي القيروان الى منصور . وقد يكون منصور ذاته أرغم الأهالي على الانضمام اليه وكيف للأهالي أن يرفضوا وقد دخل مدينتهم وتحصن بها وأصبح هو سيد الموقف [٤] .

وأخيرا فان طائفة الجند من طوائف المجتمع التي وجدت من يقدرها ويحترمها حتى أصبح لها مكانة مرموقة استغلتها فيما بعد غير أن من العجيب أن نجد من المؤرخين المحدثين من يناصر هذه الطائفة في ثورتهم بل ويدعي أن أصل ثورتهم الدكتاتورية التي انتهجها الأغالبة ضدهم لاسيما ضد الثوار من تونس ولذلك سموا تونس بمقبرة الأغالبة . وفي هذا الصدد يقولون ما نصه " وذلك هو العالم الاقتصادي والسياسي الذي نمت في ظله تونس في القرن التاسع الميلادي عالم يطفي عليه الشرق

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ .ص ١٢٧

(٢) النويري : نفس المصدر . جـ ٢٤ .ص ١١١

(٣) انظر تفاصيل هذا الموضوع في : النويري : نهاية الأرب . جـ٢٤ .ص ١٠٨ - ابن عذاري : البيان . جـ ١ .ص ١٢٥ - ١٢٦

(٤) أنظر تفاصيل هذه الثورة في الفصل الأول ص٤٦ .

والأيديولوجية العباسية ، عالم يسيطر فيه الاغالبة بالداخل كما بالخارج اما بالدبلوماسية أو بالقوة ، وفي ذلك العالم اختارت تونس المعارضة معارضة عنيفة لا تضاهيها الا شراسة القمع التي جوبهت به " (١) .

رابعاً :فئة التجار :

أصبحت القيروان مركز الثقل في المجال التجاري وحلقة وصل بين تجارة الشرق والغرب زمن الأغالبة وتكونت فيها اثر ذلك فئة التجار الكبار التي أصبح لها شأن كبير حتى أنها أصبحت تمثل أهم أركان الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب (٢) وقد تكونت في البداية من طبقة صغار الملاك وكان مقرهم ومركزهم الأسواق في المدن حتى اذا ما انتعشت الأمور الاقتصادية بزيادة الانتاج الزراعي والصناعي الذي عاشته القيروان زاد بذلك الثراء وفاضت بالتالي المنتوجات الزراعية والصناعيه ونشأت فكرة التجارة الخارجية حيث خرج التجار الى المشرق والسودان وأوروبا وغيرها (٣) .

وقد كان لذلك النشاط الخارجي أثره في العلاقات بين القيروان وصقلية والأندلس ومصر ، وأثره أيضاً في الحياة الاجتماعية في القيروان حيث استدعى الامر قدوم جاليات من تلك المناطق الى القيروان مهمتها انجاز الاعمال التجارية الخاصة بها(٤)

لذا أصبحت تلك الفئة من حيث المركز الاجتماعي تحتل منزله رفيعة بعد فئة

---

(1)J amila Bimous . F atme B eu Becln . Jalluh Abbelkajio : Tunis P14.

(٢) نجاة باشا : التجارة في المغرب الاسلامي .ص ٥٧

(٣) نجاة باشا : نفس المصدر . ص ٥٦

(٤) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٧٠

الحكام ، ويبدو أن ذلك ناتج عن الثراء العريض الذي تمتعت به والنظره الاجتماعيه التي أضحت لها (١) . وتذكر نجاة باشا أن فئة التجاربصفة عامة - كانت لها صلة قوية بالبلاط الحاكم حيث يحضرون مجالس الأمراء ويسمعون الاجراءات التي ستتخذها الدولة لاسيما المتعلقة منها بأمور التجارة التي تعنيهم ، فيقومون على أثرها باتخاذ ضمانات تحمي تجارتهم من الخسارة وتضمن بالتالي لهم الكسب كاستخدامهم الاحتكار مثلاً (٢) .

وواضح أن هذه الطبقة لم تكن من عنصر واحد وانما كانت تتكون من عناصر متعددة عربية وبربرية وأندلسية بل ومخالفة في العقيدة من اليهود والنصارى وقد جمعت الجميع مصلحة واحده وهي مصلحة الكسب المالي عن طريق التجارة ، وكان تعاضد هذه الفئة كبيرا الأمر الذي أصبح يمثل نوعا من الخطورة على كيان الدوله الحاكمه كما حدث في ثورة الدراهم سنة (٢٧٥هـ) (٣) . حيث عارضت تلك الفئه بكل عناصرها المكونه لها تلك الثورة التي تضر بمصلحتها ضررا كبيرا فأضربوا عن العمل وأغلقوا حوانيتهم الى أن تمكن الامير من تهدئة الوضع بالحسنى وأقنع الجميع بصلاحية ذلك التغير .

ولعل من الاسباب التي أعطت لهذه الفئة نوعا من الثقل الأجتماعي وجود طائفه من العلماء الأجلاء بينهم والذين يعرفون الكثير من أحكام هذه التجارة في الفقه الاسلامي من أمثال عبد الله بن فروخ صاحب الحانوت المتوفي سنة (١٧٥هـ) (٤) . وكذلك العالم عون بن يوسف الخزاعي المتوفي سنة (٢٣٩هـ) (٥) .

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية . ص ٨٥

(٢) التجارة في المغرب الاسلامي .ص ٥٧

(٣) أنظر تفاصيل هذه الثورة في الفصل الرابع الحياة الاقتصادية ص٢٦٥.

(٤) القاضي عياض : تراجم أغلبية .ص ٥٠

(٥) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ .ص ٢٩٧ - القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٣٨

ومما يجدر ملاحظته أن طبقة التجار قد ظهرت في القيروان منذ عصر مبكر فعندما يتحدث الدباغ عن دخول كسيله الى القيروان سنة (٦٤هـ) بعد خروج زهير بن قيس البلوي منها يذكر من ضمن الناس الذين لم يستطيعوا ترك القيروان فئة من التجار وأشار الى ذلك بقوله : (وكل مثقل من التجار) (١) . فاستمرارية هذه الطبقة منذ ذلك التاريخ . حتى الفترة التي نتحدث عنها يدل بوضوح على أن النماء كان حليفها رغم ما كانت تمر به من ظروف .

ولم يكن يعوق طائفة التجار القيام بمهمتهم شيء البته حتى الأوضاع السياسية لم تكن تؤثر بشكل كبير في استمرارية هذا النشاط وان كانت تؤدي الى تقليل من حركته لكن التجار كانوا يمارسون عملهم سواء كانت هناك حرب أو لم تكن (٢) .

ولم يقتصر العمل التجاري على الرجال فقط بل ساهم فيه النساء أيضاً فقد كانت هناك امرأه من قريش من بني أميه لها تجارة واسعة ومن الذين يعملون في التجاره الخارجية وكانت تنافس اسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله (٣) . وأغلب الظن ان النساء كن يرسلن لاسيما في التجارة الخارجية نواباً لهن لأنه من غير المعقول ان لا تخشى المرأه على نفسها مغبة الاحداث في الأسفار الطويلة التي تقطعها القوافل التجارية من بلد لاخر .

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت لفئة التجار والمكانه الاجتماعية التي تحققت لهم في مجتمع القيروان الا أن الدوله كانت تحرص من جانبها على مراقبة نشاطها التجاري ، ولعل تولية القاضي سحنون بن سعيد أمر النظر في الأسواق -

---

(١) معالم الايمان . جـ ١ .ص ٥٥

(٢) نجاة باشا : التجارة في المغرب .ص ٧٢

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٨٦

أي تولي أمر الحسبه [١] - أكبر دليل على محاولة الدوله ضبط العملية التجارية وبالتالي الضرب على أيدي التجار رغبة في استمرارية ذلك النشاط الاقتصادي خاليا من الدنس والغش لاسيما وأن القيروان كانت مركز بلاد المغرب التجاري فالمحافظة عليها كعاصمة علميه ودينيه واقتصادية يستلزم اتخاذ مثل تلك الاجراءات [٢] . ولقد وجد بين المجتمع التجاري القيرواني عدد من التجار من خارج القيروان جاءوا الى القيروان بقصد التجارة ، فمن أولئك تجار أندلسيون وكان من أشهرهم ابن خيرون الذي عمل على تنمية ثروته في القيروان عن طريق انشاء الفنادق الى جانب ممارسته للتجارة . ولعل كثرة الجاليات التجارية في القيروان تدل بوضوح على التسامح وروح الصداقه عند المسلمين [٣] .

ولقد وصف تجار القيروان بالمهارة في عملية البيع والشراء [٤] ، وفي هذا يكمن سر من أسرار استمرارية الحركة التجارية ونمائها . كما لانغفل حسن الخلق الذي كان عليه معظم التجار ، والمستمد من الدين الحنيف حيث حث الشرع الكريم على عدم الغش والكذب والتدليس والاحتكار .

كما بدت على طائفة التجار ظاهرة الثراء واضحة جلية ممثلة في بناء المنازل الفاخرة وفي ملبوساتهم المتنوعة الغالية الثمن . وفي توزيعهم الصدقات لذوي الحاجة من الناس وفي مقدار الأموال التي كان يتركها أولئك التجار . فهذا أبو الفضل أحمد بن علي يرث عن والده من تجارة العاج فقط أكثر من ألف دينار وهو مبلغ كبير جداً ،

---

(١) عن ذلك أنظر فيما بعد الفصل الرابع . ص ٣١٥

(٢)الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٧٠

(٣) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية .ص ١٣٧

(٤) محمد محمد زيتون : نفس المرجع .ص ١٦٤

وقد رفضه ولم يقبل أخذه تورعا " كان ذلك من تجارة العاج فكرهت أن أتلبس بشيء جاء فيه عن أهل العلم كراهة " (١) . وفي طبقة التجار نلمح تباينا مرجعه نوع السلعة التي يتاجرون فيها الأمر الذي أدى الى كل تجاره واحده مع بعضهم البعض مما نشأ عنه أسواق متعددة لكل طائفة من التجار أصحاب السلعة الواحده سوق ، فكان هناك (سوق الغزل) وسوق الجوهرين وسوق البركه - لبيع الرقيق والجواري (٢) - كما كان لغير المسلمين أماكن خاصة بهم للتسويق وقد كان ذلك أمرا حسنا اذ يمنع الصاق المعاملات الغير خلقية التي يقوم بها غير المسلمين عن المسلمين ، فالتجار المسلمون لا يستعملون اطلاقاً الربا لأنه محرم عندهم بنص القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون)(٣) في حين كان اليهود يتعاملون بالربا الأمر الذي أدى الى ثراء فاحش بين طبقاتهم وكانت لهم سوق خاصة بهم في القيروان تسمى (سوق اليهود) (٤) ، وكان المسلمون لا يقصدون سوقهم الا لحاجة ملحة بسبب ما عرف عنهم من ممارستهم الربا(٥) . ولابد من القول أن فئة التجار وان كان بينها وحدة اجتماعية واضحة المعالم الا أنها كانت تنشطر الى شطرين فئة كبار التجار الأثرياء جدا وهؤلاء بجانب سيطرتهم على الحركة التجارية بالأسواق الداخلية كانوا يمارسون نشاطاً تجارياً خارجياً حيث الكسب الكبير ، وفئة التجار الصغار الذين كانوا مجرد أصحاب حوانيت في

---

(١)المالكي : نفس المصدر . جـ ١ .ص ٣٨٨

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ١٦

(٣) سورة البقرة آيه ٢٧٩

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ١٦

(٥) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٧٧

أسواق المدن (١) .

ويمكن اضافة فئة السماسرة الى طائفة التجار ، وعمل السمسار عبارة عن ربط الصلة بين التجار أصحاب السوق وبين الزبائن القادمين للشراء . وكانت الحاجة ماسة للغرباء والريفين لشخصية السمسار حيث يجهلون أحسن الأصناف وأصدق التجار وأرخص الأثمان فكانوا يلجأون اليه ليتفادوا الوقوع في ورطات تجارية (٢) .

ولابد من الاشارة الى أن أصحاب الصناعات كانوا يمارسون العمل التجاري بأنفسهم فيأتون الى السوق ويعرضون سلعهم للبيع (٣) ، وقد كان ذلك أربح لهم من اعطائها للتجار وبيعها عن طريقهم ، ولعل في ممارستهم العمل التجاري بأنفسهم يكسبهم خبرة حول نوعية السلع وأكثرها طلباً وذوق الناس في المشتريات وغير ذلك .

وخلاصة القول أن طائفة التجار نعمت في عهد الأغالبة بنوع من الاستقرار الأمني لم يحظ به من سبقهم ، كما نعمت بكثرة التسهيلات والمرافق العامة وحرية الحركة بشكل كبير مما ساعد على تبوءها تلك المنزلة ، ورفع مستوى الاقتصاد في أفريقية التي وصلت في ذلك العهد الأغلبي الى درجة ملحوظة من التقدم الاقتصادي.

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية . ص ٨٥

(٢) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٣

(٣) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٤

خامساً : فئة الفلاحون :

الفلاحون عادة لا يعيشون في المدن وبخاصة المدن الكبيرة كالقيروان العاصمة وانما كانوا يعيشون في القرى وعلى أطراف المدن الزراعية ، ويقومون بزراعة الأرض وحراثتها وجني ثمارها . ويمكن أن نميز بين صنفين من الفلاحين : صنف من الفلاحين أصحاب أراضي يملكونها ويقومون بزراعتها بأنفسهم وهؤلاء ينتمي اليهم بعض المثقفين من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يجعلون قوتهم من الفلاحة . حدث عبد الجبار بن الجبار بن خالد قال : كنا نسمع من سحنون بمنزله في الساحل ، فصلى يوما الصبح ثم دخل فخرج علينا وعلى كتفه المحراث وبين يديه زوج بقر مقرون فقال لنا : (ان الغلام حُم فأنا أريد أن أذهب لأحرث ثم أرجع اليكم اذا فرغت أسمعكم) (١) . ولهذا نجد هؤلاء العلماء ومن سواهم يتركون العاصمة القيروان ويذهبون الى ضيعاتهم لممارسة العمل بأيديهم في موسم الجني . كما تنضم لهذه الفئة من المثقفين فئة أخرى لها أراضيها التي تقوم بزراعتها وحصادها وكانوا أصحاب مساحات صغيرة (٢) . لذلك لم يكن يتطلب الوضع منهم كثير مشقة نظرا لصغر حجم مساحة الأرض المزروعة ، ثم أن الترتيبات التي اتخذها الأغالبة من أعمال الري العام قد ساعدت كثيرا في هذا المضمار (٣).

أما الصنف الثاني فهم الذين لايملكون أراضي انما رغبوا في العيش على الزراعة وذلك باكتراء أراضي وزراعتها لحسابهم ، والحكم الشرعي في وضعهم أنهم يدفعون زكاة عن انتاجهم الزراعي ولا نعرف بالضبط قيمة الكراء ولا طبيعته ، وأغلب الظن

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(٢) محمد محمد زيتون : نفس المرجع .ص ١٧١

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٣٢

ان هؤلاء كانوا قليلي الدخل لأن عملية الكراء مكلفة الى حد ما (١) .

أما عن نظام ملكية الأراضي فليس لدينا صورة واضحة تماما عن كيفية التملك اللهم اي ما نجده في ثنايا الحديث عن سياسة الولاء والقادة الادارية فمثلا عمل حسان بن النعمان على تقسيم الأراضي بين القبائل وعين لكل قبيلة خطتها وأمرها بزراعة أراضيها شرط أن تدفع زكاتها لبيت مال المسلمين (٢) .

وفي القرن الثاني الهجري عمل بنو المهلب على توزيع الأراضي الموات على من يستحقها (٣) . ولا نعرف على أي أساس يكون ذلك الاستحقاق أهو كناية عن مكافأة من الدوله لرجال قدموا خدمات عظيمة فتملكوا تلك الضياع ؟ أم على شيء أخر ، ولعل هذه الامر هو الذي أدى الى التمييز بين طبقتين من ملاك الأراضي .

طبقة لها أراضي ذات مساحة محدودة وطبقة لها مساحة شاسعة من الأرض ولها مركزها الاجتماعي حتى اننا نجدها تمكث في القيروان وتترك لعبيدها مهمة احياء وزراعة تلك الأراضي (٤) .

---

(١) محمد محمد زيتون : نفس المرجع .ص ١٧١

(٢) محمد علي دبوز : المغرب الكبير . جـ ٢ .ص ١١٣

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق .ص ٣٢

(٤) محمد علي دبوز : نفس الرجع . جـ٢ .ص ١١٣

سادسا : فئة الصناع :

اتجهت العناية الى الصناعه منذ عهد مبكر في بلاد المغرب بصفه عامه فقد أنشأ حسان بن النعمان دارا لصناعة السفن في تونس (١) . ونعتقد ان نواة هذه الطائفة في العصر الاسلامي الصناع الذين أرسلهم الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان من مصر للقائد حسان بن النعمان حين هم بانشاء تونس ودار صناعتها حيث أرسل الى عمه عبد العزيز بن مروان وهو على مصر وافريقية (وأمره أن يوجه ألف قبطي وألف قبطية ويحملهم الى افريقية وأمره ان البحر الى تونس وأن بها دار صناعه وان يعمل المراكب ويستنكثر منها) (٢) .

وقد انتقلت الحركة العمرانية الى القيروان عاصمة افريقية وبخاصة بعد أن استقرت الامور فيها بقيام دولة الأغالبة مع نهاية القرن الثاني الهجري ، ثم ازدادت هذه الحركة تطورا في القرنين الثالث والرابع الهجريين (٣) . ولم تكن هذه الطائفة مغلوبة على أمرها أو مستهجنه من قبل المجتمع لا ذلك ان الصناع كان لهم أثرهم الكبير في الرقي الاقتصادي للقيروان وسائر بلاد افريقيه . فهذا ابو محمد عبد الله ابن التبان (٤) أحد العلماء الأفاضل الذين اشتغلوا بالعلم يحثه والده على تعلم صنعة يستفيد منها ، روى الدباغ عنه قائلاً : " قال لي أبي ذات يوم يابني ما يكون؟ لا تعرف صنعه واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك " (٥) فنفهم من سياق قول الوالد

---

(١) حول السبب في انشاء تونس ودار صناعتها أنظر : فوزية نوح : البحرية الاسلامية في بلاد المغرب ص ٣٠/٢٩

(٢) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب .ص ٦٦

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع .ص ١٧١

(٤) من العلماء الراسخين والفقهاء المبرزين فصيح اللسان رقيق القلب برع في علوم شتى عاصر دوله الاغالبة في نهايتها وجزءاً كبيرا من دولة الفاطمية وقد نكل الشيعه العبيدين به توفي سنة ٣٧١هـ (الدباغ : معالم الايمان . جـ ٣ .ص ٨٩)

(٥) الدباغ : نفس المصدر . جـ ٣ .ص ٨٨

حث ابنه طالب العلم على اتخاذ حرفه الى جانب تحصيله العلم ليكفي نفسه وأهله السؤال والفاقه .

أما أفراد طائفة الصناع فهم من عناصر شتى ، فان كان المتخصصون في البحرية وصناعة السفن قد وفدوا من مصر ، فاننا نرى العبيد من السودان الذين استقدمهم الأمير ابراهيم بن الاغلب قد خصص من ضمن أعمالهم مساعدة الناس في الصناعه والتخفيف على العامه من ثقلها (١) .

كما شارك الموالي القادمين من صقلية وبلاد الجرمان والروس في أعمال الصناعه " وما من واحد من هؤلاء الفتيان الموالي الا وقد تولى الاشراف على الأشغال البنائية على اختلاف أجناسها وأنواعها مما أمر به الأغالبه وقد تولى أعيان من الفتيان النظر الأعلى على دار ضرب المسكوكات الى غير ذلك من مهمات أمور الدوله " (٢) .

سابعاً : فئة أهل الذمه :

كان يعيش الى جانب المسلمين في القيروان اليهود والنصارى، وقد دخل اليهود افريقية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ورغم قلتهم العددية الا أنهم استطاعوا أن يحرزوا لهم نفوذا كبيرا تمثل في وجود حي خاص بهم وسوق لبيع منتوجاتهم (٣) .

أما النصارى فقد واجههم حسان بن النعمان أثناء فتحه لافريقية حيث لقى منهم مقاومة عنيفه لكنه استطاع أن يكسر شوكتهم على أن ذلك لا يعني خلو العاصمه

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ ٢ .ص ٣٣

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ ٢ . ص ٣٠١ - عن اسماء وأصحاب دور ضرب الأغالبة - وكانوا من أعيان فتيانهم - أنظر فيما بعد الفصل الرابع

(٣) ج - ديبوا : تونس ، تعريب الصادق مازيغ .ص ٧١

(القيروان) منهم فقد اختصوا بأعمال من أهمها ضرب السكة والنقش على الحجر وصناعة السفن (١) .

وفي عهد القاضي سحنون بن سعيد زمن امارة الأمير محمد بن الأغلب نجده يجعل رواتب أعوانه وكتابه وقضاته على الأقاليم من جزية أهل الكتاب ، وفي هذا ذكر المالكي قوله : " كان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقاً ولا صلة من السلطان في قضائه كله ، ويأخذ لأعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب " (٢) . واشتهر اليهود بالعمليات المصرفية المختلفة ، كما كان لهم باع طويل في تجارة الرقيق بين أوروبا وبلاد الاسلام ، في حين برع النصارى في التطبيب حتى أننا نجد أكثر أطباء الامراء من النصارى (٣) .

وقد حرص قضاة القيروان على أن تميز هذه الفئة بعلامة يفرق فيها المرء بين الذمي والمسلم وقد جعل القاضي عبد الله بن طالب على أكتاف اليهود والنصارى رقاعاً بيضاء فيها صورة قرد أو خنزير ، كما ميز دورهم بوضع صور مماثلة على أبوابهم .

وكان لهذه الطائفة دور كبير في التجارة وفي الاقتصاد في القيروان بشكل عام وسأتي الحديث عن ذلك (٤) وعلى العموم كانت هذه الطائفة منظمة مهنياً (٥) .

---

(١) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة .ص ١١

(٢) رياض النفوس . جـ ١ .ص ٢٧٥

(٣) أنور الرفاعي : النظم الاسلامية .ص ٢١٧

(٤) أنظر الفصل الرابع من البحث (الحياه الاقتصادية في القيروان .ص ٣١٥)

(٥) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي الحياه الاقتصادية والاجتماعيه .ص ٩١

ثامناً :فئة الرقيق :

يمكن اعتبار هذه الطائفة من العامه لكثرتها من ناحية وانصهارها مع طبقات المجتمع من ناحية اخرى .

أما الرق فهو موجود في الحضارات القديمة قبل البعثة النبوية وكان يظهر حسب الحاجة ، فمثلا حينما كانت أثينا في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد بلدا صناعيا احتاجت الى أيدى عاملة فجلبت العبيد من سوريه ومصر وغيرها من بلدان اسيا وافريقية (١) . وفي الاسلام وجد الرق بسبب أسرى الحرب حين خاض المسلمون المعارك ضد المشركين فكانوا مخيرين في الأسرى بين القتل أو الاسترقاق أو الفداء - فدائية بأسرى المسلمين أو فدائية بمال من أهله - ولعل الاسلام في هذا يظهر بمظهر القوي الأمر الذي يجعل العدو يحسب لقوته ألف حساب وبهذا يدفع عن نفسه عدوان الأعداء (٢) . والاسلام وان كان لم يلغ الرق الا أن جعل حرية الانسان هي الاصل ، والاسترقاق أمر عارض ، هذا جانب وثمة جانب اخر هو غاية الرحمة والانسانية تلك التوصيات التي كان الاسلام يوصي بها في معاملة الرقيق . فهذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح للمسلم السلوك القويم مع عبده أو مملوكه ويبين منزلته في المجتمع " هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه " (٣) . اضافة الى ذلك حث الاسلام على تحرير الرق بشكل كبير فجعله كفاره للأفطار في رمضان

---

(١) محمد البهي : الاسلام والرق . ص ٨

(٢) محمد البهي : نفس المرجع . ص ٥

(٣) الحافظ المنذري : مختصر صحيح مسلم .ص ٢٣٨

بغير عذر ان كان تحت يده عبيد وفي ظهار الرجل لزوجته (١) . كما جعل الاسلام من الزكاة نصيباً خاصاً لتحرير الأرقاء الى جانب أنه سهل على العبد تحرير نفسه بدفع مبلغ من المال يؤديه لسيده في أجل محدود وتلك هي المكاتبه (٢) .

هذا وضع الرقيق بصفة عامة في الدولة الاسلاميه . أما في بلاد المغرب فنتيجة طبيعية لكثرة العمليات الحربية كان عدد الأسرى يتزايد حتى أننا نجد عدد الاسرى عند موسى بن نصير بلغ ثلاثين ألف رأس من الرقيق (٣) . ولم نستطع الوقوف على معلومات وافيه عن الرقيق ومبدأ ظهورهم كفئة اجتماعية في القيروان قبل حكم الأغالبة أي زمن الولاه الأمويين والعباسيين من بعدهم الا ما ذكر عن سبي موسى بن نصير السالف الذكر .

لكن في عصر الاغالبة سيكون العبيد من الذين تشتريهم الدوله ليكونوا لها عضدا . فكانت تحرص على شرائهم صغار السن لتعليمهم منذ طفولتهم على الاعمال المراد اناطتها بهم ، فاذا برع منهم أحد أسند اليه بعض المناصب الكبرى عدا ما يتعلق منها بقيادة الجيش وغيرها . كما لا ننسى للأغالبة العناية الخاصة التي حظى بها الرقيق في عهدهم حيث حرصوا على تفقيههم وتعليمهم أمور الدين لاسيما اذا علمنا أن أولئك العبيد كانوا يقدمون . على القيروان وهم يجهلون كل شيء ، فتنشيئتهم على تلك المبادىء السامية يؤدي الى ولائهم لسادتهم أولياء نعمتهم (٤)

---

(١) قال تعالى : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون الله بما تعملون خبير) . سورة المجادله آيه ٣

(٢) أنور الرفاعي : النظم الاسلاميه .ص ٢١٨

(٣) ابن أبي دينار : نفس المصدر .ص ٣٨

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الثالث . ص ١١٩

وكان عدد الرقيق يمثل تقريباً خمس أو ربع السكان . ونظرا لما أولاه الأغالبة لهم من رعايا وتكريم فقد سجل لنا التاريخ أسماء عدد من الرقيق نبغ فحظى بمكانه عاليه عند الامراء مثل : أبو عمران موسى الذي كان وكيل الامير ابراهيم بن الاغلب في المهمات ومسرور في عهد الأمير زيادة الله الأول . وخلف ومدام في عصر أبى العباس أحمد وولده وغيرهم كثيرون (١)

على أن وضع الرقيق ما كان دوما بتلك الصورة الحسنه فإذا كان ذلك وضع الرقيق المقرب من الامير سواء من كان منهم في حرسه الخاص أو في قصره مثلاً فان من العبيد من كان وضعه سيء للغاية يجعله أشبه بالفقراء المعدمين (٢) .

أما أسعار الرقيق فقد كانت متفاوته ويبدو أنها ترجع الى شخصية الرقيق ذاته وما لديه من مميزات فقد بيعت جارية في زمن ابراهيم الثاني بثمانين دينار اشتراها القاضي عبد الله بن طالب وأهداها لأحد المعوذين (٣) .

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الثالث ص ١٢٠ - وردت أسماء هؤلاء على بعض نقود الاغالبة اذ كانوا موضع ثقة امرائهم فولا هم دور الضرب نقودهم - عن ذلك أنظر الفصل الرابع

(2) Hishom Djoit Farhot Dochaiu : Histoite De ALTunisile le Moyen.

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية .ص ٢١٦

تقدير عدد السكان في القيروان في عهد الأغالبة :-

اذا كانت تلك هي فئات المجتمع في مدينة القيروان في عهد الاغالبة فيا ترى كم كان تعداد السكان فيها ؟

الواقع المصادر لا تشير مطلقاً ولا حتى بشكل نسبي الى العدد الذي كانت تضمه القيروان من الناس ، غير أن البكري أشار الى عدد الحمامات التي بلغت ثمانية واربعين حماما والى مواجل المياه التي كانت لأهل القيروان وعددها خمسة عشر ماجلا وأن عدد ما ذبح من البقر في يوم عاشوراء بلغ تسعمائه وخمسين رأسا (١) . لكن لا نستطيع عن طريق كل ذلك معرفة عدد ساكني القيروان فلا يمكن أن ننسى أن بيوت الخاصة كانت تحوى على الحمامات وكذلك بعض المرافق كالدمنه وعلى ذلك يوجد عدد من الناس لا يستعمل الحمامات العامه ، كما أن مياه المواجل لم تكن تستخدم في جميع الأغراض اذ كان الناس يقضون حاجتهم من بعض أودية كوادي السراويل (٢) .

وهناك دراسة وافيه قام بها عبد الله الزيدان عن السكان في القيروان من الفتح حتى نهاية القرن الثالث الهجري . استطاع بها عن طريق عدد المساجد والحمامات والمواجل وسعتها ، والاطباء في المدينة ، وعن طريق مساحه القيروان أن يستنتج عددا تقريباً للسكان في تلك الفترة ، فجعل العدد ٨٠.٠٠٠ شخص الحد الأقصى للسكان في المدينه وخارجها اعتمادا على مساحة المدينة بينما جعل العدد ٥٦.٠٠٠ شخص الحد الأدنى للسكان داخل المدينة (٣) .

---

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب .ص ٢٦

(٢) محمد محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الاسلامية .ص ٩١

(3) Abdulah al - zaidan : the people of Qayrawan .p91.

والحقيقة أن المجتمع القيرواني في عهد الأغالبة كان يمثل درجة متطوره ومتقدمه من الوعي الاجتماعي للمجتمعات الاسلامية المتحضرة بحضارة الاسلام ، فلم يكن ينقص ذلك المجتمع علم أو فقه أو خبره صناعية أومساهمة في تجاره عالمية ومشاركه سياسية دولية ، بل لقد جمع ذلك كله فأنتج حضارة كان لها صداها في مشرق ومغرب العالم الاسلامي رغم تعدد العناصر البشرية المكونه له عرقياً وعقائديا ولغويا . وقد صحت مقوله عثمان الكعاك حين ذكر بخصوص تلك العناصر قوله : " فكأن الجهود والمواهب والمدارك والعبقريات والاذواق ذابت في منصب واحد لكي تشكل بعدئذ في صورة خاصة عليها سمات الاجناس وملامح الشرق والغرب وكأن الجهد العام في البلاد كان منصرفا لتوحيد الأجناس في سياستها واجتماعها واقتصادها وكأنه أراد أن يبيض بالبراعة صحيفة سودتها الفتن الداخلية المقوته " (١) .

وتتداخل عدة مؤشرات مع بعضها البعض مشكلة البنية الأساسية للمجتمع ومكونه النمط الاجتماعي الذي يصبح هو الصورة التي يظهر بها المجتمع ، ولا نغفل من هذه المؤشرات الأزدهار الاقتصادى الذي أدى الى ان يرقى المجتمع بفضل ما أصبح في يديه من الثروات . ولا نغفل أثر تلك الثروات في الانتعاش الحضاري والاخذ بأسباب الرقي التي تعود المجتمع ان يتمتع بها حتى صار ينظر الى المجتمع القيرواني زمن الأغالبة نظره حضارية مرموقة . ولا يمكن أن نغفل ان من أهم المؤشرات أيضاً التسامح الكبير الذي تمثل به المسلمون تجاه من يخالفهم في العقيدة مما جعل الجميع يعيشون في ظل دوله واحده حتى لم نرى قط زمن الاغالبة ثورة من قبل المخالفين في العقيدة من أهل الكتاب(اليهود والنصارى)(٢) .

---

(١) المجتمع التونسي على عهد الأغالبة .ص ١٢

(٢) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الاغالبة . ٢٩

ولعل من المؤشرات الاجتماعية ذات الاهمية الكبرى الوعي الديني الذي كان عليه مجتمع القيروان والذي أدى الى أن يحافظ المجتمع على حقوقة بابداء المعارضة (١). فكل ماهو من اعمال السلطة وقراراتها يخالف الشرع لم يكن يجد الا المعارضة ورفع لواء العصيان لتحري اقامة العدل فكان من نتائج ذلك أن وجدنا شعباً يعى مسؤولية الدين ويحرص على عدم الخروج عن نطاقة حتى وان كان من أكبر مسؤول في الدوله .

كذلك أثرت العادات والاعراف على المجتمع القيرواني بشكل كبير سواء ما كان منها في المأكل أو الملبس أو نظام الحياة في الاسرة ، وقد تمكن الاسلام من القضاء على سيء العادات عند مختلف الاجناس المكونه للأسرة الافريقية فكان من نتائج ذلك عائلة افريقية كبرى سماتها التلاحم والتواد والتعاطف (٢)ولهذا لم تكن افريقية تعرف الطبقية التي عرفتها أوروبا في تلك الفترة حيث النظام الاقطاعي الذي لم يعرفه الافارقة قط (٣) . كذلك لا يمكن أن نغفل مدى تأثير فتح صقلية في المجتمع الاغلبي لأن ذلك الفتح أبرز ظاهرتين في المجتمع أولها : أنه بعث روح الجهاد ولقد كان لوجود العالم الفقيه أسد بن الفرات كقائد للجيش أثره الكبير في جعل النفوس تتفانى في طلب الشهادة والثاني ارتباط المجتمع الأغلبي بالمجتمع الصقلي برباط قوي في الدين والسياسه وهذا حتماً أدى الى ظاهرة التأثر والتأثير بين المجتمعين .

(1) Hishom Djit. Farhoat Dachtabui - Historire De T unisiele Moy - en Age - p 160

(٢) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ٢٩

(3) Hishom Djit. Farhoat Dachtabui - Historire De T unisiele Moy - en Age - p 160

أهم المظاهر الاجتماعية للقيروان في عهد الأغالبة :-

أدى الازدهار الحضاري وزيادة الدخل في القيروان الى أخذ الناس بأسباب الرفاهية والترف ، وقد بدا ذلك واضحاً وجلياً على المظاهر الاجتماعية لأهل القيروان .

أ- المواسم ،

كان هناك العديد من المواسم التي يحتفل بها أهل القيروان وقد تأثرت تلك المواسم بالأزدهار الحضاري كثيراً حيث ظهرت وسائل وأساليب للاحتفال متطورة وتحمل طابع الفخامة والتمدن .

من الاحتفالات التي تحظى باهتمام أهل القيروان المولد النبوي اذ كان يوقدون القناديل ويسرجون الشموع ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول ويصدع الشعراء بقصائد مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم (١) .

وكذلك كان العيد موسم عظيم تنصب فيه الزينه ويرتدي العامه والخاصه أفضل الثياب كل حسب مستواه كما تتزين النساء بالحلي والخلاخل . ويوسع القيم على الأسرة على نفسه وعياله بأصناف المأكولات والحلوى (٢)

كما كانوا يحتفلون بليلة السابع والعشرين من رجب التي هي ليلة الاسراء وليلة النصف من شعبان والنصف من رمضان ويكثرون في تلك الليالي من الصدقات والهبات(٣) .

وكان هناك احتفالات غير هذه كاحتفالهم بخروج الجيش للغزو ذكر المالكي " ان

---

(١) حسني ابراهيم مبارك . التطور الاقتصادي لولاية افريقية في عهد الأغالبة . رسالة ماجستير لم تطبع ص ١٦٨

(٢) البكري : نفس المصدر . ص٣٦ .

(٣) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ . ص ٧٥ .

أسداً لما خرج على الجيش متوجهاً الى سوسه ليركب الى صقلية خرج معه وجوه أهل العلم وجماعة من الناس ليشيعوه وأمر زيادة الله ألا يبقى أحد من رجاله الا شيعه فركب أسد في جمع عظيم (١) وقد كانت تلك المواسم من المناسبات السعيدة التي تدخل على النفس البهجة والسرور وتفيض جواً من الترابط والتلاحم الاجتماعي .

ب - الملاهي والتسلية :-

عرفت القيروان ألواناً مختلفة من الملاهي تتمتع بها وقت فراغها وفي المواسم العديده ، وكانت تلك الملاهي من الوسائل المباحة في الشريعة الاسلامية (٢) .

كان اللعب بالحراب من الألعاب المفضلة لدى أهل القيروان وقد خصصوا له مكاناً معيناً ضماناً للسلامة حيث كان أشهر ملاعبهم في ناحية باب تونس خارج سور القيروان (٣) .

كذلك كان سباق الخيل من ملاهيهم وكان يقام خارج مدينة القيروان من ناحية باب أسلم (٤) .

ويعتبر العيد والاستماع الى الغناء ومجالس الشعراء من وسائل التسلية وقضاء الأوقات الممتعة (٥) .

جـ- المرأة :-

نالت المرأة مركزاً مرموقاً في المجتمع القيرواني فهي محترمه ومكرمه يقوم الزوج

---

(١) نفس المصدر . جـ ٢ . ص٧٥ .
(٢) حسن حسني عبدالوهاب . بساط العقيق .ص٤٠ .
(٣) الدباغ : نفس المصدر . جـ ٢ . ص٤٨ .
(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ . ص ٢٣٢ .
(٥) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٨٠ .

بالعمل لتوفير كل ما يلزم لحاجة الأسرة . وتقضي المرأة وقت غياب زوجها عنها في تنظيف الدار وطبخ الطعام والعناية بالأطفال . كما تعمل بالغزل والتطريز وحياكة الثياب لتحسين حالة الأسرة المادية (١).

وكانت المرأة على درجة من الوقار والحشمة فما كانت تخرج من الدار إلا لحاجة ملحة ، وكان لها الحرية في أمورها الخاصة فلها أن تشترط عند عقد زواجها أن الزوج اذا تسرى عليها بغيرها يكون أمرها بيدها أي تطلق نفسها اذا أرادات ذلك (٢).

د- اللباس : -

بلغ الاهتمام باللباس حداً كبيراً حتى أضحى لكل مناسبه لباساً خاصاً فهذا الامام سحنون بن سعيد كان له لباس للجمعه ولباس عند حضور الجنازة وآخر اذا جلس لتلقين العلم كما كان له لباس للبرد والمطر (٣) ويعير الرجل اذا لم يعتني بلباسه وهيئته (٤) وكان الامام سحنون يؤدب من لا يحسن ثيابه (٥) وقدرت كسوة القاضي عبدالله بن غانم عند وفاته بنحو ألف دينار (٦) هو مبلغ باهظ .

واذا كان هذا وضع طائفة أهل العلم في اللباس فان الأمراء وأرباب الوظائف الرسمية والأغنياء من العامة كانوا أكثر اهتماماً باللباس وشراء الفاخر منه ذكر البكري(٧) . " والحياكة بسوسه كثيره .... وبسوسه تقصر ثياب القيروان الفاخرة "

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب . بساط العقيق .ص.٤٠ .

(٢) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٨٠ .

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك . جـ٢ . ص ٥٢٤ .

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ . ص ٢٤٣ .

(٥) القاضي عياض : ترتيب المدارك . جـ٢ . ص ٧٥ .

(٦) المالكي : نفس المصدر . جـ١ . ص ١٤٦ .

(٧) نفس المصدر : ص ٣٦ .

وكان الأمراء الأغالبة يبعثون الى الخلفاء العباسيين بالثياب المختلفة من دار الطراز في القيروان [١] .

ولباس الرجل عبارة عن قميص داخلي وسروال وبرنس [٢] أو يستعاض عن البرنس بالجبة التي هي من الزي العربي الذي انتقل الى الشمال الافريقي وعلى الرأس توضع العمامه وتسمى لفافه تكون من القطن أو الصوف . كما كانوا يرتدون القلانس وهو غطاء للرأس وكانت مختلفة الحجم . فكانت قلانس الأمراء تتميز بكبر حجمها وجمالها [٣] .

أما لباس المرأة القيروانية فكان ذا ألوان وأشكال متعددة فهو يصنع من القطن ومن الحرير ترتدي المرأة الرداء كلباس داخلي ثم تلبس فوقه غلالة تشد بمئزد ، وتتزين بأصناف كثيرة من الحلي المرصعه والخلاخل المنقوشة ، وكانت تتمتع بهذه الزينة داخل بيتها فاذا أرادت الخروج ضربت على وجهها المعجر [٤] .

ولا يزال هذا الزي القديم له مكان الصداره عند أهل القيروان يرتدون في أفراحهم وأعيادهم .وقد لاحظت ذلك أثناء زيارتي للقيروان - رغم كثرة أنواع الألبسه المستحدثة.

هـ - الطعام :-

حفلت موائد أهل القيروان بأنواع كثيرة من الأطعمة ويتصدر (الكسكسي) المائدة عندهم ويمتاز بأنه سريع الهضم يصنع من الحنطة ويطبخ من اللحمة والخضار [٥] كذلك

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ١٩ .

(٢) البرنس : هو عبارة عن قطعة واحدة مفتوحة من الأمام ملصق بها الخلف غطاء للرأس .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ٤٣ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع . والصفحة أعلاه .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ٤٣ .

يطبخون ما يسمى (الكواكبية) عبارة عن لحمة وحمص ومرق و (النيسابورية) و (الفستقية) وتصنعان من اللحم والبقول . و (الكنافة) وهي لحم متبل ينضج على البخار (١) .

كما حفلت موائدهم بأنواع الحلوى التي تفننوا في صنعها مثل الكعك والزلابية والاسفنج وكانوا يصنعون المربى من السمسم والياسمين والورد والبنفسج (٢) .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع . ص .

(٢) البكري : نفس المصدر . ص٣٢ .

الفصل الثالث

الحياة العلمية في القيروان في عهد الأغالبة

أولاً : نشر مذهب مالك في القيروان

ثانياً : الدراسات الشرعية

ثالثاً : الدراسات الأدبية والنحوية

رابعاً : الدراسات التاريخية

خامساً : العلوم الطبيعية

أولاً : نشر مذهب مالك [(١)] في القيروان :

قبل الدخول في ثنايا الموضوع لابد من كلمة موجزة عن مبدأ ظهور المذاهب الإسلامية في العالم الإسلامي. الواقع أن نواة المذاهب الإسلامية تعود الى عصر الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان هناك مذهب ابن عمر ، ومذهب ابن مسعود ، ومذهب عائشة ، وقد دعت ضرورات الحياة ومستجداتها فيما بعد الى إمعان الفكر في استخراج أحكام لتلك المستجدات التي لم يكن لها نص في الكتاب أو السنة. ثم نجد في عصر التابعين يبرز في الفقه سبعة من علماء المدينة وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود[(٢)]. ثم كان العصر الذهبي للاجتهاد وهو بداية القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الرابع الهجري وفيه ظهر ثلاثة عشر مجتهد لكل منهم مذهبه الخاص الذي قلده الناس وأخذوا عنه آراءهم وهم سفيان بن عيينه بمكة المكرمة، ومالك بن أنس بالمدينة المنورة، والحسن البصري بالبصرة، وأبو حنيفة وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي بالشام، والشافعي والليث بمصر، واسحاق بن راهويه بنيسابور، وأبو نور وأحمد وداود الظاهري وابن جرير الطبري في بغداد[(٣)]، الا أن أكثر تلك المذاهب اندثرت ولم يبق لأهل السنة منها الا أربعة معروفة وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، أما أهمية تلك المذاهب

---

(١) هو ابو عبدالله مالك بن أنس ، بن مالك بن أبي عامر بن عمرو ابن الحارث الأصبحي ، جده ابو عامر صحابي جليل رضى الله عنه . ولد الامام مالك سنة ٩٣هـ وتوفي سنة ١٧٩هـ . وأخذ العلم على أكثر من تسعمائة شيخ منهم الزاهري وأبو عثمان ربيعه واسحاق بن عبدالله وأبو الزبير المكي وغيرهم . اجتهد في طلب العلم حتى اضطر لنقض سقف بيته فباع خشبه له تآليف كثيره أشهرها الموطأ الذي بلغ الافاق و درة في كل زمان . ومالك هو صاحب المذهب المعروف بمذهب مالك وقد انتشر مذهبه بالحجاز والبصره وأفريقيه والمغرب والأندلس ومصر وتلامذته وأتباعه كثيرون (القاضي عياض : ترتتيب المدارك وتقريب المسالك . جـ١ . ص١٣٠ ، محمد بن مخلوف . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ص ٢٧ ، ٤٩) .

(٢) الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته. جـ ١ ص ١٨ – ٢٨ .

(٣) الزحيلي: نفس المرجع . جـ ١ ص ٢٩ .

فيوضحها ابن قدامة في كتابه حيث يقول (إن الأحكام العملية التي هي موضوع الفقه منها ما يثبت بالدليل القطعي المجمع عليه كأركان الإسلام وتحريم الفواحش ماظهر منها ومابطن وهو مايكون باتباعه المؤمن به مسلماً وبجحده أو استحلال مخالفته كافراً وبمخالفته فاسقاً على التفصيل المعروف. ومنها ما هو محل النظر والاجتهاد وهو الذي وقع فيه الخلاف بين علماء الأمة للإختلاف في رواية النصوص أو في دلالتها أو لعدم العلم بالنص والرجوع في الاستنباط الى القواعد العامة أو القياس المختلف في حجته)[1]، وفي العموم فان الاختلاف الذي ظهر بين علماء المذاهب اختلاف في الفروع لا في الأصول ويبدو أن طرق الإجتهاد المتفاوته قد صبغت كل فريق بصبغة معينه، فمثلاً أهل العراق لبعد الشقة بينهم وبين الصحابة رضوان الله عليهم رواة الحديث ساكني مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدموا القياس والرأي حيث أنهم عرفوا بأهل الرأي وهؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة النعمان، أما أهل المدينة أصحاب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه فيميلون الى الأخذ بالحديث لتوفر نصوصه عندهم. في حين نرى الشافعي يأخذ بنصوص القرآن والسنة ويستعمل الرأي ولا يأخذ بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم لأنها اجتهادات تحتمل الخطأ والصواب. ويذهب الإمام أحمد بن حنبل في اجتهاده الى مذهب الشافعي لتفقهه على يديه غير أنه يأخذ بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم والإجماع والقياس والاستصحاب والمصالح المرسلتوالذرائع[2].

وهناك حقيقة جديرة بالملاحظة وهي أن هذه المذاهب انتشرت في الأمصار وكان كل مصر يأخذ بالمذهب الذي يتناسب مع طبيعة مكانه وبيئته وأوضاعه السياسية والإجتماعيه. ولعل في دراستنا إن شاء الله للمذاهب والنحل في القيروان خير برهان على ذلك.

---

(١) المغني جـ١ ص ١٤ .

(٢) وهبه الزحيلي : نفس المرجع . جـ١ ص ٢٩ – ٣٩ .

كان أهل القيروان حتى نهاية القرن الأول الهجري وبداية الثاني على المذهب السني ويقصد بالمذهب السني هو ذاك المذهب القائم على الأخذ بكل ماجاء في كتاب الله دون جدل أو نقاش وهو مذهب السلف الصالح الذين لم ينحرفوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مطلقاً ولم يؤولوا فيهما[(١)] ولعل مما يؤكد صدق قولنا أن المراد بالسنة المذاهب الأربعة التي ذكرناها آنفاً، وماذكره الدباغ عن عقيدة أسد بن الفرات حيث قال (ودينه ومذهبه السنه يقول كلام الله ليس بمخلوق وكان يبدع من يقول غير هذا[(٢)])، أي أنه ليس من أصحاب النحل التي خرجت عن الإسلام السني الصحيح في عقيدتها ومنهجها مؤكداً بعد ماذكر من أن مذهبه السنه رفضه القول بخلق القرآن وهو ما قالته إحدى النحل التي ظهرت في الدولة الإسلاميه آنذاك وهم المعتزلة.

هذا الاتجاه الصحيح الذي عرفته القيروان على أيدي الصحابة والتابعين الذين رحلوا مع جيوش الفتح لم يستمر بل تضعضع مع ظهور النحل المختلفة في بداية القرن الثاني الهجري. فقد انتشر المذهب الخارجي في افريقية واستمر زمن العباسيين إذ تمكنوا من تكوين دويلات لهم في المغرب الإسلامي مثل دولة بني رستم في تاهرت على المذهب الأباضي الخارجي(١٦١هـ-٢٩٦هـ) ودولة بني مدرار في سجلماسه على مذهب الخوارج الصفريه (١٤٠هـ-٣٦٦هـ) ، ورغم التصدي الشديد الذي لقيه أتباع كلا المذهبين من قبل الخلافة العباسية إلا أنهم تمكنوا من إثبات وجودهم بل لقد وُجد لهم أتباع في القيروان زمن دولة الأغالبة، فهذا روح بن حاتم يعلن توبته عن نحلة

---

(١) محمد محمد زيتون : نفس المرجع ص ٢٣١ .

(٢) معالم الإيمان. جـ ٢ ص ١٨ .

الخوارج على يد أحد تلامذة الامام سحنون بن سعيد وهو سعيد بن صبح[١] ، وفي هذا يقول الطالبي (ولم يضمحل نشاط الخوارج بالقيروان حتى بعد ما فلت صفوفهم ومزقت شملهم بصفة نهائية سيوف بني الأغلب وفرق حلقهم وحجر اجتماعاتهم سحنون بن سعيد عندما ولي القضاء، وكانت اجتماعاتهم وحلقاتهم في المسجد الجامع في القيروان فمنعهم الإمام سحنون وأدب من خالف أمره)[٢] ، كذلك عرفت القيروان الآعتزال ذاك المذهب الذي نما واضطرد وانتشر في العصر العباسي وان كان مبدأ قيامه في العصر الأموي إلا أن بلوغه أوج مجده كان في العصر العباسي بفضل مناصرة بعض الخلفاء العباسيين له من أمثال المأمون والمعتصم والواثق، وقد كان الخليفة المأمون يقول عنهم (هؤلاء أصحابنا)[٣] ، وأكبر بلية أبتلي بها العالم الإسلامي من جراء انتشار مذهب الإعتزال قضية خلق القرآن التي ذهب ضحيتها علماء أجلاّء رفضوا ذلك القول ووقفوا منه موقف المعارضين ومن الذين أصابهم ذلك البلاء من أهل القيروان القاضي سحنون بن سعيد زمن ولاية الأمير أحمد بن الأغلب الذي أعلن القول في المساجد بخلق القرآن تأسياً بما فعل الخليفة العباسي الواثق ليكسب تأييده على مايبدو، وفي المشرق كان ضحية هذا القول علماء أفذاذ من أمثال الإمام أحمد بن حنبل وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي الذي حاكمه الخليفة الواثق بنفسه وحكم عليه بالكفر وقطع رأسه وشق بطنه وصلب جسده وكانت محاكمته قبل محاكمة الإمام سحنون بن

---

(١) سعيد بن صبح: يعرف بأبي عثمان الحداد، والحداد جده لأمه سمع من الإمام سحنون بن سعيد. كان عالماً باللغة والنحو وعالماً في الفقه وضليعاً في الرد على أهل الأهواء. (القاضي عياض: تراجم أغلبه ص ٣٥١)

(٢) محمد الطالبي: دراسات في تاريخ أفريقيه. ص ١٥٨ .

(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام. جـ ١ ص ٥ .

سعيد بشهر تقريباً[(١)].

إذاً خضع ازدهار المذهب المالكي في القيروان للتأثير المذهبي في المشرق فحين يخذل خلفاء المشرق أنصار السنة من المالكية يحتذي أتباعهم من أمراء الأغالبة حذوهم دون نظر أو إدراك لأبعاد تلك السياسة ودون مراعاة للبيئة فكانت لتلك السياسة آثارها السيئة، وعلى العكس فحين نجد بعضاً من خلفاء المشرق يقرب إليه أهل السنة ويؤيدهم يستجيب أمراء الأغالبة لنزعتهم تلك كما سنرى فيما بعد.

لما سمع الإمام سحنون بن سعيد باشهار قضية خلق القرآن على المنابر هرب إلى الناسك عبد الرحيم الذي كان يسكن في قصر زياد ومكث عنده فاستدعاه الأمير أبوجعفر أحمد الأغلبي وطلب منه المثول بين يديه، وحضر سحنون إليه وعقد الأمير مجلسه لسؤاله في قضية خلق القرآن فقال سحنون بجرأة العالم الواعي المتعقل (أما شيء ابتدئه من نفسي فلا ولكني سمعت ممن تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون " القرآن كلام الله غير مخلوق ")، فقال القاضي ابن أبي الجواد " كفر فاقتله ودمه في عنقي"، وقال غيره مثل قوله، لكن توسط بعض مناصري السنة عن الأمير وأشاروا عليه بحرمانه فقط من الفتوى فهذا بمثابة قتل حي للعالم النشيط[(٢)].

أما دخول مذهب الإعتزال إلى القيروان فيشير الى ذلك بوضوح السيد محمد أبو العزم داود بقوله الذي يؤكد فيه على انتشار هذا المذهب في وقت مبكر على يد عبد الله بن الحارث الذي أرسله مؤسس المذهب واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ) وقد احتد النقاش في القيروان حول الاعتزال وحاول أنصار المذهب التربع على عرش الحياة الفكرية بعقد حِلَق الدرس وإقامة المناظرات وماسواها، على أن علماء السنة من أمثال

---

(١) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية، ص ٢٥٠ .

(٢) المالكي : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٨٦ .

عبد الله بن فروخ، وعبد الله بن غانم، والبهلول بن راشد قد كان لهم دور كبير في هزيمتهم وتسفيه عقيدتهم، وبالتالي تفريق الأتباع عنهم(١). على أن الفضل الأكبر في التصدي لهم ولغيرهم من أهل الأهواء والنزعات والبدع كان لسحنون، قال المالكي " وكان أول قاضٍ - سحنون - فرّق حلق أهل البدع من الجامع وشرد أهل الأهواء منه وكانوا فيه حلقاً يتناظرون فيه ويظهرون زيغهم، وعزلهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين لصبيانهم أو مؤدبين، وأمرهم ألا يجتمعوا، وأدّب جماعة منهم بعد هذا خالفوا أمره، وأخافهم، وتوّب جماعة منهم فكان يقيم من أظهر التوبة منهم على البوادي، وغيرها فيعلن بتوبته عن بدعته "(٢).

ويذكر أن هؤلاء المعتزله تمكنوا من تأسيس إمارة لهم في المغرب الأوسط وبالتحديد غربي تاهرت في منطقة أيزرج(٣) أسسها إبراهيم بن محمد المعتزلي البربري(٤).

أيضا كان للمرجئة أتباع في القيروان وقد أتّهم يحيى بن سلام (١٢٤هـ-٢٠٠هـ) باعتناق مبادئهم غير أنه نفى عن نفسه تلك التهمة واستنكر تمذهبه بذاك المذهب مع فتواه للناس بكونه بدعة " كيف وقد حدثتكم أنه بدعه " وهذا يوضح بجلاء وصول المرجئة الى بلاد المغرب ويذكر أن الجدل كان في مساءلة تعريف الإيمان(٥).

هذا بالنسبة للمذاهب غير السنية، أما المذاهب السنية المعروفة وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، فإن المذهب الحنفي كان أقدم المذاهب السنية نشوءاً في المشرق الإسلامي وتبعاً لذلك كان صداه لابد أن يصل إلى القيروان عاصمة المغرب

---

(١) الأثر السياسي للمالكية. ص ٢٥٤ .

(٢) رياض النفوس. جـ ١ ص ٢٧٦ ، ص ٢٧٧ .

(٣) أيزرج: مدينة في المغرب الأوسط تلي تاهرت (ابن الفقيه الهمذاني - مختصر كتاب البلدان.ص٨٠)

(٤) محمد الطالبي: دراسات في تاريخ أفريقيه. ص ١٥٩ ، السيد محمد أبو العزم داود: الأثر السياسي للمالكية ص ٢٥٥ .

(٥) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ أفريقية. ص ١٥٨ .

الإسلامي ومركزه الثقافي والديني والسياسي عن طريق الطلبة المغاربة[١].

ويعتبر انتشار المذهب الحنفي هناك أمرا طبيعياً ناتجاً عن دخول بلاد المغرب في دائرة الخلافة العباسية التي تدين بمذهب أبي حنيفة، وقد سار على نهجهم أمراء بني الأغلب، وهذا ما يوضحه السلاوي حين يذكر " أخذ أهله - أهل بلاد المغرب - بعدها بمذهب أهل العراق في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذٍ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم إمامهم "[٢]. لكن يبدو أن الأحداث التي مرت بها أفريقيه قد تركت آثارها في نفوس الناس إذ كانو يرفضون الإجتهاد ويتورعون عن الأخذ به في أبسط الأمور مصرّين على الإعتماد على النصوص من الكتاب والسنة خوفاً من الإنزلاق في متاهات الجدل والنقاش الذي قد يؤدي إلى الزلل[٣].

وهذا الطابع العام الذي بدا على ذوي الفكر والعامة آنذاك أدّى فيما بعد إلى انتشار مذهب مالك.

لما تولى الإمارة في إفريقية إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ كان القاضي في القيروان هو عبد الله بن غانم (١٢٨هـ-١٩٠هـ) من قبل الوالي روح بن حاتم الذي يقال إن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة أشار عليه بتعيينه، كما يذكر أن الذي أشار على الوالي روح بن حاتم بتعيينه قاضياً عبد الله بن فردخ حين أجبره روح على تولي هذا المنصب فرفض، فطلب منه أن يعيّن أحداً، فأشار عليه بعبد الله بن غانم، وهناك رأي ثالث يقول إن الذي ولّى عبد الله بن غانم القضاء هو الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ في حياة الإمام مالك (٩٣هـ-١٧٩هـ) الذي سُرّ لذلك التعيين فقد روى عنه أنه قال لتلامذته في حلق العلم " أعلمتم أن الفتى الرعيني الذي كان يأتي إلينا قد استقضى

---

(١) السيد محمد أبوالعزم داود: الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقية. ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع . جـ ١ ص ١٣٧ .
(٣) عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقيه ص ٣٦ .

على إفريقيه "[١]

وأصل أبيه والد عبد الله بن غانم من العرب الذين كانوا بإفريقية أيام بني أمية وكان من الشجعان المحاربين، يقال إنه قتل من الخوارج الذين خرجوا على الوالي حنظلة ابن صفوان في موقعتي القرن والأصنام حوالي مائة وثمانين. واسم عبد الله كاملاً هو عبدالله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن يونان بن ثوبان بن شرحبيل الرعيني[٢].

وكان عبد الله بن غانم صديقا حميما للإمام مالك بن أنس وكان هذا الأخير يقدر ابن غانم ويعجب به حتى أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده فرفض ابن غانم وقال للإمام مالك " إن أخرجتها معي إلى القيروان تزوجتها "[٣] ، ولعل في ذلك التقدير والرغبة من الإمام مالك في مصاهرة ابن غانم أكبر حجة على أنه من خيرة الناس علماً وفقهاً وحسن خلق وعشرة " كان من أهل العلم والدين والعقل والورع والتواضع والفصاحة والجزالة "[٤] .

غير أن علاقته كقاضٍ بالأمير الأغلبي الجديد لم تكن على ما يرام، ولعل ذلك مردّه التقدير الكبير الذي كان يوليه الخليفة هارون الرشيد لابن غانم. فقد ذكر الرقيق القيرواني أن الخليفة هارون الرشيد أرسل بكتابين أحدهما إلى أمير إفريقية إبراهيم بن الأغلب والآخر إلى قاضيها عبد الله بن غانم، فدفع رسول الخليفة إلى كل منهما رسالته فأخذ الأمير إبراهيم رسالته فقرأها ودفعها إلى ابن غانم فقرأ الرسالة ابن غانم وأعادها إلى الأمير، فطلب الأمير من ابن غانم أن يُقرئه كتابه فرفض القاضي، فقال الأمير إبراهيم للقاضي ابن غانم فلِمَ قرأت كتابي ؟ قال " أنت دفعته إليّ ومددت به

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١١ - المالكي : نفس المصدر جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) المالكي : نفس المصدر جـ١ ص ١٤٣ حاشية رقم ١
(٣) المالكي : نفس المصدر ص ١٤٤ .
(٤) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٩ .

يدك وكرهت أن أردها ، وأما أنا فلست أطلعك عليه فإن أمير المؤمنين أسرّ إليّ فيه شيئاً لا أطلع عليه أحدا " فقال له الأمير إبراهيم " أما علمت أنه يقال إن أمير إفريقية يقتل قاضيها ". قال القاضي ابن غانم " أعلم أنه قد ذكر ذلك، ولكن لست ذاك الأمير ولا أنا ذاك القاضي "[١] .

ويلاحظ من استقراء سيرة ابن غانم في القضاء والفتوى أنه كان يأخذ عن مالك كما يأخذ عن أبي حنيفة وفي هذا يقول الرفيق " وكان ابن غانم يكتب إلى مالك بن أنس (رحمه الله) وإلى أبي يوسف القاضي فيما نزل من نوازل الخصوم "[٢] ويقال إنه خصص يوماً في الجمعة لتدريس طلبته كتب وفقه أبي حنيفة[٣] ونستنتج من هذا أن قضاة القيروان أفتوا بالمذهبين مما يدلل على أن الأمر لم يكن يعني عصبية مذهبية إنما كان جهداً وبحثاً لاستنباط حكم قويم لا يخرج عن الكتاب والسنة، لكن الوضع الذي عاشه أهل القيروان (كم أسلفنا الحديث آنفاً) حيث كانت مرجلاً يغلي بمختلف المذاهب والنحل قد أدى إلى الميل نحو الأخذ بمذهب الإمام مالك بن أنس لبعده عن الفرضيات والجدل والنقاش واستحداث المسائل قبل وقوعها إلى غير ذلك .

كانت وفاة ابن غانم سنة ١٩٠هـ بداية لسيادة المذهب الحنفي في إفريقية بشكل رسمي حيث عين الأمير إبراهيم بن الأغلب أبا محرز محمد عبد الله بن قيس الكناني[٤] قاضيا على كرهٍ منه كما يذكر المالكي ذلك[٥] إذ لم يقبل أن يتولى المنصب إلا بعد أن شده صاحب شرطة الأمير إبراهيم وأجلسه مقصورة المسجد الجامع

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب ص ٢٢٩

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٠

(٤) أبومحرز : محمد بن عبدالله بن قيس بن يسار بن مسلم الكناني من المعدودين من أصحاب مالك شديد الورع (المالكي : نفس المصدر جـ١ ص١٨٩) .

(٥) رياض النفوس جـ ١ ص ١٨٩ .

وطلب منه النظر بين الخصوم .

وكان أبو محرز نزيهاً فيقال إنه لما تولى القضاء جمع كل ما عنده من عبيد وماشية وأراهم للناس وقال لهم " هذا ما أملكه وإنما أوقفتكم عليه لتعلموا أنني متى مازدت على ذلك فاعلموا أني خائن "[١] .

وكان ابو محرز ممن يأخذ بالرأي والقياس ولذا تعتبر فترة توليه فرصة للأحناف لنشر مذهبهم وسيادة أحكامهم[٢] .

على أن حدثاً جللاً قد حدث في أثناء ولاية أبي محرز القضاء، إذ قام الأمير زيادة الله الأول بتعيين قاضٍ ثانٍ[٣] إلى جانب أبي محرز، ولا يمكن تفسير تلك الحادثة على أنها محاولة لتخفيف الأعباء عن القاضي الأول فتلك سذاجة واضحة، إنما لابد من أن يكون وراء ذلك التعيين النادر الحدوث مرمى بعيد، فإذا كانت المصادر التي بين أيدينا لم تنوه عن السبب الذي من أجله تم تعيين قاضٍ آخر للبلاد إلا أننا يمكن أن نستنبط الهدف إذا علمنا أن القاضي الثاني هو أسد بن الفرات المالكي الحنفي المذهب كما سنرى فيما بعد . فلا بد من التنويه إلا أنه رغم كون القاضي أبو محرز من علماء السنة الأحناف الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يسيروا في اتجاه مخالف لمذهب السنة إلا أن الشعب كان يرفض الأخذ من الأحناف مذهبهم والإحتكام إليهم وهذا الإتجاه نحو

---

(١) المالكي : نفس المصدر جـ١ ص ١٩٣ .

(٢) السيد محمد أبوالعزم داود: الأثر السياسي والحضاري ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) حول موضوع تعيين قاضيين في بلد واحد ذكر الماوردي أن هذا التعيين جرى على تخصيص لكل معينة من البلد حيث اختص لكل واحد منهما على موضع ينظر فيه . أو يخصص قاض ناحية لكل قاض منهما نوعاً من الأحكام فله ذلك كأن يجعل أحدهما على المناكح والأخر على المدينات ، أما أن لا يعين لكل واحد منهما عمل فقد أجاز بعض العلماء هذا الأمر والبعض الآخر لم يجزه لما فيه من الفوضى والنزاع (الأحكام السلطانية ص ٧٣).

مذهب مالك هو نتاج البيئة لا محال. فالوضع الذي عاشه الأفارقة من انتشار كثير من النحل كالإباضية والصفرية والمعتزلة أدى إلى تمسكهم بمذهب مالك دون غيره لاعتماده على الحديث وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم فكأنما أرادوا بتمسكهم هذا توحيد المنهج الذي يأخذون عنه وهذا دفعهم إلى أن يرفضوا من أسد بن الفرات ذاته فتواه بمذهب أبي حنيفة ويطالبون برأي مالك[١] . هذا الوضع الذي عاشه الشعب فرض على السلطة الحاكمة بعضاً من التغيرات في الجهاز الإداري ولاعجب أن نجد تلك التغييرات تحدث بما ليس له نظير كتعيين قاضيين مثلاً، لا سيما إن كانت الدولة تمر بظروف صعبة. ذكر السيد محمد أبو العزم ما يفيد ذلك بقوله " لقد أدرك زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذي تولّى بعد أخيه عبد الله (٢٠١هـ، ٢٢٢هـ) أنه من المفيد له ولدولته أن يحسن علاقته بزعماء الشعب من فقهاء المالكية وعبادها، لاسيما وأن الإضطرابات الداخلية من جانب الجند ومن جانب العامة قد شملت البلاد وعمتها ولم يبق بين يدي زيادة الله في بعض الأحيان إلا العاصمة القيروان وبعض الأقاليم الساحلية لذا فقد عين زيادة الله بن الأغلب أبا عبدالله أسد بن الفرات تلميذ الإمام مالك وصاحب الشعبية الكبيرة في إفريقية قاضياً على إفريقية سنة ٢٠٣هـ إلى جانب قاضيه الحنفي أبو محرز"[٢] .

أما ماذكره المالكي والدباغ حول سبب تعيين أسد بن الفرات بأنها كانت بطلب من الوزير علي ابن حميد المعروف بمناصرته لمذهب مالك[٣] . فان ذلك الطلب يمكن تفسيره في ضوء ما حللناه من وضعية الشعب والوضع السياسي بالإضافة إلى أننا لا نشك في

---

(١) الدباغ : نفس المصدر . جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقية ص ١٢٥.

(٣) رياض النفوس : جـ١ ص ١٨٥ ، معالم الإيمان : جـ ٢ ص ١٩ .

أن الوزير علي بن حميد الذي كان كارهاً لولاية أبي محرز القضاء لكونه حنفيا لرغبته في الحفاظ على الهيكل التشريعي على مذهب الإمام مالك دون سواه من المذاهب السنيه الأخرى فاندفع بطلبه هذا إلى الأمير زيادة الله واصفاً له أسداً بأحسن الصفات من علمٍ وخلق وحسن عشرة فرفض الأمير عزل القاضي الحنفي أبي محرز وترضيةً لوزيره عين إلى جانبه أسد بن الفرات كقاضٍ ثانٍ.

وأسد بن الفرات لم يكن مالكياً خالصاً إنما كان صاحب مذهبين، فلا ينكر له مطلقاً مناصرته لمذهب الإمام مالك، ولا ننس فضله في نشر هذا المذهب في إفريقية، ولكنه كان أيضاً يأخذ بالرأي والقياس على طريقة الأحناف أهل العراق، وفي هذا يقول القاضي عياض " رحل أسد إلى العراق فتفقه بأصحاب أبي حنيفة ثم نُعي مالك فارتجت العراق لموته قال أسد " فوالله ما بالعراق من حلقة إلا وذكر مالك فيها كلهم يقولون مالك ! مالك! مالك! إنا لله وإنا إليه راجعون » قال أسد فلما رأيت شدة وجدهم واجتماعهم على ذلك ذكرته لمحمد بن الحسن وهو المنظور فيهم وقلت له لأختبره " ماكثرة ذكركم لمالك على أنه يخالفكم كثيراً ؟ فالتفت إليّ وقال لي: أسكت كان والله أمير المؤمنين في الآثار " فندم أسد على ما فاته منه وأجمع أمره على الإنتقال إلى مذهبه فقدم مصر "[1] . فهذا النص يوضح بجلاء حقيقة أسد فهو حنفي المذهب ثم أصبح مالكياً على أن ذلك لا يعني إطلاقاً إلتزامه بمنهج مالك في الفتوى بل كان يأخذ بمنهج أهل العراق كما أسلفنا القول.

وإذا كان أسد في حلقات الدرس التي كان يلقيها في المسجد الجامع قد ساهم في نشر مذهب الإمام مالك فإن كتابه (الأسديه) كان العمد الأساسي في الفقه الإسلامي

---

(١) تراجم أغلبية ص ٥٦ .

المالكي في بلاد المغرب قاطبة (١) .حيث أن مدونة سحنون بن سعيد التي أخذ عنها الناس الفقه المالكي مستقى من أسدية أسد بن الفرات مع تنقيح وتوضيح وزيادة وشرح، ولأسد يعود الفضل الأكبر في إيجاد كتب للمالكية آنذاك يتناقلونها ويدرسونها ويجعلونها مرجعهم في الفتوى إذ كتابه كان أول مؤلف بالمعنى الحقيقي في الفقه المالكي (٢) .

على أن سير أسد بن الفرات على نهج الأحناف في الأخذ بالرأي والقياس لم يجد استحساناً من بعض أتباع المالكية مثل العابد أبو خالد عبد الخالق (٣) الذي عتب علي أسد منهجه ذلك وقال له: "أما علمت ياعبد الخالق أن قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو رأي لهم وأثر لمن بعدهم وكذلك التابعين هو رأي لهم وهو أثر لمن بعدهم" (٤) .

وكانت الغالبية العظمى من سواد المسلمين في القيروان لا يأخذون عن أسد فتواه بمذهب الإمام أبي حنيفة فاذا أفتاهم به سألوه أن يعطيهم فتوى إمام دار الهجرة " كان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب إلى مذهب أهل

---

(١) لابد من التنويه إلى أن الأسدية لم تكن أول مؤلف فقهي في بلاد المغرب على المذهب المالكي وإنما كان الفضل لعلي بن زياد (ت١٨٣هـ) في مجال التأليف الفقهي إذ سمع الموطأ عن مالك وأدخل نسخة منه لإفريقية وقام بكتابة المسائل في الفقه والفتوى وهو عمل لم يسبقه فيه أحد ولا ابن القاسم الذي كان من المقربين للإمام مالك " فأقبل على بن زياد على تصنيف المسائل وتبويبها وخرجها كتبا كتباً على مواضع الأحكام الفقهية (محمد الفاضل بن عاشور : أعلام الفكر الإسلامي ص ٢٥) .

(٢) عبدالعزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقيه ص ٥١ .

(٣) أبوخالد عبد الخالق: من المجتهدين في العبادة كثير الخوف دائم الحزن من أصحاب البهلول روى عنه واصل بن عمر المتعبد وحسنون بن هلال صاحب سحنون توفي سنة ٢١٠هـ (الدباغ : معالم الإيمان جـ٢ ص ٢٧ ، المالكي : الرياض -جـ١ ص ٢٣٣)

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ١٨٣ .

المدينة، أوقد القنديل الثاني ياأبا عبد الله، فيسرد أقوال المدنيين "[١] ، ويبرز النص احترام أهل القيروان لمذهب الإمام أبي حنيفة الخالي من آراء أهل الجدل والاعتزال فهو بمثابة قنديل كما هو حال مذهب الإمام مالك رضي الله عنه عندهم ولعل هذا يؤكد أن القضية عند القيروانيين لم تكن عصبية مذهبية فقط ينجرفون وراء تيارها فتنعدم معها الرؤية عندهم لأي مصدر آخر.

والدباغ يجعل أسد في طبقة أئمة العراقيين بالقيروان ويردف قوله هذا بقول (ودينه ومذهبه السنه) يقول (القرآن كلام الله ليس بمخلوق) وكان يبدع من يقول غير هذا[٢] فيدل هذا النص على أن أسداً من علماء السنة بغض النظر عن كونه مالكياً أو حنفياً، ولهذا وجد المالكية في شخصه مؤيداً وناصراً، ولكونه يأخذ بالمذهبين (الحنفي ، المالكي) كان الناس يستفتونه بأي المذهبين يأخذون عنه، فقد سأله عبد الرحيم الزاهد عن ذلك فأجابه أسد بقوله (إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بقول مالك، وإن أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق)[٣] . ولايعني ذلك أن الحق مع مذهب مالك ونقيضه في مذهب أبي حنيفة لا وإنما مذهب مالك لكونه قائما على الكتاب والسنة شديداً في الأخذ بهما كان أقوى في الحق وأثبت لوجود النصوص الصريحة التي تبنى عليها الأحكام، أما مذهب أبي حنيفة لاعتماده على الرأي والقياس كان يحمل طابع الرخص كثيراً فكان بذلك لأهل الدنيا والراغبين في التمتع بها أحسن وأفضل. ونحن نرى أن أسداً إن كان حنفياً أو مالكياً فهو بحقٍ يعتبر ناصراً للسنة، ومن سمات العالم الفطن أن يأخذ مايرتاح إليه بعد بحث ودراسة فإن كان قد أخذ عن الأحناف طرق القياس والرأي فانه قد هذب علمه يأخذه عن مالك الأثر وجدّ في تلقي العلم عن علمائه

---

(١) الدباغ : نفس المصدر : جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) معالم الإيمان : جـ ٢ ص ١٨ .

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبيه ص ٦٨ .

الأجلاء الأمر الذي جعله أهلاً للتأليف والتدريس. كما لايمكن إغفال أثره قط في إثراء المذهب المالكي حتى إنه ليوصي الناس يوم خروجه لفتح صقليه باتباعه علماً وقضاءً ويعلل موقفه هذا عبد العزيز المجذوب يقول " أحسب أنه أوصى بذلك لأنه يوقن أنه لم يخلف تلميذاً ولا تابعاً ينهج نهجه في العلم ولائقة له في الكثير من العراقيين الذين خلفهم وراءه، وقد سبر أغوارهم وعرف اتجاهاتهم "(١) وهذا التعليل في رأينا لايقوم على حجة قوية فمن غير المعقول ألايكون هناك عالم فاضل من علماء الأحناف(٢) يستحق أن يحمل لواء الفقه الحنفي وينشره بين الناس لكن يمكن القول أن مالمسه أسد في الناس أثناء فترة قضائه من ميل الى القرآن والسنة والرغبة في الأخذ منهما دون سواهما - أي التزام منهج مالك رحمه الله تعالى مما دفعهم إلى رفض كل ماعداه حتى لو كان مذهب أبي حنيفة الأصيل، هذا هو الذي دفع أسد بن الفرات أثناء خروجه لصقلية أن يوصي الناس بالتزام المذهب المالكي في فترة أصبح الناس فيها يجاهدون عدواً خارجياً فالأولى أن يكونوا متحدين فكرياً فاذا كانت الرغبة عند العامة أميل إلى مذهب الإمام مالك فالدعوة الى الإلتزام به في مثل هذه الظروف أحوج للمواجهة وتحقيق الهدف.

غير أن الإزدهار الذي عرفته المالكية زمن عبد الله بن غانم وأسد بن الفرات ماكان ليستمر إذ باستشهاد أسد في غزوة صقليه سنة ٢١٣هـ ثم وفاة القاضي الآخر (أبو

---

(١) عبد العزيز المجذوب : نفس المرجع . ص ٥٩ .

(٢) تمكنا من معرفة بعض العلماء الأحناف الأجلاء من أمثال عبد الله بن هارون الكوفي السوداني الذي عبد الله أبو طالب على مدينة تونس ، وهشام العراقي الذي كان يحضر مجالس مناظرة استقضاه ابن طالب (المالكي : رياض النفوس جـ١ ص ٤٩٩ - ٤٩٧) وهؤلاء كانوا علماء في فترة ليست بعيدة عن عصر ابن الفرات كما لا يمكن أن ننسى سليمان بن عمران الذي كان معاصراً لأسد بن الفرات وملازماً له حتى سمى بحروفه لعدم مفارقته له (المالكي - رياض النفوس جـ١ ص٤٩٠)

محرز) سنة ٢١٤هـ يظل منصب القضاء شاغراً حتى سنة ٢٢٠هـ " وذلك أن الحوليات لاتذكر لنا تولية أحمد بن أبي محرز لقضاء إفريقية التي اعتز بها زيادة الله إلا في سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٤م "[١] ولا نعلم سببا واضحاً لخلو ذلك المنصب طيلة ست سنوات تقريباً، أهو الإنشغال الذي كان فيه الأمير زيادة الله حيث الإضطرابات المتعددة في أنحاء إفريقية والتي استنفذت منه وقتاً طويلاً، أم أن رفض العلماء لمنصب القضاء هو السبب[٢] . على كل عيّن الأمير زيادة الله أحمدَ بن أبي محرز منصب القضاء على كرهٍ منه وأجبره عليه قسرا إذ أرسل رسولاً إلى جماعة العلماء يأتيه بخبر من يؤمهم في الصلاة، فلما حانت الصلاة قدموا عليهم أحمد بن أبي محرز فلما علم زيادة الله بذلك قال " من رضوه لدينهم رضيته أنا للدنيا "[٣] . وأجبره على قبول ولاية القضاء.
ومن أهم مايميز أحمد بن أبي محرز سعة علم مع تقوى وحرص على السنن ومحافظة عليها. كما لاينسى له إطلاقاً محاربته لأهل الأهواء والبدع " وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع قامعاً لهم غيوراً على الشريعة شديداً في ذات الله تعالى "[٤] ، ولم تعطنا المصادر التي بين أيدينا صورة دقيقة واضحة عن مذهبه أهو حنفي أو مالكي أم غير ذلك، لكن من المرجح أنه كان من علماء الأحناف الأجلاء لما عرف عن زيادة الله من شدة تعصبه لمذهبه، فغالباً لايعين لهذا المنصب إلا حنفياً. على أن مدة حكمه لم تطل إذ لم يستمر في منصبه أكثر من تسعة أشهر حيث توفي سنة ٢٢١هـ، ويقال إنه

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . جـ٢ ص ٧٠ .

(٢) تدل رواية المالكي على إحجام العلماء عن منصب القضاء " وكان سبب توليته القضاء أن الناس احتاجوا الى قاض . وكانوا في ذلك الوقت إذا عرض القضاء على أحد امتنع من ذلك (المالكي : رياض النفوس جـ١ ص ٣٠٦) .

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٠٦ .

(٤) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ٤٠ .

لم يحكم فيها إلا حكماً وفي رواية بحكمين ، قال سحنون بن سعيد " إن سلم أحد من القضاة فما سلم إلا أحمد بن أبي محرز، لم يقض في أيامه إلا في قضيتين أداهما من ماله "(١) وكان زيادة الله يفتخر بتوليته القضاء ويحتسبها عملاً صالحاً سينال أجره في الآخرة " لا أبالي إن سألني الله ماقدمت عليه يوم القيامة وقد قدمت عليه بأربعة، قيل وماهنّ ؟ قال: بنائي المسجد الجامع بالقيروان ، وبنائي القنطرة بباب أبي الربيع ، وبنائي الحصن بسوسه ، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية "(٢) ويوم وفاته تحسر أيما حسرة وقال " ياأهل القيروان لو أراد الله بكم خيراً لم يزل أحمد بن أبي محرز بين أظهركم "(٣) . أما أثر فترة حكمه على المذهب المالكي فنحن نراها فترة نشاط للمالكية إذ سبق عهده لست سنوات لم يكن فيها قاضي ثم فترة حكمه التي لم تتجاوز التسع شهور وهو من عُرِفَ بالورع والتقوى ومحاربة أهل الأهواء فكانت تلك المدة للمالكية بمثابة المكسب للإستمرار في نشاطهم لاسيما وأننا سنجد بعد ذلك أن منصب القضاء يشغله أحد أعداء المالكية من الأحناف المعتزلة وهو عبد الله ابن أبي الجواد الذي استمر في منصبه مدة أحد عشر عاماً من سنة ٢٢١هـ حتى سنة ٢٣٢هـ ذاق خلالها المالكية وأتباعهم صنوفاً من الشدائد فكان جديراً باللقب الذي أطلقه عليه الإمام سحنون " فرعون هذه الأمة وجبارها وظالمها "(٤) .

فمنذ بدء تولية ابن أبي الجواد لهذا المنصب وهو يضرب بيدٍ من حديد على المالكية يقتل ويضرب ويتعقبهم هنا وهناك ومن سوء حظ المالكية أن تطول فترة توليه القضاء مدة أحد عشر عاماً (٢٢١هـ إلى ٢٣٢هـ) والشيء الغريب في الأمر استمراريته في

---

(١) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ٤٢ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ٤٢ .

(٣) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ٤٨ ، المالكي: نفس المصدر . جـ ١ ص ٣٠٨ .

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٩ .

هذا المنصب حتى بعد وفاة الأمير زيادة الله سنة ٢٢٣هـ فهل يعني ذلك أن المالكية لم تعد لهم قوة على المواجهة بسبب المعاناة الشديدة التي نالوها من ابن أبي الجواد ؟ الواقع أن المالكية آنذاك لم يكن لهم مركز في السلطة الإدارية لكن شعبيتهم استمرت ونشاطهم وحركتهم مازالت، بل إن نفوذهم على الأمير ذاته كان واضحاً للعيان. ذكر السيد محمد أبوالعزم داود قوله:" إن الأمير الأغلبي أبا عقال الأغلب بن إبراهيم الملقب بخزر، الذي تولى الإمارة بعد وفاة الأمير زيادة الله (٢٢٣هـ - ٢٢٦هـ) كان يسير على النهج الذي وضعه فقهاء المالكية بالقيروان فكان يراقب العمال بنفسه ويمنعهم من الإستيلاء على أموال الناس. كما قطع النبيذ من القيروان وعاقب على بيعه وشربه "(١) .

إذاً سطوة ابن أبي الجواد ماكانت لتخمد جذوة النشاط المالكي إطلاقاً فوجود العلماء الأفاضل من أمثال سحنون بن سعيد (توفي سنة ٢٤٠هـ) وموسى بن معاوية الصمادحي (توفي سنة ٢٢٥هـ) وعبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي سنة ٢٢٧هـ) . وغيرهم بما عُرِف عنهم من نشاط في تحصيل العلم ونشره له كبير الأثر في استمرارية التيار المالكي في إفريقية إذ الشعبية الكبرى التي كانت للمالكية قد أدت فعلاً إلى إيجاد رأي عام معارض أو مؤيد، لكن الشيء الذي يبعث على التساؤل هل كانت أفعال ابن أبي الجواد خافية على الأمير الأغلبي سواءً من عصر زيادة الله الأول أو بعده ؟ ، أعتقد أن هذا أمر مستبعد إذ نرى للأمير زيادة الله حكماً قاسياً حكمه على سحنون لأنه لم يصل خلف ابن أبي الجواد لأنه ممن يقول بخلق القرآن على جنازة حضرها سحنون فأبلغ ابن أبي الجواد الأمير زيادة الله الذي قام بدوره بوضع عقوبة

---

(١) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيه ص ١٣٤ .

للإمام سحنون تتمثل في ضربه خمسمائة سوط وحلق رأسه ولحيته وبعث بتعليماته هذه إلى عامله على القيروان لكن تدخل الوزير علي بن حميد في الأمر، وذهب إلى الأمير زيادة الله وذكره بما حدث للوالي العباسي محمد بن مقاتل العكي إثر اعتدائه على الفقيه العالم البهلول ابن راشد: قال الوزير علي بن حميد للأمير زيادة الله " ما شيء بلغني في كذا" قال " نعم " قال " لا تفعل فإن العكي إنما هلك في ضربه للبهلول بن راشد " فقال " وهذا مثل البهلول ؟ " قال " نعم وقد حبست البريد شفقةً على الأمير " فشكره ولم ينفذ أمره[1] .

إذاً لم تكن أعمال القاضي ابن أبي الجواد خافيةً على الأمير زيادة الله بل من الواضح أن سياسة القاضي والأمير كانت تسير وفق نهج واحد وفي مركبة واحده. ولعل الناظر في هذه الحادثه وغيرها من الحوادث يسترعي انتباهه أمرين :

أولاً: أن الأمراء كانوا يتعظون إذا ذكروا ويفيقون من غفوتهم إذا نُبّهوا ولا شك أن ذلك عائد الى ثقتهم في ولاء الناصح لهم وإلاّ ما الذي يستدعي زيادة الله أن يقلع عن تنفيذ قراره ويشكر وزيره لولا تلك الثقة في إخلاصه له.

ثانياً : إ ن الأمراء كانوا يخشون سلطان الدين ويعرفون للعلماء قدرهم وحرمتهم، وليس أدل على ذلك من قول زيادة الله للوزير علي بن حميد " وهذا مثل البهلول " فهذا دليل على خشية العلماء وإكرامهم تجعل الأمراء يتغاضون عن تصرفاتهم وإن لم ترُق لهم ويتنازلون عن قراراتهم بعد إصدارها.

وهذا التوضيح يجعلنا ندرك سر استمرارية النشاط المالكي لكن هناك نقطة كان لها أثر في استمرارية ذلك النشاط في قمة ذروته ويقلل من المعاناه التي عاناها علماء المالكية، وذلك هو رفض المالكية لمناصب الدولة ونحن لانغفل بحال من الأحوال

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٨٥ .

قيمة المنصب في ازدهار وسيادة المذهب وقد عُرف عن علماء المالكية تجنبهم قدر الطاقة مناصب الدولة لخوفهم من الإنزلاق في متاهات السلطان[١] .

وتلك السمة وإن كانت تحمل طابع النزاهة والحرص الشديد تحسباً من عدم القدره على إقامة العدل إلا أنها على الجانب الآخر كانت تؤدي إلى نوع من الغلبة لأصحاب المذاهب الأخرى. ومما يقوي حجتنا أننا نرى في فترة تولي سحنون القضاء إزدهاراً عظيماً للمالكية مرده أن قاضي الأمير مالكيّ وسوف يحرص على تسيير دفة البلاد في جميع جوانبها على منهاج مستقى من مذهب الإمام مالك رحمه الله.

وسحنون ولد (سنة ١٦٠هـ) وهو عربي الأصل من حمص في بلاد الشام قدم والده إلى بلاد المغرب مع جيوش الخلافة القادمة إلى إفريقية واسمه عبد السلام وسحنون لقب غلب عليه[٢] .

تلقى سحنون العلم بإفريقية عن علي بن زياد والعباس بن أشرس والبهلول بن راشد وعبد الله بن غانم ومعاوية الصمادحي، كما رحل إلى المشرق. وسمع من مصر على عبد الرحيم بن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم ويوسف بن عمر وغيرهم. وفي المدينة أخذ عن عبد الله بن عبدالله بن نافع ومعن بن عيسى وأنس بن عياض والمغيرة بن عبد الرحمن وغيرهم. أما في مكة فقد تلقى عن سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث ويزيد بن هارون ويحيى بن سليمان وابن داود الطيالسي وأبي إسحاق الأزرق كما ذهب إلى الشام وسمع فيها عن الوليد بن مسلم وأيوب بن سويد[٣] . واستغرقت رحلته العلمية هذه حوالي ثلاث

---

(١) راجع شروط الإمام سحنون لتولي القضاء وعيسى بن مسكين في عياض تراجم أغلبية ص ١٠٠ و ٢٣٧ لتدرك حرص الفقهاء على الابتعاد عن المناصب .

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبيه ص ٨٦-٨٧ ، المالكي: رياض النفوس جـ١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٧٨ .

سنوات (١٨٨هـ-١٩١هـ) عاد بعدها إلى القيروان وقد أخذ على عاتقه نشر مذهب مالك وأصبح لنشاطه الواسع أثر ملموس في كثرة أصحابه الذين يتلقون عنه فقه مالك. ذكر عياض نقلاً عن الخشني قوله " كان أصحابه مصابيح في كل بلدة وقد عُدّ له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته "(١) . وأكبر عمل قدمه سحنون لخدمة المالكية في عصره ولسائر العصور مدونته العظيمة التي أصبحت المرجع الفقهي لمذهب مالك في كافة أنحاء المغرب وصقلية والأندلس وكان بتوليه القضاء بشروط وضمانات قد أدى إلى انتصار المالكية معنوياً ومذهبياً، وحين ننظر إلى تلك الشروط نجد فيها الجرأة والتصدي للأمير وأهله ما يجعلنا نتعجب من سبب موافقة الأمير محمد بن الأغلب على تلك الشروط. فهل كان مذهب الأمير محمد بن الأغلب مالكياً ؟ . الحقيقة أن الأمير محمد بن الأغلب كان حنفياً وكان قد عاصر كبار أئمة المالكية في القيروان من أمثال عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (٢٢٧هـ) والبهلول ابن عمرو بن صالح (ت سنة ٢٣٠هـ) فعلى مايبدو لهذا الأمر أثره(٢) .

إلى جانب أن أمراً آخر غير مجرى الأحداث وكان في صالح المالكية ذلك هو التحول الذي أحدثه الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢هـ-٢٤٧هـ) في سياسته الدينيه حيث منع المناظرات في القرآن وغيرها من المسائل التي كانت مثار جدل في المحيط العلمي والسياسي والديني فكانت أعماله تلك بمثابة تهدئة لمحاولة كسب الفقهاء ضد الحرس من الأتراك، الأمر الذي نتج عنه في النهاية التخلي عن آراء الإعتزال بصورة رسمية، وفي هذا يقول محمد الطالبي " فلوحظ بالشرق منذ سنة ٢٣٢هـ حتى سنة ٢٤٧هـ تحول واضح سوف يتزايد في اتجاه رياح السياسة الدينية كما لوحظ في نفس

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٢٠ .

(٢) سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي جـ٢ ص ٨٦ .

الوقت تغير في نفس الإتجاه بإفريقية. ولم يكن هذا التطابق محض صدفة قطعاً إذ كان مركب الخلافة وزورق الإمارة يعبران نفس المياه وخضعا في نفس الوقت لذات المناورات"[١].

حرص سحنون منذ توليه على محاربة أهل الأهواء والبدع والخارجين على الإسلام السني الصحيح ومافتيء يجابه كل المناوئين سواءً من كان منهم من الطبقة الحاكمة أو من خاصة تلك الطبقة أو من غيرهم. وتبدو قصة أسيرات تونس[٢] اللاتي سباهنّ حاتم الجزري كصفحة ناصعة في الأمانة والدقة والتحري لإقامة العدل لصالح من؟ ومع من؟، طالب القاضي سحنون حاتماً برد السبي إذ هم أحرار ولا يوجد حق يجعل حاتماً يسبيهم وأرسل إليه جماعة من صحابته تمكنت من تخليصهم منه فذهب إلى الأمير محمد بن الأغلب وشكى إليه الأمير فأرسل الأمير إلى سحنون يطالبه برد السبي على حاتم فرفض وقال لرسول الأمير قل للأمير " جعل الله حاتماً شفيعك يوم القيامة " وأصر القاضي على موقفه من الأمير وكتب إليه رسالة زادت من حدّة الموقف بين الطرفين حتى قال الأمير محمد (ماأدري أهو علينا أم نحن عليه ؟) لكن تظل صورة القاضي سحنون عند الأمير صورة صافية لايعتريها غبار شك في إخلاص وحسن نية ونزاهة قاضيه عبّر عنها بقوله لمن حوله " ماأظن هذا الرجل يريد بنا إلا خيراً "[٣].

ولم يكن موقف سحنون هذا في وجه الأمير لأنه يتحدث من مصدر قوي إذ هو

---

(١) الدولة الأغلبية ص ٢٥٨ .

(٢) السبي في الإسلام يكون على غير المسلمين أثناء قيام الحرب بين المسلمين وأعدائهم. وهذا لاينطبق على تونس إذ كانت تلك المدينة إسلامية وسكانها مسلمون وحوادث الشغب فيها لا تبيح معاملتها معاملة المدينة الكافرة على الإطلاق (حول موضوع السبي وأسرى الحرب أنظر : سيد سابق : فقه السنه جـ٢ ص ٢٨٠) .

(٣) المالكي: رياض النفوس جـ١ ص ٢٨٠ ، القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٠٩ .

قاضي البلاد لا بل كانت مواقفه منذ عرف الحق وسلك طريق العلم والفقه هذا نهجه وهذا دأبه مواقف صريحة وواضحة لا تخشى في الله لومة لائم " وكتب زيادة الله بن الأغلب إلى علماء إفريقية يسألهم عن مسا ءله فأخبروه إلا سحنون. فعوتب في ذلك فقال " أكره أن أجيبه فيكتب إليّ ثانية " استثقالاً لمعرفة الأمراء فقال له إبراهيم بن عبدوس في مثلها : أخرج من بلد القوم (أمس لا تصلي خلف قاضيهم، واليوم لا تجيب في مسألتهم " فقال سحنون " أجيب رجلا يتفكه بالدين ؟! لو علمت أنه يقصد الحق أجبته " وذلك قبل قضائه(١) . فلعل مواقفه تلك جعلت الناس يلتفون حوله ويقتفون أثره ويسيرون على نهجه إذ أعطى سحنون للعامة والخاصة نموذجاً رائعاً فذا للعالم العابد العامل الفقيه النزيه لا مجاملة ولامحاباة ولا تخاذل عن نصرة الحق حتى قال بعض أصحابه عنه " لهذا والله كتب اسمك بالحبر على الرقرق "(٢) .

على أي كان تولي سحنون القضاء بمثابة الفتيلة التي أشعلت نشاط علماء المالكية لنشر مذهبهم وأداء رسالتهم العلمية والإجتماعية والثقافية دون خوف أو وجل ولا يخفى أن منعه لأهل الملل والنحل غير السنية كالإباضية والصفريه والمعتزلة من عقد حلقاتهم وحصر نشاطهم أثر كبير في عودة الناس إلى الجلوس إلى علماء السنة الأجلاَّء والسماع منهم والأخذ عنهم فأدّى ذلك بالتالي إلى عودة المجتمع المغربي قاطبةً إلى الإسلام السني الصحيح حيث اتباع مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم. وهو ما سيظل أثره إلى وقتنا هذا " لكن تحولا حاسما لارجعة فيه قام منذ ذلك الوقت رغم بعض المحاولات اللاحقه للرجوع إلى الوراء. فانضمت إفريقية رسمياً إلى مذهب السنة وستختار بعد مدة قصيرة، وبفضل التحول المتخذ بدفع من سحنون أحد الأشكال

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١١٥.

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١١٦ .

وأنقاها وأصلبها في السنه ألا وهو المذهب المالكي "[١] .

كان للتجديدات التي أدخلها سحنون في مجالات متعدده أثر في إبراز الصبغة المالكية في البلاد فمثلاً أنشأ سحنون داراً خاصة للقضاء وتلك الدار لا يجلس فيها القضاة من الحنفية مطلقاً، فإذا تولى منصب القضاء مالكي كانت تلك الدار قائمة، وإذا تولى حنفيٌ يهدم تلك الدار، كما فصل إمامة الصلاة عن الإمارة فبينما كان الأمير هو الذي يصلي بالناس في المسجد الجامع جعل سحنون بعد توليه القضاء للمسجد إماماً خاصاً. ونظر سحنون في الحسبة وكانت من قبل للأمير فتولاها هو وعيّن الأعوان وكان يتحرز في صرف رواتبهم فلايأخذها إلا من جزية أهل الكتاب.[٢]

ومن هنا نلاحظ أن سحنوناً قد حدّ من سلطات الأمير وجعلها قاصرةً على الناحية السياسية محاولة منه أن يضع الأمور في نصابها السليم وأن يجعل البلاد تسير وفق منهج سديد قويم. لكن شدة سحنون مع السلطة الحاكمة ومن يسير في ركابها قد جعلت الأمير محمد بن الأغلب ينتهج نهجاً في غير صالح الإمام سحنون حيث لم يقدم على عزله من منصبه إذ لو فعل ذلك سيقابل بموجة غضب شعبية كبرى قد تسبب له متاعب داخلية هو في غنىً عنها لذا اختار أهون الحلول وأيسرها وهي تعيين قاضٍ ثانٍ إلى جانب سحنون[٣] . مما يدلل على أن الأمير يعمد إلى التقليل من شأن قاضيه، ولم يكن يخشى عاقبة تلك السياسة إذ تقدم بها من سبقه حيث عيّن الأمير زيادة الله بن إبراهيم أسد بن الفرات قاضياً ثانياً إلى جانب القاضي الأول أبي محرز، ورغم أن القلوب كانت تميل إلى سحنون إلا أن الأمير كان يوجه الناس إلى قاضيه الثاني الطبني. فضاق الإمام سحنون وذهب إلى الأمير وشكا له الأمر وأراد أن

---

(١) محمد الطالبي: الدوله الأغلبية ص ٢٥٧ .

(٢) المالكي : رياض النفوس جـ١ ص ٢٧٥ .

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١١٤ .

يقف على حقيقة الأمر أيعلم الأمير مايجري أم لا مع ثقته بمعرفته ولذلك لما أنكر الأمير معرفته بعزوف الناس عنه في القضاء ردّ عليه الإمام سحنون " يلتعب بي وأنا إمام في العلم منذ ستين سنة "(١) . ثم ترك الإمام سحنون دار القضاء وجلس في بيته إلى أن علم بتصدّي الطبني لأصحابه والنيل منهم عاد إلى القضاء ثانيةً وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ٢٤٠هـ(٢) .

وكانت وفاة الإمام سحنون بمثابة كارثة أصابت الناس عامة والمالكية خاصة لكن لم يخبو مذهب الإمام مالك بموت سحنون ذلك أنه رحمه الله قد رسخ بقوله وعمله ونشاطه جذوة المذهب المالكي في النفوس حتى أضحى عند معتنقيه أنه هو الإسلام ولا شيء سواه(٣) . وتلك المنزلة التي وصل اليها المالكية في عهد سحنون قد رسخت فعلاً أقدام المذهب في القيروان كما أدت الى استمرارية نشاط علماء المالكية بعد وفاة إمامهم الفاضل سحنون بن سعيد إذ ترك إرثاً لا يضاهى من علماء أفاضل ساروآ على نهج أستاذهم وإمامهم.

بعد سحنون بن سعيد عُيّن سليمان بن عمران سنة ٢٤٠هـ قاضياً بالقيروان. والدارس لسيرة سليمان بن عمران يجده حنفي المذهب غير زائغ ولا منحرف (أي لم يأخذ بأقوال المعتزلة) (٤) . وهذا سر تعيين الإمام سحنون كاتباً له (ليختبره في

---

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١١٤ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٨٤ .

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ مقدمة د. حسن مؤنس ص ١٣ .

(٤) ذكر أبوالعزم داود في كتابه الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شما إفريقية ص ٢٦٦ أن سليمان بن عمران من القائلين بخلق القرآن وأن سبب العداء بينه وبين محمد بن سحنون هو عدم قول الأخير بخلق القرآن ، غير أننا لم نجد في المصادر التي ترجمت لسليمان بن عمران ما يؤكد ذلك حتى المراجع الحديثة لذلك لانرمية بالإعتزال لعدم وقوفنا على أدلة تؤكد ذلك .

سلامة مذهبه ثم قاضياً على بجاية والأربس وباجة كما ذكر المالكي . قول سحنون بن سعيد لسليمان بن عمران أثناء تعيينه القضاء هناك قائلاً " عليك يأبا الربيع بالحجازيه فرد عليه سليمان " القاضي مفتي فما كنت أفتي به فبه أقضي[١] "فسكت سحنون عنه وفي هذا دلالة على موافقته على ذلك ومن ذلك نستطيع أن ندرك الصلة بين العلماء مع اختلاف المذهب وأن سحنون المالكي يولي سليمان الحنفي ويقدر كفاءته وصدقه ويقول له " مثلك يكون ناظراً للمسلمين " لكن تولى سليمان بن عمران القضاء لم يقابل بالإرتياح حتى أن بعضاً من الناس قالوا " لقد خسف الله بالدنيا "[٢] . ونعلل ذلك بأن ولايته القضاء كانت بعد عهد سحنون الذي كانت القلوب تميل إليه ونعم الناس في عهده بشريعة الحق وسياسة العدل وتمتعوا بالإنصاف، وثمة جانب آخر كان له كبير الأثر هو أن أهل القيروان كانوا قد عانوا من القضاة الأحناف الذين اعتنقوا مبادىء الإعتزال فكرهوا أثر ذلك قضاة الأحناف وإن لم يكونوا أصحاب نحلة. ولعل عهد ابن أبي الجواد الذي كان حافلاً بالأعمال المأساوية قد ترك أثراً لم تنساه العامه فاستاؤا من القضاة الأحناف وليس أدل على كراهيتهم للقضاة الأحناف بشكل عام من شكوى أهل باجه للقاضي سحنون بن سعيد من أن قاضيهم سليمان بن عمران يقضي فيهم بمذهبه الحنفي[٣] لكن الإمام سحنون لم يعزل سليمان بن عمران إثر تلك الشكوى لأن قضاءه بمذهبه فيهم لم يقع فيه جور أو ظلم يكون حجة قوية تؤدي إلى عزله ولعل عدم عزل الإمام سحنون لابن عمران يُظهر لنا أمرين **أولهما** حسن الصلة بين العلماء من المالكية والأحناف وأن المالكية لايرفضون حكم الأحناف مادام لايخرج عن

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٧٥ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٥٦ .

(٣) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٥٢ .

كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لذا كانت قولة الإمام سحنون لأهل باجة بمثابة الحكم الفصل في هذا الموضوع. ذكر الدباغ قول ابن سحنون في ذلك " ماقدمته عليكم إلا أنا أعلم أنه يحكم بمذهبه "[١] ، **والأمر الثاني** أن سليمان بن عمران كان طيلة قضائه في عهد الإمام سحنون حنفياً معتدلاً وأن التغيير الذي حدث بعد ذلك في شخصيته كان نتاجاً لظروف مختلفة.

والذي حدث بعد أن تولّى سليمان بن عمران القضاء أمر غريب، وقد شرح هذا الوضع عبد العزيز المجذوب حين قال " وسليمان بن عمران كان له عند توليه القضاء بعد وفاة سحنون شأن وأي شأن في مقاومة المالكية وامتهانهم، كما كانت أيام ولايته أيام نكبة على سكان القيروان . لقد أحدث هذا الفقيه الكوفي شغباً كبيراً بين الناس، كان وأتباعه من الأحناف يستفزون مشاعر العامة فيحاولون أن يفرضوا عليها ما ينافي سنتها ومذهبها المفضل."[٢] .

والحقيقة أن ماذكره عبد العزيز المجذوب بخصوص تغيير شخصية سليمان بن عمران عما كانت عليه نجد له مثالٌ حياً نؤكد به على صحة ماذكره، ذلك هو موقف سليمان بن عمران من محمد بن سحنون بن سعيد، والمجذوب يُعزي سوء معاملته تلك إلى سوء العلاقة أصلاً بين سحنون بن سعيد وسليمان بن عمران الأمر الذي يجعله يؤكد على أن ترشيح سليمان بن عمران سحنوناً لتولي منصب القضاء أمر استهدف من ورائه سليمان بن عمران إلى دفع تلك الشخصية - شخصية سحنون - في براثن السلطان فتذوب وتنصهر في بوتقتهم فيفقد المالكية بذلك سندهم ورافع لواء مذهبهم. وقد رد سحنون على ذلك الصنيع بتولية سليمان بن عمران منصب الكتابة ثم بعد ذلك

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ٢ ص ١٥٢ .

(٢) الصراع المذهبي في إفريقية ص ٦٩ .

عينه قاضياً على الأربس وبجايه وباجة إنتقاماً منه لترشيحه له بتولي منصب قضاء القيروان.(١)

ونحن نرى أن ماذكره المجذوب بخصوص سوء العلاقة بين سليمان بن عمران وسحنون بن سعيد أمر مردود وليس فيه شيء من الصحة إطلاقاً لعدة أمور :

أولاً: إن سحنون ليس ذلك الرجل الذي يعين قاضياً على الناس لرغبة الإنتقام منه مع عدم توفر صلاحيته واستحقاقه لذلك المنصب، ونحن نرى أن تعيينه كاتباً له أمر استهدف منه الإمام سحنون اختباره، فلما وقف على صدقه وعلمه وأمانته عينه قاضياً على بجايه والأربس.

ثانياً: إن الإمام سحنون لا يمدح إلا من كان أهلاً لذلك المديح، وقد مدح سليمان بن عمران بقوله " مثلك ياأبا الربيع يكون ناظراً للمسلمين "(٢). إذ أنه كان يراه أهلا للقضاء لذا رغب في تعيينه.

ثالثاً: ماذهب إليه المجذوب بأن سحنوناً لم يعين ابن عمران للقضاء إلا بعد أن تأكد من سيره على نهج المدينه أمر غير مقبول - مع أن المجذوب استند على رواية المالكي - ذلك أن أهل باجة حين قدموا على سحنون يشكون إليه قضاء سليمان فيهم بمذهبه الحنفي، قال سحنون " ماقدمته عليكم إلا وأنا أعلم أنه يحكم بمذهبه"(٣) .

رابعاً: شهادة سلمان بن عمران عند الأمير محمد بن الأغلب يوم جاء سحنون إلى الأمير يشتكي إليه عزوف الناس عن بابه للقضاء بينهم إلى باب الطبني قال سليمان بن عمران بعد أن طلب شهادته الإمام سحنون " وماحاجتك إلى ذلك

---

(١) الصراع المذهبي بإفريقية ص ٧٠ - ٧١ .
(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٧٥ .
(٣) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٥٢ .

أدركت الناس بمصر يتمنون أن لو كنت بها "(١) .

كل هذا يبرهن على أنه ليس في نفس القاضي سحنون بن سعيد شيء على سليمان بن عمران ، ومن العجيب فعلاً هو تغير شخصية سليمان بن عمران بعد توليه القضاء، قد نجد تعليلاً لايقوم على حجة قوية إنما يستخلص من واقع البيئة التي عاشها سليمان ابن عمران أثناء ولايته منصب القضاء، حيث يذكر الطالبي أن تغيرياً جذرياً طرأ على شخصية الأمير محمد بن الأغلب ناتجاً عن السياسة التي انتهجها سحنون مع الأمير محمد الأول حيث كان كثير النقد والتجريح لتصرفات الأمير ومعارضته على كل أمر يتخذه وهو صاحب الحل والعقد (ولم يكتف سحنون بتدريس المعارضة بل عمل بها وفوض له كل الفقهاء بالإجماع القضاء بصفته قائداً لحزب السنة، فعزم على مراقبة سياسة الأمير .. فجلبت سياسة التقارب مع السنة لمحمد الأول ثماراً مرّة بالخصوص، ولم تعمل إلا على تشجيع القول الصريح ورقابة أعمال السلطة وكذلك قلة الحياء. فقرر محمد الأول يائساً في نهاية قضاء سحنون إدخال بعض التعديلات على سياسته التي دلت التجربة على أنها غير مثمرة فلم يقدم على عزل سحنون لكن قدم له في شخص الطبني وهو قاض إشتهر بجهله شريكاً أكثر تفهماً قطعاً"(٢) .

ونحن لسنا مع الطالبي فيما نسبه إلى الإمام سحنون وهو الغني عن التعريف والذي حمل لواء الجهاد ضد البدع والأهواء لتثبيت الإسلام السني الصحيح في إفريقية فكان ذلك وأكثر، إذ وصل ذلك التأثير إلى صقلية والأندلس وسائر بلاد المغرب قاطبة. ولم يكن سحنون ممن ينسون مكانة الأمراء الإجتماعية مطلقاً. ففي قصة القائد زوكاي بن زريخ مع المسبيات من الجزيرة ووقوف سحنون موقف المعارض والإصرار عن

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٨٤ .

(٢) الدولة الأغلبية ص ٢٦٠-٢٦١ -٢٦٢ .

التنازل عن منصبه مقابل إقامة الحق من الأمير بإطلاق سراح الحرائر من المسبيات فنزل الأمير على رأيه فتقدم العامة على سحنون يقدمون له الشكر فأمرهم بتقديم الشكر للأمير وقال لهم " إن الله قد أحبّ الشكر من عباده فتقدّموا إلى باب الأمير واشكروه على تأييد الحق ففي ذلك صلاح العامة والخاصة "(١). خير دليل على تقديره للأمراء ومعرفته لحقهم، ولابد أنه كان يعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبادة بن الوليد بن الصامت عن أبيه عن جده قال:" بايعنا رسول الله صلى عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق حيث كنا "(٢) فليس من حقه إلا أن يبين للأمير موطن الحق فان أذعن كان ذاك وإلا فالأولى أن ينزل عن منصبه حتى لايكون شريكاً له في الوزر. ولاننسى أنه ماقبل منصب القضاء إلابعد أن أخذ على الأمير الضمانات بإقامة الحق ووافقه الأمير على ذلك وقال له " وأجر الحق على مفرق رأسي "(٣) . فهذه المعارضة لاقامة الحق لايمكن تسميتها (قلة حياء) أليس من الأهون التعدي على السلطان بدلاً من التعدي على حرمات الله تعالى فلانعتقد أن سياسة سحنون قد أدت إلى سلبيات في سياسة الأمير محمد الأول فضلاً عن أن تكون هناك تغيرات من الأمير نحو أهل السنة وإلافما تفسيرنا لإعطاء الأمير الأغلبي محمد الأمان لمحمد بن سحنون على نفسه من سليمان ابن عمران. لكن يمكن الوصول إلى نتيجة في هذا الصدد هو أن الأمير محمد الأول لما شاهد كثرة جموع المالكيه وبالذات أن أقدام المذهب المالكي قد رسخت في مدة قضاء سحنون أراد الحد من نفوذهم فعين سليمان بن عمران الحنفي القضاء، رغبة في إضعاف

---

(١) المالكي: نفس المصدر . جـ١ ص ٢٨٤ .

(٢) رواه النسائي (عبدالبديع صقر : مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف . ص ٢٣١.

(٣) المالكي: نفس المصدر . جـ١ ص ٢٧٣ ، الدباغ: نفس المصدر . جـ٢ ص ٨٥ .

تلك الطائفة، وعلى إثر ذلك شعر القاضي الحنفي الجديد سليمان بن عمران برغبة الأمير تلك فحذا حذوه مع المالكية ليرضى عنه الأمير، فكانت قسوته عليهم الأمر الذي سيؤدي إلى نشوء الصراع بين طائفة المالكية وطائفة الأحناف فتنشغل كل من الطائفتين ويكون للأمير ما أراد " ومنذ ذلك الوقت حاول الأمير محمد الأول الإستفادة من المشاحنات الموجودة بين مختلف المشارب الدينية التي كانت تتقاسم البلاد لحاجته في ذلك لتنفيذ سياسته "(١) فكانت سياسة القاضي تسير في ركاب تحقيق غايات الأمير وأهدافه(٢) ، وساء الوضع سوءا أن صاحب الصلاة كان حنفياً متعصباً، سليط اللسان على أهل السنة من المالكية، وهو ابن أبي الحواجب الذي مافتيء يؤذي المالكية وعلى رأسهم ابن سحنون الذي كان يشتمه شتماً قبيحاً في أذنه فلايرد عليه محمد بن سحنون بشيء رغبةً في طلب الأجر والثواب من الله عز وجل بل يرفع صوته لابن أبي الحواجب بقول " تُقضى حاجتك "(٣) تمويهاً للجالسين في المجلس ، من هذا الوسط - وسط وصاحب الصلاة وغيره من ثلة الأحناف الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة- كان التغير الحقيقي لشخصية سليمان بن عمران لاسيما وأن صلته بابن أبي الحواجب كانت متينة جدا يدل على ذلك موقفه يوم تولى الصلاة عبدالله بن أبي طالب(٤) .

وبدأ الصراع بين طائفتي الأحناف والمالكية بولاية سليمان بن عمران القضاء على مسرح الأحداث في القيروان بعدما استكانت البلاد ونعمت بفترة من الهدوء والعدل بين

---

(١) محمد الطالبي: الدولة الأغلبية ص ٢٦٢ .

(٢) رغم سياسة الأمير هذه إلاأنه لم يكن يفكر في التخلص من علماء المالكية قط. بل نجده يمنع إمام المالكيين محمد بن سحنون من ترك البلاد .

(٣) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٨٠ .

(٤) انظر حول هذا الموضوع: الدباغ: معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٦١ .

الطوائف التي تسير على النهج السني الصحيح إذ لم يحارب الإمام سحنون رحمه الله تعالى إلا أصحاب النحل والبدع في حين عاش مع الأحناف السنيين حياةً هادئة وليس أدل على ذلك من تقديره لعلمائهم وتعيين الفاضل منهم في مناصب الدولة كتعيينه لسليمان بن عمران في الكتابة ثم في قضاء باجة والإربس وبجايه.

ومنذ بدأ الصراع اتجهت أنظار الناس المعارضين من المالكية لسياسة سليمان بن عمران إلى أبرز شخصية مالكية وهي شخصية محمد بن سحنون ويصبح هذا الفقيه عرضةً لأذى الأحناف. وكان ابن سحنون رجلاً فاضلاً عالماً تقياً يعتبر بحق خير خلف لوالده الإمام سحنون. قال أبو العرب " كان ابن سحنون من أطوع الناس في الناس سمحاً كريماً نفاعاً للناس إذا قصد "(١) ، وأصبح سند المالكية ورافع لواء الحق في وجه كل معارضيها. وكان ذلك بعد أن أخذ الأمان لنفسه من الأمير الأغلبي محمد الأول. ويقف الإنسان متعجباً من سوء معاملة سليمان بن عمران لمحمد بن سحنون، فالمصادر التي تعرضت لهذ الناحية لاتوضح سبباً للعداء بينهما ولاتزيد عن قول " فلما مات سحنون وولي القضاء سليمان بن عمران مكانه أساء صحبة ابن سحنون وفسدت الحال بينهما "(٢) ، وبعد أن تولى القضاء سليمان بن عمران طلب من محمد بن سحنون الحضور إلى مجلسه وهناك أغلظ عليه القول، وتتسع الهوة بين الرجلين بمرور الأيام، الأمر الذي دفع ابن سحنون إلى أن يطلب الأمان من الأمير محمد ويبعث إليه ببيت من الشعر لعثمان بن عفان كتبه إلى الأمام علي كرم الله وجهه.

فاذا كنت مأكولاً فكن خير آكل   وإلا فادركني ولما أمزق

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص ٢١١ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٧٨ . الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٣١ .

فلما قرأ الأمير البيت قال " ومن يمزقه مزق الله جلده؟ قالوا: سليمان بن عمران فطلب الأميرمن سليمان بن عمران ألا يتعرض له بسوء[١] ، الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى أن " قامت رئاسة محمد وتوفرت حرمته "[٢] عندها بدأ مركز المالكية يعلو وكان لهذا التكريم من الأمير صداه، ولعلنا نستطيع أن نستوضح موقف الأمير محمد الأول من أهل السنة من المالكية حين استأذنه محمد ابن سحنون كماجاء في الرواية الأخرى للخروج من القيروان إثر خوفه على نفسه من سليمان ابن عمران. فقال لما أبلغه مؤدب أولاده طلب الإمام ابن سحنون " إذا أذنت لابن سحنون بالخروج، مع من أبقي أخبره أني قد رفعت يد سليمان بن عمران عنه " فظهر ابن سحنون وشق السماط الأعظم حتى الجامع فصلى فيه، فبلغ ذلك سليمان، فعلم أنه أُمِّنَ ورفعت يده عنه[٣] ، وفي هذا حجة قوية على سلامة نية وموقف الأمير محمد الأول من المالكية.

أدت مكانة ابن سحنون التي وصل إليها إلى أن يسعى حثيثاً لسيادة المذهب المالكي ونشره وكان للمنزلة التي بلغها عند الأمير شأنٌ وأي شأن لذا شعر محمد بضرورة التحرك لصالح المالكية فنراه يطلب من الوزير أحمد بن محمد الحضرمي أن يتوسط عند الأمير لعزل ابن أبي الحواجب عن الصلاة ويعين عبدالله بن طالب فوافق الأمير على طلب الحضرمي- فكتم الجميع الأمر حتى صلاة الجمعة حيث كانت الصاعقة التي نزلت على طائفة الأحناف حين جذب ابن طالب ابنَ أبي الحواجب من درجات المنبر وصعد هو ودوى بصوته في خطبة الجمعة وكان القاضي سليمان في حالة نعاس فما أيقظه إلا ابن طالب بصوته المجلجل في جنبات الجامع فلما انقضت الصلاة جمع سليمان بن عمران شيوخ القيروان وطالبهم بالتوسط لدى الأمير لرد ابن أبي الحواجب

---

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٧٩ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٣٢ .

(٣) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٧٩ .

وتزكيته، وعلم ابن سحنون بذلك، فأرسل إلى الحضرمي يخبره بموقف سليمان بن عمران فما كان من الحضرمي حين اجتمع القوم إلاأن قال لهم" أما تستحون أن تسألوا الأمير أن يحط ابن عمه ومن أراد التنويه به ويشرف صاحبكم "[(١)] .

هذه الجهود التي كان يبذلها الإمام محمد بن سحنون في سبيل نصرة مذهب الإمام مالك والحفاظ عليه أضحت سمة له طيلة حياته، وماكان الناس حتى من خارج القيروان يلجأون لغيره، وانما كان هو هدف الجميع ومحط آمالهم. كان أهل المنستير[(٢)] يسيرون على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وذات مرة صلى عندهم أمين القاضي سليمان بن عمران وكان هذا الأمين على المذهب الحنفي فلما انتهت الصلاة سلم تسليمة واحدة[(٣)] ونهض واقفاً فتعجب الأمين وقال لمن حوله :" أملدوغ هو؟ " قالوا " مابه ماذكرت، وانما هذا مذهبه "[(٤)] فحاول أن يغير الوضع بأن يسلم الإمام تسليمتين فلم يفلح فاستعان بأهل المنستير فلم يعينوه فذهب الى القيروان، وأوغر صدر القاضي سليمان بن عمران على أهل المنستير فأرسل سليمان في طلب جماعة منهم. فقدم بعض منهم إلا أنهم كانوا خائفين على أنفسهم فأرسلوا أحدهم إلى قائد السنة وحاميها آنذاك

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٨١ ، وانظر الدباغ: نفس المصدر . جـ٢ ص ١٣٣ .

(٢) المنستير: هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية بينه وبين كل واحدة منهما مرحلة وهو خمسة قصور يحيط بها سور ويسكنه قوم من أهل العبادة والعلم (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٠٩).

(٣) السلام الأول للخروج من الصلاة فرض عند المالكية والشافعية، والتسليمتان فرض عند الحنابلة وقال الحنفية السلام ليس بفرض بل واجب، والواجب تسليمتان (الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته جـ١ ص ٦٧١) وذكر المغنى أن عائشة رضي الله عنها وسلمه بن الأكوع وسهل بن سعد قد رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم سلّم تسليمةً واحدة، وكان المهاجرون يسلمون تسليمة واحدة (ابن قدامه: المغني جـ١ ص ٥٩٠).

(٤) المالكي : نفس المصدر جـ١ ص ٣٥٤ .

الإمام محمد بن سحنون الذي قال:" إنا لله وإنا إليه راجعون! ينهرهم ويهينهم ولايعرفون مايقابلونه به "[١] فقال للرجل " ارجع إليهم فقل لهم: إذا كان غداً فادخلوا من باب أبي الربيع وقت اجتماع الناس وليكن بين أيديكم رجل من أصحابكم وليقل: يامعشر المسلمين! الدعاء لأهل المنستير فان القاضي سليمان بن عمران بعث وراءهم ولايدرون فيماذا أرسل وراءهم " ولما فعلوا ذلك اجتمعت الناس وامتلأت الأزقة والدرب الذي كان يسكن فيه فخرج إليهم القاضي سليمان بن عمران متسائلاً " مابال الناس " فقال له حاجبه:" إنّ أهل المنستير قد جاءوا وإن أهل القيروان قد أتوا لينظروا ماتعمل بهم " فخشي سليمان بن عمران وقال لحاجبه " قل لأهل المنستير ينصرفون إلى مواضعهم، فمالنا عليهم سبيل "[٢] .

ولابد من التنويه إلى أن سوء العلاقة بين القاضي سليمان بن عمران وقائد المالكية محمد بن سحنون لاتحدو بنا إلى جعل الرجل في مكانة غير لائقة فإبن عمران عالم فقيه محب للعلم ولم يكن زائغاً بل كان على مذهب السنة[٣] . ذكر الدباغ في هذا الصدد " لم يكن يقول بخلق القرآن "[٤] . وقد دامت مدة قضاء سليمان بن عمران بقية حكم الأمير محمد الأول وهي سنتان (٢٤٠-٢٤٢هـ) وطيلة حكم أبي إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢هـ-٢٤٩هـ) وحكم زيادة الله الثاني وهي عام فقط (٢٤٩هـ-٢٥٠هـ) وسبع سنين من حكم الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بأبي الغرانيق (٢٥٠هـ-٢٦١هـ) إذ أقاله الأمير أبو عبدالله محمد بن أحمد سنة ٢٥٧هـ من منصبه وعين بدلا منه عالما من علماء المالكية الأجلاء هو عبدالله بن طالب

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٥٥ .
(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٥٥ .
(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٤٩١.
(٤) الدباغ: نفس المصدر . جـ١ ص ١٥٦ .

صاحب الصلاة. والحقيقة أن تعيين ابن طالب في إمامة الصلاة كان " أول نكبة سليمان " إذ لم تزل أمور عبد الله بن أحمد بن أبي طالب تنمو إلى أن صرف الأمير محمد سليمان بن عمران عن قضاء إفريقية وولى قريبه ابن طالب مكانه[١] وقد كانت ولايته القضاء بعد عام من وفاة قائد السنة محمد بن سحنون، ولم تشأ إرادة الله أن يرى حامي السنة ولسانها هذا النصر للمالكية وكانت لابن طالب عنده منزلة عظيمة الأمر الذي دفعه الى التوسط عند الأمير لتوليته إماماً للصلاة.

والواقع فإن شخصية ابن طالب كانت مثالاً رائعاً للإمام الواعظ الصالح فكان جديراً بحق بتلك المنزلة التي وصل إليها عند الإمام محمد بن سحنون " كان عدلاً في قضائه حازماً في جميع أموره عالماً بما اختلف فيه شديداً في الذب عن مالك، ورعاً في حكمه، قليل الهيبة في الحق للسلطان .. وكان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لين القول، كثير الورع "[٢] .

ارتفع نجم المالكية بولاية ابن طالب القضاء، ورغم أنه كان من بني عمومة الأغالبة، إلا أن ثقته فيهم كانت ضعيفة جدا، فحين عرض عليه أبواسحاق إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٧هـ (في ولايته الثانيه) القضاء رفض، لكن الأمير أظهر له الشدة وكان ممسكاً بسيفه فقال:" إن شئت القضاء وإن شئت هذا !"[٣] مشيراً إلى سيفه. فاستأذن في صلاة الإستخارة، فلما سأله الأمير عما تبين له بعد صلاته عرض عليه شروطه بصيغة فيها من البلاغة والحذاقة وعمق الإدراك للمواقف وتقريع للسلطان في أدب الكثير الكثير:" أبقى الله الأمير! إن ولايتي على من لاينفذ عليه القضاء ليست

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: نفس المرجع . جـ٢ ص١١.

(٢) الدباغ: نفس المصدر . جـ٢ ص ١٦٠ ، المالكي: نفس المصدر . جـ١ ص ٣٧٧ .

(٣) عياض : تراجم أغلبية ص ٢١٢ .

بولاية، فقال " نفذ أمرك على مفرق رأسي "(١) . إذاً لم يكن علماء المالكية من أمثال ابن طالب يهادنون في الحق على حساب نسب أو صله، وإنما كان ابن طالب رغم القرابة التي بينه وبين أصحاب الحكم أكثر الناس بعداً عنهم خوفاً على نفسه ودينه.(٢)

ناصر ابن طالب السنة قبل وبعد توليه القضاء وكان صارماً في عقاب الخارجين وأصحاب الأهواء والقادحين بألسنتهم في الله ورسوله ودستوره ودينه فقد قتل إبراهيم الفزاوي الشاعر الطائش الذي شهد عليه مايقرب من ثلاثين شهود عدول بأنه يستهزيء بالله وكتابه وأنبيائه طعناً بالسكين في حنجرته(٣) . فقضى بذلك على رأس طائفة سيكون في بقائها مفسدة وأي مفسدة.

ورغم أن مدة ولايته للقضاء الأولى كانت سنتين فقط إلا أن البلاء بعدها كان كبيراً كاد يودي بحياة ابن طالب حيث امتحن في موضوع (إرث) الأمير التي وزعها حسب الشرع فما رضي بذلك الأمير الذي جمع فوجاً من الفقهاء على رأسهم سليمان بن عمران لمناظرته في هذا الأمر وأعان الله ابن طالب بالفقيه حمديس القطان الذي دافع عنه حتى سلم بأمر من الله (٤) .

وكان عزله عن القضاء ليس إلا غيرة وحقداً من الأمير الذي خشي على منصبه منه نظراً لكونه من بني عمومته " فلما رأى إبراهيم ميل الناس إلى ابن طالب لعدله وسماحته وعقله وعلمه واستبشارهم بأيامه لرخص السعر وارتفاع الربا على أيامه غار إبراهيم به وخشيه على ملكه (لكونه ابن عمه) فرأى أماتة اسمه وعزله ورد سليمان بن عمران "(٥) .

---

(١) عياض : تراجم أغلبية ص ٢١٢ .
(٢) عبد المجيد المجنوب : نفس المرجع . ص ١٤٩ .
(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٧٨ .
(٤) المجنوب : نفس المصدر . ص ٨٤ .
(٥) المالكي: رياض النفوس جـ١ ص ٣٧٧ .

وكان لسياسته أثر واضح إذ شهدت إفريقية في مدة قضائه سعة في العيش بسبب رخص السعر بعدما أزال ابن طالب التعامل بالربا الذي كان متفشياً زمن دولة الأغالبه وكان يرأس ذلك التعامل اليهود والنصارى ثم سار في ركابهم بعض التجار وأصحاب الأموال فأدى ذلك إلى انتشار الفقر وتدهور الحياة الإقتصادية والإجتماعية لاسيما وقد استعملوا نظام الفائدة مع الضعفاء من الناس ويذكر عبدالعزيز المجذوب (أن الربا لم يكن يستشري وينتشر إلا في مدة قضاء الأحناف ويضيف إلى ذلك بأن شخصية قاضي البلاد كانت تؤثر على الحياة الإقتصادية من حيث انتشار الربا والرشوة وسواهما "فان كان عراقياً نزل البلاء وإن كان مالكياً تنفس الناس الصعداء "[١] . ونحن لا نوافق المجذوب على ذلك إذ الواضح من الدراسة أن لليهود دور بارز في عملية التعامل بالربا وقد كانوا عمداً قوياً في السياسة الإقتصادية في القيروان، بل نجد المجذوب ذاته في دراسته يؤكد على أن قضية الربا كان أصحابها المعروفين هم اليهود والنصارى[٢] . كما أننا لانجد نصاً واحداً فيما كتب عن قضاة الأحناف في القيروان مايثبت تشجيعهم وتبنيهم لفكرة تحليل الربا بأي صيغة كانت.

والدارس لشخصية أحمد بن محرز وسليمان بن عمران وابن عبدون وابن أبي الجواد لايجد أثراً لهذه القضية في قضائهم أما استدلال المجذوب على صحة رأيه بانتشار الربا في عهد الأحناف بما ذكره المالكي عن ابن أبي الأشبح الذي كان يقول للناس " أديروا بينكم ماشئتم من بيع حرام ثم تعالوا إليّ أجعله لكم حلالاً " فان ابن أبي الأشبح لم يكن سوى رجل من الأحناف من أهل الجدل والكلام كماذكر المالكي عنه ذلك في تعريفه[٣] ولم يكن في يوم قاضياً كما أنه لمن يكن من علماء الأحناف البارزين

---

(١) الصراع المذهبي بإفريقية ص ٧٧ .

(٢) الصراع المذهبي بإفريقية ص ٧٧ .

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٥٠٠ .

مثل أبوالعباس بن زراره وهشام العراقي وأحمد بن مثيب[(١)] وغيرهم. وعلى هذا نرى أن رأي المجذوب حول هذا الموضوع يجانبه الصواب. لكن يمكن القول أن فترة تولي المالكية للقضاء قد أدت إلى نوع من الإلتزام بالمنهج الإسلامي في المعاملات الإقتصادية فمثلاً ضرب سحنون بن سعيد أروع مثل في الحرص على سير دفة الأمور الإقتصادية وفق منهج سديد فجعل لنفسه النظر في الأسواق وكان أول قضاة إفريقية يقوم بتلك المهمه فأدب على الغش ونفى من يستحق النفي من السوق في حالة مخالفته تعاليمه وهكذا[(٢)] . أيضاً يعود الفضل لعبد الله بن طالب قاضي إفريقية زمن ولاية الأمير إبراهيم بن أحمد في التضييق على اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم فيما يخص العمليات الربوية، وزاد على ذلك بأن منع الصيارفة من ممارسة نشاطهم المالي حتى يدرسوا كتاب الصرف على أحد تلامذة الإمام سحنون وهو أحمد بن أبي سليمان[(٣)] .

ولعل الإزدهار الإقتصادي الذي شهدته القيروان يعود بالدرجة الأولى إلى تطبيق النظام الإقتصادي الإسلامي في المعاملات الإقتصادية على يد قضاة المالكية،

ولعل ذلك أيضاً هو الذي كان يدفع بالأمراء إلى سماع نصيحة بعض المخلصين من المقربين لهم في تعيين خيرة الناس لتولي منصب القضاء فلما عزل ابن طالب عن القضاء في المرة الأولى سنة ٢٥٩هـ عُيِّن سليمان بن عمران الحنفي بدلاً منه واستمر هذا الأخير من سنة ٢٥٩هـ إلى سنة ٢٦٩هـ فلما شعر الأمير إبراهيم ابن أحمد إلى مدى ماوصل إليه القاضي سليمان من كبر السن لم يجد بداً من عزله وتعيين قاضٍ آخر ،

---

(١) نقرأ ترجمة هذه الشخصيات في المالكي: رياض النفوس جـ١ ص ٤٩٦ - ٤٩٧ ، ٤٩٩ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٢٧٦ .

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي والحياة الإقتصادية والإجتماعية ص ٥٧ .

وكانت نفسه تميل إلى ابن عبدون الحنفي وهمّ بتعيينه لولا أن أرسل الله للأميرالفقيه أحمد بن أبي سليمان الذي استشاره الأمير في قاضٍ للبلاد فرد عليه بقوله " أرى أن تولي العدل الرضي المستحق للقضاء " قال من هو؟ قال ابن طالب فكانت ولايته الثانية للأغالبة في القضاء. ونزل الأمير على رأي أحمد بن أبي سليمان وكلف هذا الأمير قاضيه الجديد أن ينظر في أمور الولاة والقضاة (١) وأن له النظر في الحدود والقصاص والعزل والولاية .

لكن كانت للأمير ذاته نفسية غريبة فتارةً يكون ميالاً للخير محباً له حريصاً عليه يدفع إليه دفعاً كأمره لابن طالب بازالة المنكر من القيروان(٢) وتارةً يكون عكس ذلك فقد بدت عليه أمور كان من نتاجها عزل ابن أبي طالب ثم قتله(٣) . فحين شرط الإمام سحنون على محمد الأول شروط وفى بها ذلك الأمير، أما بالنسبة للأمير أبي اسحاق إبراهيم فإنه لم يوفى لابن طالب بمااشترط عليه فكانت سلطته تخول له الوقوف في وجه الظلم لأخذ الحق. لذا كانت القضية التي ذهب ضحيتها ابن طالب قضية حق رأى القاضي من واجبه فيها رد الأمور إلى نصابها لكن الأمير لم يكن في مستوى العهود والمواثيق. والمعروف عن علماء المالكية استماتتهم لأخذ الحق وإن لم يكن عليهم سلطة في ذلك - أي ليسوا من أرباب المراكز الإدارية - فكيف وإن كان لهم سلطة فيه. وأصل القضية أنه نظر في الجور والظلم الذي حدث في إمارة أبي اسحاق إبراهيم بن أحمد بالإستطالة على المسلمين في إباحة نساء أهل أبيانه للسودان وجاءت إليه امرأة تشكو مانزل بابنتها منهم فقال ابن طالب " إن هذا فعل الدهرية ومن لايؤمن بالله

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٧٧ / عياض: تراجم أغلبية ص ٢١١ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٨١ .

(٣) يمكن معرفة ما كان عليه الأمير إبراهيم بن أحمد بالرجوع إلى التحليل الذي كتبه سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي جـ٢ ص ١١٤ - ١١٥ وص ١٤٧ - ١٤٩.

واليوم الآخر"[١] . فحمل تلك العبارة في نفس الأمير إبراهيم بن أحمد بعدما بلغه إياها أعداء المالكية من أعوان الشر واتخذ الأمير منها ذريعةً لعزل قاضيه ابن طالب ثم حبسه وولى مكانه أكبر رأس لأهل الهوى من المعتزله القائلين بخلق القرآن ألا وهو ابن عبدون. وطالب الأمير قاضيه بمحاكمة ابن طالب وإحضار العلماء لمشاهدة تلك المحاكمة وكان يرجو أن يخذل الله ابن طالب أمامهم فتقل قيمته ويكون له العذر في عزله من العامة. ونظراً للوضع الذي كان فيه ابن طالب فقد انتهت الجلسة الأولى من تلك المحاكمة دون أن يتمكن ابن طالب من الرد على أسئلتهم وتبرير تصرفاته. فشجع هذا الموقف الأمير إبراهيم بن أحمد لعقد جلسة أخرى زيادة على إظهار ابن طالب بمظهر المخطيء الجاهل، لكن الله قيض لابن طالب عالماً من علماء المالكية الأجلاء وهو سعيد بن الحداد لنصرته، إذ كتب أجوبة كل الأسئلة التي سألها ابن عبدون لابن طاب وأرسلها مع ابنه سراً له فكان موقفه ذلك يمثل قمة التضحية التي عرف بها علماء المالكية لإظهار الحق والثبات عليه والمناصرة فيه. وأمر ابنه أن يرجع إليه تلك الأجوبه بعد أن يستظهرها ابن طالب ويفهمها حرصاً على سلامة موقفه أمام الأمير من جهة وإجتناباً للبلاء من جهة ثانية فكان له ماأرد، واستطاع ابن طالب بفضل تلك المعونة أن يدحض خصمه في المناظرة الثانية حتى قال الأمير إبراهيم " رجونا ابن عبدون أن يفضح ابن طالب ففضحه ابن طالب"[٢] . ورغم ذلك الإنتصار الذي أحرزه ابن طالب على خصمه باعتراف من الأمير ذاته إلا أن ابن طالب ظل في سجنه حتى أنهى الأمير ذكره بالقتل سراً في شراب يحوي مادةً سامة وكان سنّه وقت وفاته رحمه الله ثمان

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٢٤ ، القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٢٥ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٨٥ / عياض: تراجم أغلبية ص ٢٢٨ .

وخمسون سنة وذلك في سنة ٢٧٥هـ وكان ذلك بعد شهر من عزله وقد استجاب الله دعاءه، إذ كان يدعو الله بقوله " اللهم لاتمتني وأنا قاضٍ"[١].

ومع أن موقف الأمير من أبن طالب كان سيئاً إلا أنه كان يتقرب إلى طائفة المالكية على اعتبار أنها طائفة لها وزنها فقد كان يستدعي علماء المالكية إلى مجلسه من أمثال: حمديس القطان ويحيى بن عمر وسهل بن عبد الله القبرياني، لكن نفوس الكثرة منهم كانت ترفض القدوم عليه. فهذا حمديس القطان يتقرب إليه الأمير إبراهيم بن أحمد ويسأله أثناء مقامه عنده عن عدد أولاده وكيف يرتزق رغبةً من الأمير أن يشعره حمديس بحاجته إلى شيء فيقضيها له وتكون عنده قربى منه، لكن حمديس ماكان يحب أهل الجاه لذا يطلب من الأمير أن يعفيه من مجلسه " تعافيني من المجيء إليك بعد هذا المجلس فإنك لست تجد عندي ماتريد "[٢] . وكما أسلفنا القول فإن الأمير لكونه يدرك مركز المالكية الشعبي كان يحرص على أن يضم مجلسه بعضاً من علمائهم، لهذا نراه يرفض طلب يحيى بن عمر أن يعفيه هو الآخر بعدما أعفى حمديس القطان من الحضور إلى مجلسه.[٣] فإذا كان قد أذن لهذا وهذا من علماء المالكية فمن يمثلهم بعد ذلك عنده.

والواقع فقد أضحى المالكية بعد مقتل ابن طالب في خطر شديد إذ أطلق الأمير إبراهيم بن أحمد يد عدوّ المالكية ابن عبدون خلف ابن طالب في القضاء-فنكل بهم بقسوةٍ رهيبة لدرجة دفعت الأمير إلى إيقافه عن سفك الدماء والقتل وقال بعدما لاحظ من كثرة بطشه وتنكيله " لوساعدته لجعلت له مقبرةً على حدة "[٤] .

---

(١) عياض : تراجم أغلبية ص ٢٢٧ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٩٥ .

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٩٥ .

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٤٩٤ .

ولاتمدنا المصادر بمعلومات واضحة عن مدة قضاء ابن عبدون، فاذا كان تولى القضاء بعد ابن طالب مباشرة فمعنى ذلك أن ولايته للقضاء كانت سنة ٢٧٥هـ واستمر إلى فترة قضاء عيسى ابن مسكين أي إلى سنة ٢٨٠هـ فيكون بذلك قد تولى القضاء مدة خمس سنوات، حدث بعدها تغيير في سياسة الأمير إبراهيم بن أحمد حيث رغب في تعيين يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الذي أشار على الأمير بمعافاته فقبل على أن يدله على رجل هو أكثر منه فضلاً وعلماً وصلاحاً وهو عيسى بن مسكين، وأيده حمديس القطان الذي أثنى على عيسى حينما استشاره الأمير مع بعض العلماء بقوله " إنه والله أيها الأمير صاحبنا عند سحنون جمع الله فيه خلال الخير بأسرها "[(١)] فاستقدمه الأمير من الساحل وعرض عليه خطة القضاء فرفض فقرب الأمير السيف من نحره مما يدل على شدة حرص الأمير على توليته فما كان من عيسى بن مسكين إلا أن يتقدم بنحره من سيف الأمير [(٢)] فالموت عنده أهون من تسلم أمور القضاء. وحقيقة الوضع في نظرنا تقتضي ذلك لأن الأمر مخيف من ناحيتين: أولاً أمر يتعلق بمتطلبات القضاء من تحري العدل وتقصي الحقيقة والنظر بامعان في القضايا للوصول إلى الحقيقة المنشودة وإقامة العدل الواجب إقامته، والناحية الثانية الخشية من تعطيل أحكام القضاء ، إذا كانت القضايا خاصة بالأمير وبقرابته وحاشيته لذا يكون الموت أهون من تعطيل أحكام لخصوصية في المتقاضين.

وأمام اصراره على الرفض حلف الأمير عليه بالأيمان وزاد على ذلك كما يقال بتهديده بتولية ابن عبدون عدو المالكية (إن لم تلي لأولين ابن عبدون فخاف عيس إن ولي ابن عبدون أن يظهر البدعة ويهدد أهل السنة)[(٣)] فوافقه عيسى على تولي

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٥ .

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٦ .

(٣) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٦ .

القضاء بشروط، الناظر إليها يجدها حصناً منيعاً له من الولوج في مجتمع السلطة وحياتها إذلم تقتصر شروطه على إقامة الحق والعدل وإنما تعدت إلى العلاقة الشخصيه بينه وبين الأمير ويقال إنما تشدد في الشروط لرغبته في أن يعزف الأمير عنه.(١) لكن الأمير قال له " اشترط ماأحببت "استعفيك في شهر قال نعم. قال: اكتبه ففعل، قال: وأهلك في الحق وبنو عمك وجندك وفقراء المسلمين وأغنياؤهم في درجة واحدة. قال نعم قال: اكتبه. ففعل قال: ولا توجه ورائي ولاأهنيء ولا أعزي، ولا أشيع ولا أتلقى،فمتى لم تف لي بشرطٍ عزلت نفسي.قال: نعم وعرض عليه الكسوة والصله فامتنع"(٢)

كانت تلك الشروط رغم قساوتها على الأمير إبراهيم بن أحمد إلا أن الأمير قبل بها. مما يجعل الإنسان يتساءل لماذا وافق الأمير على ذلك؟ يشير إلى هذا الموضوع السيد محمد أبو العزم داود مع تعليق قد يكون هو الواقع فعلاً "حدث تحول في العلاقة بين إبراهيم بن أحمد وبين معارضيه من فقهاء المالكية حين أعاد القضاء إلى المالكية فولى الفقيه عيسى بن مسكين تلميذ سحنون قضاء إفريقية وربما كان ذلك بتأثير جلساء الأمير من المالكية "(٣) . لعل هذا دافعاً وثمة دافع آخر نستقيه من النصوص التاريخية وذلك أمر يكمن في شخصية الفقيه عيسى بن مسكين. قال إبراهيم بن أحمد حينما أراد تولية ابن مسكين القضاء " والله لأولين عليكم من لا تختلفون في فضله وزهده وعلمه وورعه "(٤) وفي نص آخر قال - لما مثل عيسى بين يديه قال له " أتدري لم بعثت إليك؟ قال: لا، قال لأشاورك في رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة "(٥) . إذاً من هذين النصين

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبيه ص ٢٣٦ .

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٧ .

(٣) الأثر الحضاري والسياسي للمالكية ص ١٥٠ .

(٤) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٥) القاضي عياض تراجم أغلبية ص ٢٣٥-٢٣٦ .

نستطيع أن نتبين سر إختيار رجل من فقهاء المالكية مثل عيسى بن مسكين يتولى قضاء القيروان، ولعلنا ندرك قيمة هذه الرغبة والصبر على تلك الشروط إذا علمنا الوضع السياسي الذي كانت عليه دولة الأغالبة حيث خرجت على إبراهيم كل من تونس والجزيزة والإربس[١]، فالتفرقة والمنازعات وشق عصا الطاعة أدت بالأمير إبراهيم إلى أن يلقي بعبء المشاكل الداخلية إلى قاضٍ عدل يثق به كثقة العامة سواءً بسواء.

ولقد أدرك الأمير قيمة النصح الذي يسديه إليه القاضي فعندما يذكر بعض خدمه له أنه نصحه نصحاً مانصحه به القضاة يتساءل الأمير في تعجب ويقول له:" ولا عيسى بن مسكين"[٢] . وكنتيجة لذلك الشعور باخلاص القاضي له في النصح يتنازل عن أوامر يأمر بها فلما يبين له القاضي حقيقتها يتراجع عنها، مثال ذلك عندما استغاث قوم من تونس نُهِبُوا، بالله ثم به حينما كان في مسجده رقاده فأرسل إليهم من أحضرهم له فذهب الذي نهبهم إلى الأمير إبراهيم بن أحمد وشكا إليه الأمر فطلب من عيسى بن مسكين أن يردهم للرجل فرفض القاضي وكتب الى الأمير قال الله تعالي " وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار. إلى قوله بصير بالعباد " فلما قرأها الأمير قال " هذا رجل يحارينا بالله لاحاجة لنا بهم أتركوهم "[٣] .

كانت ولاية ابن مسكين القضاء رحمة على الناس جميعا ونصرة للمالكية حيث تنفسوا في زمن ولايته روح الحرية والكرامة بعدما كان من عهد ابن عبدون الذي أذلهم بسوء سياسته وكثرة تنكيله. وكان عهده عهد تمكين للمذهب المالكي فلم يكن يرض بالإنحراف عن منهج مالك قط. في أدق الأمور إلى غيره رغم كون ذلك المنهج سليما

---

(١) سعد زغلول عبد المجيد: نفس المرجع . جـ٢ ص ١٣٦ .

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٩ .

(٣) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٣٦ .

خاليا من اللبس والإنحراف. سمع إبراهيم بن أحمد أن ابن مسكين لايفتي بين الناس إنما جعل ذلك لكاتبه ابن البناء فشك الأمير إبراهيم في قبوله القضاء فاستدعى ابن البناء واستفسر منه عن الحال فذكر له صحة ذلك وعلله بأنه يكفيه فأراد إبراهيم أن يتأكد من قبوله القضاء فأوعز إلى ابن البناء بالفتوى على غير مذهب مالك فلما جاء الخصمان قضى بينهما ابن البناء بغير مذهب مالك نزولاً على أوامر الأمير فراجعه ابن مسكين مرة واثنتين وثلاثة فلما أصر على موقفه قام ابن مسكين للمتقاضيين وفصل بينهما بمذهبه وأكد على ابن البناء بعدم العودة إلى مثل ذلك (١) . هذه الرواية توضح لنا الى أي حد كان مركز القضاء سببا في تثبيت المذهب المالكي في إفريقية لذلك كان مركز القضاء حساساً حتى أننا لنجد أول مايغضب الأمير على المالكية يعمد فوراً على عزل القاضي إن كان مالكي المذهب.

استمر ابن مسكين يتولى القضاء مايقارب ثماني سنوات أي حتى بداية سنة ٢٨٩هـ ثم طلب الإعفاء من الأمير إبراهيم بعد أن أعلن توبته وأصدر قرار اعتزاله بطلب من الخليفة المعتضد بالله فتنازل لابنه عن الحكم في نهاية سنة ٢٨٨هـ . (٢) ذكر عياض في هذا الصدد قوله:" ولما تاب الأمير إبراهيم وتخلى عن الملك وتوجه للجهاد فقصده عيسى بن مسكين فقال له: إن الله عافاك مما كنت فيه، فأعفني مما أدخلتني فيه فقد كبر سني وضعف بدني فأعفاه. (٣)

وكان ابن مسكين قبل توليه القضاء رجلاً نشيطاً عالما محبا للعلم كانت له حلقة يدرس فيها من الصباح حتى العصر ثم يجعل العصر لبناته وبنات أخيه يعلمهن القرآن

---

(١) عياض : تراجم أغلبية ص ٢٣٧ .

(٢) سعد زغلول : نفس المرجع . جـ٢ ص ١٤٧ .

(٣) تراجم أغلبية ص ٢٥٢ .

وسائر فروع العلم والمعرفة.(١) وعلى الرغم من أن المالكيـة آنذاك كـانوا من أكـبـر الدعـامات القوية في المجتمع القيرواني إلا أن الأمير الجديد أبا العباس عبيد الله بن إبراهيم تجرأ على مشاعر تلك الطائفة وعيّن تلميذاً لابن عبدون المتعصب هو محمد بن أسود الصديني الذي كان يقول بخلق القرآن(٢) . على أن مدة أبي العباس لم تطل إذ قتل على يد اثنين من خدمه الصقالبة سنة ٢٩٠هـ وتولى بعده ابنه زيادة الله الثالث وفي عهده سيزول سلطان الأغالبة نهائياً على يد عبيد الله الشيعي الذي كان قد دخل إفريقية منذ سنة ٢٨٠هـ مع حجاج كتامة(٣) . فكان لابد له حتى يقضي على عناصر الخلاف والفتنة أن يعزل قاضيه المعتزلي الصديني ليجمع العامة على ولاية رجل يحبونه فكان اختيار حماس بن مروان أحد فقهاء المالكية الذي كان تعيينه سنة ٢٩٠هـ وقد أدرك الأمير زيادة الله مدى فائدة كسب العامة فألقى خطاباً ذكر فيه هدفه من ارضاء العامه واسعادها. قال الأمير " إني قد عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع ووليت حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة "(٤) . وخطابه هذا يوضح تمام التوضيح تركه للإعتزال إذ يشرح فيه أسباب توليته لحماس وهو علمه بالكتاب والسنة فكان بذلك يستقطب العامة ويجمعها عليه في ظروف هو أحوج ماتكون لذلك لصد الخطر الشيعي الزاحف من كتامه.

وكان الأمير يعرف تماماً مايمكن أن تؤديه طائفة الفقهاء من خدمات في سبيل

---

(١) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٥١ .

(٢) ذكر المالكي في الرياض جـ١ ص ٥٠١ أن الذي عين الصدني هو إبراهيم بن أحمد قبل خروجه للجهاد لكننا نرى أن الذي عينه هو أبنه أبو العباس لأن من الثابت تاريخياً توبة الأمير أبراهيم فلا يعقل معها أن يتوب عما بدا منه ثم يعين رجلا كالصدني .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع . جـ٢ ص ١٤٦ .

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٢٧ ، عياض: تراجم أغلبية ص ٣٤٤ .

تحقيق الأمن لذا طلب الأمير من الفقهاء الحضور إليه وكان آنذاك مقيماً بتونس واجتمع بهم وصاحب شرطته والوزير عبد الله بن الصائغ وشرح لهم وضع الشيعي وطبيعته ودعوته وموقفه من الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجاته والصحابة رضوان الله عليهم وقد أدرك علماء المالكية الخطر المحدق بهم وبالإتجاه السني فأخذوا على عاتقهم مهمة مقاومته وأفتوا بمجاهدته إذ غدا في نظرهم كافراً لابد من شنّ الحرب عليه.(١)

وكان من الممكن أن تثمر جهود الفقهاء ضد الشيعي لو توفر التضامن والتكاتف بين جميع الفئات .لكن شخصية الأمير زيادة الله -حيث كان بين الجد والهزل في هذا الموقف -(٢) والتي لم تكن ذات اتجاه جدي خالص نحو القضاء على الشيعي كان لها أكبر الأثر في تسلط الشيعي وبالتالي سقوط دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ، الأمر الذي حدا بالقاضي حماس بن مروان أن يطلب الإعفاء من منصب القضاء سنة ٢٩٤هـ بعدما شاهد من عدم قدرته على إقامة الحق والوقوف في وجه كل معارض له لا سيما وان الامير زيادة الله قد حذا حذوا اظهر فيه ميله عن الجادة حيث عين قاضياً اخر هو ابن الجمال الى جانب حماس وكان عراقياً قد رفع شانه (٣) .

ولا بد من القول انه رغم الاحوال المختلفة التي مرت بها افريقية من دخول مذهب مغاير (الشيعة العبيدين) وما تلا ذلك من اضطهاد وتنكيل بأهل السنة الا أن افريقية احتفظت بفقه مالك اذ غدا ذلك المذهب هو الاسلام ولا شيء سواه .

بعد هذا العرض لجهود علماء المالكية في انتشار وذيوع مذهب مالك في افريقية

---

(١) سعد زغلول: المرجع السابق جـ٢ ص ١٦٥، ص ١٦٤/ السيد محمد أبوالعزم: المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) سعد زغلول عبدالمجيد : نفس المرجع . جـ٢ ص ١٦٧ .

(٣) الدباغ : نفس المصدر . ص ٢٣٨ .

زمن الاغالبة هناك عدة ملاحظات جديرة بالنظر :

أولاً : إن هذا المذهب لقى اقبالاً شديداً عند أهل المغرب وكان مرده عاملين اساسيين :

أ- القدوة الحسنة التي كان عليها علماء المالكية من شدة في الحق وبعد عن السلطان والجادة وتجنب الانزلاق في شراك سطوة الحكام وليس أدل على ذلك من رفضهم حتى لما هو حق لهم كرفض الاجر في القضاء كما فعل سحنون ورفض عيسى بن مسكين للصلة والكسوة .

ب- طرق استنباط الحكم الشرعي في فقه مالك والقائمة على دعامة قوية من الرجوع الى الكتاب والسنة واجتناب مواطن الجدل والنقاش (كما ذكرنا سابقا) وهذا العامل رغب المغاربة في اتباعه اذ أن ظروف البيئة أملت عليهم البعد عن كل ما فيه شقاق وخلاف بسبب ما انتشر في افريقية من أراء المِلل المختلفة .

ثانياً : ان المذهب السني الثاني الذي كان ينافس المذهب المالكي هو المذهب الحنفي وهذا المذهب لم يقبل ساكني القيروان على اعتناقه الا من كان من أصل فارسي أو عراقي أو من رجال الدولة الأغلبية [(١)] لذا كان أصحاب المذهب الحنفي أقلية بالنسبة للأفارقة وواقع المجتمع الافريقي اليوم من حيث تقلده بمذهب مالك يدل على أن المذهب الحنفي لم يترك بصماته في العناصر البشرية مطلقاً .

ثالثاً : ان علماء المالكية الأجلاء كانوا يرون أنفسهم جنوداً للحق الذي أمنوا به ولذلك نرى اذا عرض عليهم منصب رفضوا الا بشرط اقامة الحق فكأنهم انما يخضعون الحاكم لسلطان ذلك الحق . فما شروط سحنون بن سعيد وعيسى بن مسكين الا نموذجاً حياً للجندية المستميتة لاقامة الحق . ومن ثم شروط أبو عبدالله بن أبي منصور لثالث خلفاء العبيدين التي تشمل كما يقول المجذوب خروجاً على دولة

---

(١) المالكي : رياض النفوس : مقدمة حسين مؤنس ص ١٣ م

العبيديين وانشاء لدولة اخرى داخل دولتهم [١] وكان ذلك دأب علماء المالكية الأخيار على طول التاريخ بعدُ الزمان أو قرُب هم جنود للحق لا لغيره .

رابعاً : شدة علماء المالكية مع أهل الأهواء والملل انظر مثلاً قصة البهلول بن راشد عن أبي عثمان قال سمعت أبي يقول مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون فوقفت أسمع منهم وناظرتهم فبلغ ذلك البهلول بن راشد فلما جئته قال " يا محمد بلغني أنك مررت بسقيفة العراقي فوقفت اليهم تسمع الى مثل هذا فلا تقربني واغلظ عليّ وذكر صاحب تراجم اغلبية أن المالكية لم يصلوا خلف أصحاب البدع والاهواء ولم يصلوا على جنائزهم . [٢]

خامساً : لابد من توضيح نقطة مهمة حول ما يسجله المؤرخون من الصراع بين المالكية والاحناف من أن الصراع بين المذهبين ليس صراع سيادة مذهب على مذهب ذلك أن الامام ابا حنيفة لا يرضيه مطلقاً ما حصل لعلماء المالكية ممن ينسبون أنفسهم اليه فليس أبو حنيفة من الذين يستعملون الراي والجدل لدحض الخصم وكسب القضية أنما كان رجلا يناظر ليصل الى صواب وحق واليك البرهان الواضح . نهى ابنه حماد عن المناظرة في الكلام فقال له ابنه كنت تناظر وتنهانا عنه فقال كنا نناظر وكأن على رؤسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم ومن أراد ان يزل صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه [٣] لذلك لابد لنا من التأكيد على أن اللذين رفعوا لواء المواجهة ضد أهل السنة من المالكية هم من الاحناف الذين اعتنقوا افكار المعتزلة فأولى بهم أن يدرجوا في قائمة أهل الملل والأهواء " وأحسب أن المالكية ما كانوا ليقفوا من ظهور المذهب الحنفي واصحابه

---

(١) الصراع المذهبي بافريقية . ص ١٦٩

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ٢٨٤

(٣) محمد أبو زهرة : المذاهب الاسلامية جـ ١ ص ٣٥٢ .

موقف المعارضة والعداء لو لم ينهج ممثلوه البارزين نهجاً مخالفاً لشعور أهل البلاد القوي بتحالفهم مع أعدائهم ارباب السلطان مناوئين للسنة باظهار البدع وتحررهم من بعض القيود الدينية والقيم السنية) (١) .

ومما يدعم أن اصحاب المذهبين لم يحدث بينهما نزاع الا حينما دخل الاحناف دائرة الاعتزال بروز الرأي القائل أن المثقف من العلماء من كان له المام بالمذهبين (٢).

سادساً : النشاط السياسي الذي قام به العلماء من المالكية حيث بدأ دورهم منذ عصر ولاة بني أمية ضد ثورات البربر حيث أنضموا الى السلطة وقاموا بدور الناصح الأمين للبربر وبينوا حقيقة الاسلام . وفي موقعتي القرن والاصنام نزل الفقهاء الى ساحة الجهاد وحضوا الناس على القتال وتفريق العدو وحين أعلن عبد الرحمن بن حبيب استقلاله ببلاد المغرب عن الخلافة العباسية غضب الفقهاء على اعتبار أن تلك الخطوة هي تفكيك للوحدة الاسلامية والمتمثلة في الخلافة العباسية(٣).ويستمر نشاط الفقهاء السياسي خلال فترة عصر الولاة العباسيين . ثم لما قامت دولة بني الأغلب ساهم فقهاء المالكية في ادارة الحكم حينما تولوا منصب القضاء وقد كانت لهم مواقف مشرفة ساندت الدولة الأغلبية واخرجتها من مأزقها . ويظهر دور أسد بن الفرات في ثورة عمران ابن مجالد كنور في وسط ظلام حالك اذ حاول هذا الخارجي على دولة ابراهيم بن الأغلب أن يكسب تأييد العامة بانضمام أسد اليه

سابعاً : إن المالكية بفضل تمسكهم بالإسلام السني الصحيح تمكنوا من تكوين جبهة كان يخشاها ذوي السلطان وبفضل ذلك أيضاً كانت لهم تلك الشعبية الكبرى عند

---

(١) عبدالعزيز المجنوب : الصراع المذهبي بافريقية، ص ٦٥ .

(٢) عبدالعزيز المجنوب : نفس المرجع . ص٧٨

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية من ص ٨٣ الى ص ١١٥ .

جماهيرالعامة وتعلقهم بهم إذ أنهم يمثلون لهم القوة مع الحق.[١] لذا نرى أمراء الأغالبة لايتورعون في سبيل كسب رضى العامة أن يعينوا قاضيين في آن واحد مالم يحدث له نظير قط، كتولية أسد بن الفرات مع أبي محرز في إمارة الأمير زيادة الله الأول كذلك لم يكن الأمراء يجدون بأساً في عزل قاضي حنفي رغم أنه على مذهبهم وتعيين آخر مالكي يهدف إرضاء العامة فقد عزل ابن أبي الجواد وعين سحنوناً مكانه سنة ٢٣٤هـ. كما نلاحظ صبر الحكام الأغالبة على قساوة شروط القضاة للأمراء، خذ مثلاً شروط عيسى بن مسكين للأمير إبراهيم بن أحمد - التي أوردناها من قبل. نجدها غاية في الشدة ويزيد عليها القاضي باشتراطه للأمير إن هو لم يف له بأحد تلك الشروط فله عزل نفسه وقد نفذ ابن مسكين ذلك، فقد حصل أن رسول الأمير أخطأ باستدعاء القاضي لا كاتبه كما طلب الأمير ذلك فلما التقى القاضي بالأمير الذي كان عائدا من سفره بادر الأمير القاضي قائلاً باعتذار " والله ماوجهت إليك ولاأردت إلا البناء (يقصد الكاتب)" فانصرف عيسى دون أن يسلم على الأمير الذي تعجب من تصرفه ذلك وقال " عجباً لهذا القاضي غبت فما شيع، ورجعت فما تلقى ولاهنأ بعثت وراء غيره فغلط الرسول فاعتذرت له فانصرف بعد أن رآني بغير تسليم " ولما عوتب في ذلك كان رده جميلاً إذ قال " الأمير أكرم من أن يعدني وعداً ويعقد على نفسه عهداً ثم ينقضه"[٢].

ثامناً: إن الأمراء كانوا على ثقة من نزاهة علماء المالكية. ولذلك نجد لهم مواقف طيبة تجاههم وكان لذلك أثره الطيب بطبيعة الحال على معتنقي المذهب في تكثيف

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية بإفريقية ص ١٥٤-١٥٥ .

(٢) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٤٠ .

جهودهم لنشره. فهذا عبد الجبار خالد السرتي يدعوه الأمير إبراهيم بن أحمد لوليمة أقامها بمناسبة طهور أولاده فيلبي الدعوة غير أنه لايستطيع أن يجامل الأمير فيما رآه من كثرة الطعام والشراب الذي دُعي لتناوله الأغنياء دون الفقراء فيذكر الأمير بفقراء المسلمين فيجيبه الأمير " صدقت وبررت " ثم يعطيه كيساً فيه خمسمائة دينار يطلب منه توزيعها على الفقراء بل ويزيد الأمير في إكرام عبد الجبار أن يرافقه وقت انصرافه إلى خارج القصر ويطلب من خدمه أن يحملوه على دابة ويقول له " لا برحت حتى تركب " فإذا انصرف تلفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد معرباً عن أمانة ونزاهة وطيبة عبد الجبار بن خالد قائلاً " يارجاء أرأيت ماأعقله ، وما أظرفه تعرف في رعيتي مثله إنه قضى زماننا وتعاطى من طعامنا وأخرج مالنا فيما يرضينا "[1] .

تاسعاً: عرفت إفريقية إلى جانب مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة ،مذهب الشافعي ويرجح أبو السيد محمد أبوالعزم داود[2] إن هذا المذهب قد دخل إفريقية مع الحجاج الذين وفدوا إلى المشرق وسمعوا عن الشافعي وأخذوا عنه ثم عادوا إلى إفريقية حاملين معهم ماسمعوا وماعرفوا وتطالعنا سيرة أبي عثمان بن الحداد كأول شخصية في إفريقية نزعت إلى مذهب الشافعي، غير أن القاضي عياض تبع ذلك بقوله " من غير تقليد له "[3] . لكن لم ينتشر هذا المذهب إذ قوبل معتنقيه بغير ارتياح من قبل المالكية، كما حدث مع أبي عثمان، هذا إلى جانب أن المالكية كانوا يرفضون أي مذهب غير مذهب مالك.[4] .

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ٣٦٩ .

(٢) السيد محمد أبوالعزم داود : نفس المصدر . ص ٧١ .

(٣) تراجم أغلبية ص ٣٥٢ .

(٤) عبدالعزيز المجنوب : نفس المرجع . ص ٧١ .

عاشراً: لابد من التنويه من أن المالكية بفضل جهودهم ووقوفهم في وجه أول خارجي - الشيعة العبيدين - تمكنوا من الحفاظ على مذهبهم حتى هذا الوقت في حين ركن الأحناف إلى خدمة الدولة الشيعية فذهبت ريحهم في صفوف الأمة الإفريقية "(١)

ولعل من قصة أبي عبد الله محمد التبان مايوضح مدى الصمود الذي عرف عن المالكية في وجه الجور فقد رفض الدخول في الدعوه الشيعية وترك مذهبه المالكي وقال لمن كان يناظره " لونشرتني في اثنتين مافارقت مذهب مالك "(٢) .

---

(١) الطالبي : دراسات في تاريخ إفريقية ص ١٦٢ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٣ ص ٩٣ .

ثانياً: الدراسات الشرعية :

يقصد بالدراسات الشرعية هي تلك العلوم التي تقام الدراسة فيها حول كل مايخص الشريعة الإسلامية سواء في العقيدة الإسلامية أو العبادات أو المعاملات من قرآن وحديث وفقه وتفسير وغيرها ومايتفرع منها وتنشأ هذه الدراسة بطبيعة الحال بدخول الناس في دين الله الخالد إذ لابد للمسلم الجديد أن يتعلم القرآن قراءةً وفهماً. وجانب القرآن موضوعه علم القراءات. والفهم موضوعه علم التفسير. ويتعلم الحديث بالتحقيق في المتن والسند ومنه ينبثق علم الجرح والتعديل. كما لابد لحديثي عهد بالإسلام من فهم أمور الدين وغايات الشريعة ومقاصدها ومن هنا نشأ علم الفقه لضرورة تعلم الحلال والحرام.

وتبعاً لعمومية الرسالة التي تقضي بالجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في الأمصار المفتوحة انتقلت هذه العلوم ونشطت الدراسات فيها على قدم وساق في البلاد الإسلامية الجديدة، وكانت إفريقية كسائر تلك البلاد وأصبحت عاصمتها القيروان في غضون فترة وجيزة من العواصم الثقافية في الدول الإسلامية.

علم القراءات :

نزل القرآن الكريم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم على سبعة أحرف قال عليه الصلاة والسلام " أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف "(١) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي جـ١ ص ٦ .

هذا بالنسبة لنزول القرآن بسبعة أحرف وهي غير موضوعنا الذي يخص القراءات. فليست القراءات هي الأحرف، ويوضح هذا الأمر الشيخ مناع القطان إذ يقول " القراءات مذاهب أئمة وهي باقية إجماعاً يقرؤها الناس ومنشؤها في اللهجات وكيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم وترقيق وإمالة وإظهار وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف ... وجمعيها في حرف واحد هو حرف قريش "(١) .

ويعود أصل هذا العلم إلى عهد الصحابة الذين ارتضى الناس طريقهم في القراءات. ومن أشهر هؤلاء أبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم وعنهم أخذ الناس في الأمصار وقراءاتهم جميعاً يعود سندها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ عن هؤلاء الصحابة جملة من التابعين الفضلاء. وعلى رأس المائة الأولى عنيت جماعة من التابعين بضبط القراءات عناية فائقة حتى أضحت علماً كسائر العلوم الشرعية الأخرى، ومن هذه الطائفة والتي تليها برز الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات حتى يومنا هذا. وهم أبو عمرو بن العلاء، ونافع بن عبد الرحمن، وعاصم الجحدري، وحمزة الكوفي، والكسائي، وابن عامر، وابن كثير(٢) . هذا العلم الذي تأسس في المشرق الإسلامي انتقل بطبيعة الحال إلى إفريقية وأصبح علما له مكانته، فالمسلمون الفاتحون حملوا المصحف أولاً والسيف ثانياً، وبالتالي فالمسلمون الجدد لن يتوانوا عن دراسة كل ما يتعلق بأمور دينهم الجديد .

ولابد من القول أن الفتح الإسلامي منذ بداية مراحله الأولى والتي بدأت سنة ٢١هـ قد بدأ يترك بصماته في هذه البلاد وكان تأثير حملة العبادلة سنة ٢٧هـ لإفريقية كبير

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٧٠ .

(٢) مناع القطان : نفس المرجع . ص ١٧٢ .

جدا فهؤلاء هم الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا شغوفين بالقرآن وتلاوته.(١) ولما أرست قواعد الإسلام في إفريقية بإنشاء القيروان المركز العلمي والديني والسياسي وكان كثرة من التابعين قد دخلوا أثناء الفتح واستوطنها بعضهم، وكانوا حملة علم فانكبوا على دراسة القرآن والإشتغال به " على أن اهتمام التابعين في إفريقية بالقرآن لم يكن دون إهتمام الصحابة رضي الله عنهم به، ولاغرابة في ذلك مادام التابعيون يعتبرون تلامذتهم ينقلون علمهم ويقتفون أثرهم" .(٢)

ومما دفع بهذا العلم قدما أن التابعين الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، كان نشاطهم كبير لتعليم القرآن إذ حرصوا منذ قدومهم على بناء دار لسكناهم ومسجد بجواره الكتّاب ليتسنى لهم تلقين كتاب الله للناس.(٣)

لذا يمكن إعتبار عملهم هذا البداية الرسمية لمعرفة البربر للقرآن وقراءاته .(٤) كما دفع بعجلة هذا العلم نحو التطور حرص الأهالي على تعليم أولادهم القرآن إما في الكتاب أو الجامع أواستقدام المعلمين لهم في المنزل. وقد كان الآباء يدفعون إلى المعلمين شيئا من النقود جزاء لهم على مايبذلوا في تعليم أولادهم ماينفعهم في الدنيا والآخرة، فقد دفع القاضي ابن غانم لمعلم ولده الذي علمه سورة الحمد شيئا من المال وقال له " أتدري ماعلمته " الحمد لله رب العالمين ولحرفٌ واحد مما علمته خير من الدنيا ومافيها "(٥) . ومن جهود هؤلاء التابعين ظهرت أول طائفة من مشايخ القيروان

(١) هند شلبي : القراءات بإفريقية ص ٣٠ .
(٢) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٣٣ .
(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ١ ص ٧٨ .
(٤) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٤٠-٤١ .
(٥) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ١٤٦ .

من أمـثـال زياد بن نعم (ت سنة ١٦١هـ) ومـوسى بن علي اللخـمي (ت سنة ١٦٣هـ)[(١)] . أما نوعية القراءة وكيفيتها فقد كانت قراءة حرة لاتتقيد ببلد معين ولا بقراءة المصحف العثماني أيضا غير أنه بدخول التابعين الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز أصبحت القراءة عند الأفارقة بما يوافق الرسم العثماني.[(٢)] ثم سادت قراءة حمزة الكوفي في إفريقية ولعل ذلك راجع إلى أن بعضاً من علماء القيروان أمثال البهلول بن راشد وعلي بن زياد وحفص بن عماره، وعبد الله بن غانم ، كانوا قد تلقوا العلم على يد سفيان الثوري تلميذ الإمام حمزة الكوفي.[(٣)]

وتعمد هند شلبي الى الربط بين انتشار قراءة حمزة في إفريقية وبين انتشار مذهب أبي حنيفة إذ كان هذا وضع القراءات قبيل عهد الأغالبة، ورغم مؤازرتهم للمذهب الحنفي إلا أن عهدهم شهد انتصاراً رائعاً للمالكية فانتشرت إثر ذلك قراءة نافع المدني التي كان عليها الإمام مالك ذاته[(٤)] .

أما يوسف حواله[(٥)] فيؤكد على معرفة أهل إفريقية جميع القراءات غير أنهم اقتصدوا على قراءة نافع وليس ذلك بمستبعد، فالقيروان دخلها علماء وطلبة علم من كافة الأمصار وبالتالي كان دخول قراءة هذا المصر أو ذاك مع الوافدين.على أن ذلك لا يعني مطلقاً أن قراءة نافع هي المفضلة عند أهل إفريقية لعيوب في القراءات الأخرى لا

---

(١) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٤٠ .

(٢) هند شلبي : نفس المرجع . ص ١٢٥ .

(٣) أبوالعرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٢٦-١٣٨ و ص ٢٢٠-٢٣٠ ، ص ١٤٠، ١١٦، ١١٧.

(٤) القراءات بإفريقية ص ٢١٣ .

(٥) الحياة العلمية : رسالة دكتوراه لم تطبع ص ٤١٥ .

فإن الإمام سحنون حين فضل أن يعلم الأستاذ (الشيخ) طلبته القرآن بقراءة نافع استطرد قائلاً "ولابأس أن أقرأهم لغيره إذا لم يكن مستبشعاً "(١) .

لكن يبدو أن فترة تولي عبد الله بن طالب القضاء من قبل الأمير إبراهيم بن أحمد الذي أعطى أوامره لمعلم القراءات ابن برغوث ألا يُقريء الناس في المسجد الجامع بالقيروان إلا بحرف نافع كانت فترة سيادة لهذه القراءة. وكان بعمله هذا كأنما يريد توحيد أهل إفريقية على قراءة واحدة خوفاً من الوقوع في الخطأ في قراءة كتاب الله عز وجل، لاسيما إذا علمنا أن إفريقية شهدت تبايناً واضحا في لغات ساكنيها.(٢)

وكان ابن طالب تلميذاً ليونس بن عبد الأعلى الصديق الحميم لورش (عثمان بن سعيد المصري توفي سنة ١٩٧هـ) وقد كان هذا الأخير قد ختم القرآن مرات عديدة على أستاذه نافع، كما كان من طلابه كردم بن عبد الله القطيطلي، وعيسى بن مسكين القاضي.(٣)

ولابد أن نذكر أمراً هاما خاصا بالقراءة في كتاب الله عز وجل وهو اللحن الذي انتشر في تلاوة القرآن الكريم. ولعل أول من تطالعنا أخباره في إفريقية باستعمال هذه الطريقة هو حسنون الدباغ المعروف بابن زبيبه(٤)، وقد أنكر الإمام محمد بن سحنون هذه الطريقة ونهى عنها نهياً جازما فكان لايرى من المعلم " أن يعلمهم القرآن لأن مالكاً قال " لايجوز أن يقرأ بالألحان ولاأرى أن يعلمهم التحبير(٥) لأن ذلك داعية

(١) هند شلبي: المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢) كانت في إفريقية ثلاث لغات: لغة البربر وهي الأصلية، ولغة الأفارقة ، واللغة البيزنطية وهي لغة الحكومة والمكاتبات الرسمية (شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ١٨١) .

(٣) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٣٨ .

(٤) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٦٤ .

(٥) التحبير: هو محاولة التحسين .

إلى الغناء وهو مكروه ورأى أن ينهى عن ذلك بأشد النهي " [(١)] .

ولعل ذلك النهي والتشديد فيه مرده أن التلحين في القرآن يؤدي إلى عدم إعطاء الحروف حقها في النطق بالإفراط والتفريط والزيادة والنقصان حسب اللحن والنغمة[(٢)] ، إضافة إلى أن التلاوة بهذا النمط أصبحت للتسلية والترويح ويقوم بها جواري القصر المخصصين للعزف والغناء، فهذه والدة الأمير إبراهيم بن أحمد تهيّئ لابنها مجموعة من أولئك الجواري يقرأن القرآن بالألحان للتسلية والترفيه عنه [(٣)] .

أما أشهر القرّاء في الفترة التي نؤرخ لها فمنهم :

أولاً: أسد بن الفرات: يعتبر أسد من المقرئين المعلمين بإفريقية إذ قام بتلك المهمة في قرية بوادي بجردة [(٤)] . على أن غلبة النزعة الفقهية عليه وبالتالي انشغاله بالتدريس والتأليف فيها لم يمكنه على مايبدو من الإستمرار في تعليم القراءة. ويبدو أن القراءة التي كان عليها كانت معروفة من التخصص لأنه عاش في الفترة التي ظهر فيها تلاميذ التابعين الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز والتي كانت القراءة فيها وفق اختيار مقيد كما هو موجود بالمصحف العثماني " ولعله كوّن لنفسه قراءةً تخيرها من عدة قراءات أخذها عن شيوخ مختلفين "[(٥)] .

ثانياً: أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقريء:

أصله من البصرة قدم إفريقية سنة ١٥٦هـ للتجارة كان عمره يقارب الأربعين [(٦)] ، ومن أهم مايميز أبو عبد الله أن له علما وإلماماً بقراءتين، قراءة أهل البصرة ولاندري

---

(١) عبدالرحمن عثمان حجازي: المذهب التربوي عند ابن سحنون ص٥٣.

(٢) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٤٨ .

(٣) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٥١.

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص ١٧٢ .

(٥) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٨٠ .

(٦) أبوالعرب: طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٦٣ .

عن أي من أعلامها في هذا المجال أخذ إذ ضمت البصرة اثنين من القراء الأجلاء هم أبو عمرو والكسائي (١) قراءة نافع وقد أخذ هذه القراءة الأخيرة عن صاحبها ذاته وعن أحد تلامذته الأفاضل من شيوخ مصر وهو أبويحيى زكريا بن يحيى الوقار المصري(٢) وتؤكد هند شلبي على أن لأبي عبد الرحمن المقريء فضل تعليم أهل إفريقية قراءتيّ نافع وأهل البصرة وغيرها من قراءات القرآ ن المعروفة آنذاك (٣).

ثالثاً: أبو يحيى زكريا بن يحيى بن إبراهيم الوقار المصري توفي سنة ٢٥٤هـ:

علماء السنة٢٢١دخل إفريقية سنة ٢٢٥هـ فارأمن المحنه الكبرى التي ابتلى بها في المشرق وهو القول بخلق القرآن، وكان وقتها يعيش في مصر، أخذ عن الإمام مالك الفقه، وعن نافع القراءة وجلس أبو يحيى لتلقين العلم في إفريقية وتتلمذ على يديه كثيرين منهم أبو عبد الرحمن المقريء (٤).

رابعاً: محمد بن برغوث المقريء (توفي سنة ٢٧٢هـ):

وهو من تلامذة الوقار كان يجلس في المسجد الجامع في القيروان ليعلم الناس القراءات، ويبدو أن له إلماماً بأكثر من قراءة إذ نرى القاضي ابن طالب يأمره بإقراء الناس على قراءة نافع فقط، فدل ذلك على أنه كان يُقريء الناس بعدد آخر من تلك القراءآت فأقصرها على قراءة نافع نزولاً على أمر القاضي. وكان دخوله إلى إفريقية سنة ٢٢٢هـ ومن تلامذته أبو يحيى البطيخ، ومحمد بن أحمد التميمي.(٥)

---

(١) مناع القطان : نفس المرجع . ص١٧٢ .

(٢) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٢٠ .

(٣) القراءات بإفريقية ص ٢٢٠ .

(٤) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٢٠ .

(٥) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص٣٧٨ ، هند شلبي : نفس المصدر . ص ٢٨١ .

خامساً: أبواليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي:

كان كاتباً للأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة ٢٦١هـ ومن بعده كاتباً لابن العباس ثم للأمير زيادة الله له إلمام بكثير من العلوم على رأسها علم النحو، وإن لم يكن له تأليف في القراءات رغم مؤلفاته في العلوم الأخرى إلا أنه ألف كتاباً في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه سماه (سراج الهدى) وعلى هذا ممكن أن نعطي حكماً له بمعرفته بالقراءات لأهميتها في تفسير القرآن.(١)

سادساً : محمد بن محمد بن خيرون :-

من أصل أندلسي استوطن القيروان وعاش فيها الى أن أستشهد بها اثر تعذيب الشيعة العبيدين له سنة ٣٠١هـ (٢). كان له فضل كبير في علم القراءات حيث جلس للقراء الى جانب تأليفه في هذا الفرع من العلوم الشرعية وكتابة (الابتداء والتمام) من عظيم المؤلفات المغربية لأنه باكورة الانتاج الافريقي في القراءات (٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل من ذكرنا من قراء إفريقية لم يكونوا في مستوى واحد بل كان بينهم تفاوت شأنهم في ذلك شأن علماء المشرق. ولذا نستطيع القول أن من الذين بلغوا شأناًعظيماً في علم القراءات من أبناء إفريقية محمد بن برغوث الذي أضحى بفضل حذاقته لهذا العلم متصدراً لحلقة القراءة في المسجد الجامع، ويبدو أنه كان أستاذ هذا العلم فأخذ مكان الرياسة للتدريس. إذلم يصلنا في هذه الفترة عالم آخر تصدر للتدريس في المسجد الجامع وقد يكون هناك عدد آخر من علماء هذا العلم إلاأنهم دون مستواه ولاننسى له فضل توحيد إفريقية على قراءة واحدة هي قراءة نافع.

ولابد من القول أن علم القراءات في إفريقية مرّ بنفس الأطوار التي مر بها في

(١) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٨١ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ ١ ، ص ٢٨٨

(٣) الذهبي : القراء الكبار . جـ١ ،ص ٢٧٧

المشرق الإسلامي كما أن دور الأفارقة فيه كعلم مستقل له مؤلفاته كان ضعيفاً في القرنين الأول والثاني " غير أن الذي ينبغي ملاحظته هو أن مشاركة الأفارقة في القرنين الأول والثاني كانت مشاركة سلبية، إذ أنها كانت كما يبدو مقصورة على التلقي فلم نعثر في تلك الفترة على قاريء واحد بأتم معنى الكلمة من منشأ إفريقي "(١) لكن ما ان جاء القرن الثالث الهجري حتى وجدنا شخصية ابن برغوث تساهم في المشاركة الفعلية في هذا العلم ثم تلاه محمد بن خيرون الذي بفضله بعد الله شهدت إفريقية تأليفاً في علم القراءات.كما أسلفنا القول .

علم التفسير :

علم التفسير هو العلم الذي يختص بشرح الآيات القرآنية " وتوخي المعنى القريب الميسور الراجح "(٢) وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم في تنشئته الجيل على مائدة القرآن طريقة بارعة أكسبتهم فهماً واضحاً لمعانيه وهي طريقة الحفظ مع التطبيق العملي لما حفظ حتى رأينا بعد ذلك من صحابته من لقب بترجمان القرآن كعبد الله بن عباس وبلغ من اهتمامهم بمعرفة معاني آيات القرآن أن جدّوا في الرحلة إلى من هو أوسع فهماً وعلماً، يقول عبد الله بن مسعود " ولا أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني إلا رحلت إليه "(٣).

كان هذا شأن المسلمين الأوائل المتعطشين لمعرفة أحكام الدين والوقوف على مراميه

---

(١) هند شلبي : نفس المرجع . ص ٢٦٧ .

(٢) مناع القطان : نفس المرجع . ص ٣١٦ .

(٣) ابن عبدالبر : الإستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ص١٣٣

وأهدافه لفهم القرآن والسنة النبوية، وكان ذلك أيضاً شأن كل من دخل في هذا الدين. وهذا أمر طبيعي نابع من الرغبة في السير على هذا المنهج القويم دون خلط أو تشويش.

لذا كان لزاماً أن نجد لعلم التفسير مكانه في سائر الأمصار المفتوحة وإفريقية من ضمنها، وهذا العلم مقرون في إزدهاره بوجود العلماء الأفاضل الذين يجندون أنفسهم لفهمه ومن ثم تلقينه. وإن كنا لانجد منذ عصر الفتح الإسلامي لإفريقية أسماءلعلماء مفسرين إلا أننا نستطيع أن نقول دون جزم أن حلقات تلقين القرآن لابد وأنه كان يتم فيها شيء من التفسير. ولعل دخول عكرمة مولى عبد الله بن عباس إلى إفريقية يعتبر بداية التأسيس الحقيقي لعلم التفسير وإذا كنا لم نستطع الوقوف على السنة التي دخل عكرمة فيها القيروان إلاأننا نعرف أنه كان برفقة سلمة بن سعد الحضرمي داعية المذهب الإباضي الذي أرسله أستاذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وقد تولى الأخير إمامة الإباضية سنة ٩٥هـ وعليه يكون دخول داعية المذهب الإباضي وعكرمة بعد هذا التاريخ(١) وعكرمة كان أعلم الناس بالتفسير كما أورد ذلك المالكي(٢)، وعلى ذلك لابد وأنه بث علمه هذا بجلوسه في جامع القيروان.

أورد الطاهر المعموري هذا النص حول علم التفسير " لم يحتل التفسير بإفريقية مكانة كبيرة منذ بدأت العلوم الإسلامية تنتشر في البلاد لعدم حاجة الناس إليه وضعف استعدادهم لممارسته "(٣) والواقع أن هذا وهم كبير ذلك أن لدينا برهاناً واضحا على مدى انتشار هذا العلم وتقبل الأفارقة له واستيعابهم فيه ووقوفهم على

---

(١) صالح باجيه الأباضية بالجريد ص ٣٤ ، عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر . ص ٩٢.

(٣) جامع الزيتون ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص ٣٢ .

دقائقه فالرسالة التي أرسلها أهالي القيروان إلى الخليفة هشام بن عبد الملك والتي تحمل في مضمونها شكوى سوء حالهم إلى أن قالوا " لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون "(١) فكان ذلك يعني وقوفهم على معاني القرآن ومعرفة مدلولاته وإلا لما توجهوا إلى الخليفة بهذا القول. وفي القرآن كثير من الأحكام لا يفهم معناها إلا بعد تسهيل وتبسيط، أضف إلى ذلك وجود عكرمة أعلم الناس بهذا العلم بين أظهرهم.

أما قول الطاهر المعموري بإن الأفارقة ليسوا بحاجة إلي علم التفسير فنحن نقول إن علم التفسير لا يحتاج إليه قطر دون قطر فطالما هذا البلد دخل في الإسلام ودستوره القرآن فالحاجة تكون ماسة لتفسير هذا الدستور للسير على نهجه. أما الحكم على الأفارقة بضعف الإستعداد لممارسة علم التفسير فهو قول مردود عليه من استقراء تاريخ العلوم الشرعية، فالبيئة التي أنتجت سحنون وابن طالب وجبله الصدفي وحماس بن مروان وغيرهم كثير، قادرة على إنتاج علماء في التفسير وقد كان حيث رأينا نماذج من علماء التفسير من أمثال يحيى بن سلام (٢) وتفيدنا مقدمة علي الشابي في كتاب القراءات بإفريقية في هذا الصدد كثيراً جداً فهو حين يسرد تأثر علم القراءات بإفريقية بمثيله في المشرق يؤكد على تأثير تلك الدراسات الإفريقية فيما بعد أي حينما اشتد ساعدها في المشرق والأندلس، ونشير إلى أن تفسير ابن سلام قد وجد اهتماماً بالغاً عند عالمين جليلين من علماء الأندلس هما ابن أبي زمنين وعبدالرحمن القرطبي(٣).

---

(١) انظر نص الرسالة في الطبري ، الرسل والملوك جـ٤ ص ٢٥٤ .

(٢) ليس ابن سلام إفريقياً بل من الذين استوطنوها فهو مشرقي قدم إليها وعاش فيها زمناً (المالكي: الرياض . جـ١ . ص١٢٣ .

(٣) هند شلبي : نفس المرجع ، مقدمة علي الشابي ص٨ .

وللأسف لم تسعفنا المصادر ببعض أسماء تلامذة عكرمه مولى ابن عباس ولو كان ذلك لتمكنا عن طريق التواتر من الوصول إلى نخبة من دارسي هذا العلم وبالتالي إلى تدرج دراسة علم التفسير في الفترة موضوع البحث.

أشهر علماء التفسير في الفترة موضوع الرسالة هو أبو زكريا يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة البصري التميمي وُلد سنة ١٢٤هـ، استوطن القيروان ثم رحل عنها إلى مصر حيث توفي بها سنة ٢٠٠هـ وإذا كان قد عاصر دولة الأغالبة فاننا لانجزم أكانت معاصرته لهم أثناء إقامته بإفريقية أم بعد رحيله عنها إلى مصر إذ لاتذكر المصادر السنة التي خرج فيها من إفريقية لكن من الممكن تجاوزاً اعتباره من مفسري هذه الفترة إذ سيبقى مؤلفه الذي حمل اسم (تفسير ابن سلام عمدة في التفسير وسيكون فاتحة للانتاج في هذا العلم [١] .

كما تظهر شخصية أبو داود العطار (ت سنة ٢٢٤هـ) تلميذ يحيى بن سلام وقد أدى دوراً محموداً في بث هذا العلم عن طريق نشر تفسير أستاذه ابن سلام وعن أبي داود أخذ محمد بن وضاح الذي نشر تفسير ابن سلام في الأندلس[٢] كما شاركه بعض الفقهاء في الدراسة في هذا الموضوع من أمثال أسد بن الفرات (ت سنة ٢١٣هـ) إذ يقال أنه كان يقرأ التفسير على طلبته ومريديه [٣] . ومن مفسري هذه الحقبة أيضاً -فترة الأغالبة- محمد بن يحيى بن سلام ابن المفسر الكبير يحيى بن سلام الذي أضاف إلى تفسير والده بعضاً من الزيادات [٤] .

وعلى هذا يمكن القول إن علم التفسير في إفريقية نشأ على يد عكرمة مولى ابن

---

(١) يوسف حوالة : الحياة العلمية جـ٢ ص ٤٢١ .

(٢) يوسف حواله : نفس المرجع . جـ٢ ص ٤٢٢ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك . جـ١ . ص٤٧٥ .

(٤) يوسف حواله : نفس المرجع . جـ٢ ص ٤٢٣ .

عباس واشتد عوده على يد يحيى بن سلام حيث نشطت حركة التفسير بعده وأضحى لهذا العلم أصوله ومؤلفاته.

كما برزت شخصية أبو شيخ المفسر واسمه طلق بن الشيخ، ولم يذكر المالكي[١] الذي ترجم له سنه وولادته ولاعلمه ولاشيء عن أصله غير ماذكره من معاصرته لسحنون فدل ذلك على أنه من العلماء في الفترة التي نؤرخ لها. وقد ذكره بالمفسر فغالباً يكون ذلك لعلمه في تفسير القرآن ولعل كونه كان يفسر لرؤية مايدعم القول بأنه من مفسري القرآن.

علم الحديث :

هو علم يبحث في كل مايتعلق بالحديث النبوي من تحقيق للأخبار والرجال وتحقيق للتواريخ والوقائع ودرجات الحديث ويندرج معه علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل [٢] والسنة النبوية هي قول وعمل وتقرير الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حفظ لنا هذا التراث الصحابة رضوان الله عليهم في عقولهم لأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم نهاهم عن كتابته حتى لايختلط مع القرآن. ولقد كان الصحابة على درجة من الإدراك لقيمة الحديث لذا تحروا الدقة في نقله وضبطه[٣].

ثم لما كان عصر التدوين أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي كان للحديث نصيب الأسد في التدوين[٤] ولعل ذلك كان سبباً في الحفاظ على هذا التراث العظيم من الضياع. ولقي الحديث اهتماماً بالغاً عند أهل المغرب [٥]. ومرد ذلك الإقتداء بسنة

(١) رياض النفوس جـ١ ص ٢٠٩ .

(٢) عبدالبديع صقر : مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف . ص٢٨ .

(٣) السيد محمد الوكيل : الحركة العلمية في عصرالرسول وخلفائه ص ٥٥ .

(٤) مناع القطان : نفس المرجع ص ٣٤٠ .

(٥) محمد عادل عبدالعزيز : التربية الإسلامية في المغرب ص ١٩ .

الرسول الكريم عليه أفضل وأزكى الصلاة والتسليم، وكذلك سد باب الفتنة في وجه أهل الجدل والنقاش بالإعتماد على النصوص القرآنية والنبوية وكان ذلك كما أسلفنا ردة فعل وانعكاس ناتج لما اجتاح البلاد الافريقية من الملل والنحل وماجرته تلك من نكبات وويلات على المنطقة أدت إلى تفرق المجتمع من ناحية وإلى تأخر تطوره من ناحية أخرى. ويعتبر العصر الأغلبي بداية التقدم الفعلي في دراسة الحديث حتى أصبح لهذا العلم في عهدهم علماء متخصصون بالدرجة الأولى في رواية الحديث وضبطه وتحري سيرة رواته(١). ولم تكن الفترة السابقة لعهد بني الأغلب إلا مرحلة تمهيدية لنشأة علم الحديث عند أهل إفريقية، فقد كانت جماعة التابعين ذات أثر فعال في نمو هذا العلم في وقت مبكر. فهذا اسماعيل بن عبيد الله -تاجر الله - روى عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص ثم نقل عنه من أهل إفريقية بكر ابن سوادة الجذامي وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم(٢).

إذن عرف أهل إفريقية علم رواية الحديث منذ بداية عهدهم بالإسلام، ولم لايعرفونه وهو المصدر الثاني للتشريع، ولم لا يتحرون الضبط فيه وهم الذين أنفوا التعددية في الآراء والأفكار، بل لعل ذلك الوضع هو الذي ساهم على التحري والضبط فيكون من المعقول مع التدرج الزمني لهذا العلم أن يبلغ في عهد الأغالبة مرحلة من النضج من ناحية والتخصص من ناحية أخرى، إذ أن عصر الأغالبة شهد تقدماً ملموساً في جميع فروع المعرفة بسبب ماأولته هذه الدولة للعلم ومشايخه وطلبته من عناية ورعايةكبيرين.

أما مايذكر من أن إفريقية لم تحظ بازدهار مدرسة الحديث في فترة ازدهارها بالمشرق لاكتفائها بفقه مالك(٣). فهذا غير صحيح لأن أهل إفريقية كانوا يتمسكون بمصدري

---

(١) يوسف حواله : الحياة العلمية ص ٣٩٤ .

(٢) المالكي : رياض النفوس جـ١ ص ٦٩ .

(٣) الطاهر المعموري : جامع الزيتون ومدارس العلم في العهدين الحنفي والتركي ص ٣٤ .

التشريع تمسكاً كبيراً فكان لزاماً عليهم التحري في معرفة صحة الحديث وضبطه سنداً ومتناً لاسيما إذ كانت البيئة في القيروان تموج بمختلف النحل من خوارج ومعتزلة وشيعة وكانت تطرح أحاديث مكذوبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعم مبادئهم وتناصر عقيدتهم، ففي وسط هذا الجو كان التحري ضرورياً[(١)]. وعليه فإن نشاط الدراسات في الحديث كان واسعاً ولعل في وجود رواة للحديث في وقت مبكر أي بداية القرن الثاني الهجري ممن كان أصله مشرقياً واستوطن القيروان كالتابعين الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز أو ممن كان أصله من إفريقية كالبهلول بن راشد الذي روى عنه الإمام مسلم في صحيحه [(٢)]. كما لانغفل أن مدرسة الحديث في فترة ازدهارها في المشرق كانت أسبق بسبب دخول الإسلام في تلك المنطقة قبل نصف قرن أو أكثر من دخوله إفريقية وعليه فان العامل الزمني أوجد هذا التباين في زمن ازدهار المدرستين ولايعتبر حجة يستند عليها في عدم ازدهار مدرسة الحديث عند الإفريقيين كما يزعم بذلك المعموري.

ولقد عرف عن الأفارقة شدة حبهم لدراسة علمي الفقه والحديث وبالتالي نتج عن ذلك نشاط كبير في تحصيلهما والعناية بهما[(٣)]

وكنتيجة طبيعية للتقدم الذي عاشته إفريقية زمن الأغالبة كان الأمراء يحرصون على مواكبة التقدم العلمي بشكل كبير حتى أن مؤلفات العلماء في مختلف فروع المعرفة لم يكد يحول على ظهورها الحول في بغداد أو قرطبة حتى نجدها قد وصلت القيروان بفضل الله ثم بفضل ماكان يبذله الأغالبة من أموال طائلة لإحضارها[(٤)].

---

(١) عبدالعزيزالمجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ٣٥-٣٦ .

(٢) المالكي : رياض النفوس جـ١ ص ١٣٢ .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ١ ص٢٩٧ .

(٤) المنجى الكعبي : القزاز القيرواني ص١٨ .

ولم يقصر العلماء في سبيل الوصول إلى بغيتهم من الحديث في قطع المسافات الطويلة لسماعه ونقله والتأكد من صحته، وعلى رأس المحدثين تطالعنا سيرة أبي جعفر الصمادحي (موسى بن معاوية بن أحمد بن عون)من ولد جعفر ابن أبي طالب، اشتهر بالفقه والحديث معاً[1]. رحل إلى المشرق سنة ١٨٤هـ طلباً للعلم وهناك التقى بفارس المحدثين وثقتهم وكيع بن الجراح الذي قال فيه موسى بن معاوية بعدما خبره " لم ألق أحداً أروى من وكيع، كان يروي خمسة وثلاثين ألف حديث يقرؤها علينا ظاهراً على تأليفها مايشك في حديث منها[2]" كما أخذ عنه سفيان ابن عيينه، والفضيل بن عياض، وعبدالرحمن بن مهدي، وزيد بن هارون وجرير بن عبد الحميد ومن علماء إفريقية الذين أخذ عنهم الصمادحي البهلول بن راشد ورباح بن يزيد[3]. عاد من رحلة العلم هذه سنة ١٨٩هـ وجلس في المسجد الجامع ليبث علمه وكان لجلوسه أثر عظيم حتى قال عنه سراج القيروان سحنون بن سعيد " ماجلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحق بالفتوى منه "[4]. نقل عنه الفضل بن حميد وسحنون وبن ضاح وأحمد بن يزيد القرشي.

وعن محدث إفريقية الثاني في هذه الفترة أبوالوليد عباس بن الوليد الفارسي قال أبوالحسن الكوفي:" لم يكن بإفريقية محدث إلا موسى بن معاوية الصمادحي وعباس الفارسي "(٥) وعباس هذا ثقة مأمون أخذ عن جماعة من المحدثين أمثال بن عيينه وحماد بن زيد والفضيل بن عياض كما يذكر أنه لقي مالكاً في المدينة وروى عنه، كان

---

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص١٤٢ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص ٥٢

(٣) الدباغ: نفس المصدر . جـ٢ ص٥٢ ، القاضي عياض: تراجم أغلبية ص١٤٢.

(٤) الدباغ: نفس المصدر . جـ٢ ص ٥٢ ، القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ١٤٢ .

(٥) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص١٤٢ .

مستوطنا بتونس لكن له دار في القيروان، مما يدلل على أنه شارك في النشاط العلمي في العاصمة الثقافية للقيروان، وقد استشهد في أثناء القضاء على ثورة منصور الطنبذي بتونس زمن إمارة زيادة الله الأغلبي سنة٢١٨هـ (١) كذلك من محدثي القيروان أبو عبدالله محمد بن علي الرعيني، ذكر المالكي له حديثا مما روى(٢) غير أنه لم يمدنا بمعلومات عن شيوخه وطلبته ولا عن مؤلفاته.

كذلك أبو عبدالله محمد بن معاوية الحضرمي ذُكِرَ بأنه ثقة ومشهور غير أنه لم تذكر المصادر التي بين أيدينا الفترة التي عاش فيها سوى ماذكر أنه عاصر سحنون بن سعيد فكان بذلك إشارة إلى انه كان في العصر الذي نحن بصدد الحديث عنه، أورد المالكي له حديثا مما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وأيضا ممن اشتهر بالرواية والحديث عبدالله بن أبي حسان اليحصبي من أشراف إفريقية، وأصل والده من العرب البلديين وكان يسكن القيروان في حارة يحصب عاصر الأمير زيادة الله بن إبراهيم وشارك في المناظرة القائمة حول النبيذ حرام أم حلال مع قاضي الأمير أسد بن الفرات وأبو محرز، سمع من مالك بن أنس ومن ابن ذُئب وابن عيينه وكان ثقة لم يطعن فيه أحد. أخذ عنه سحنون، ومحمد بن وضاح، وسليمان، وغيرهم(٤).

ومن أعلام هذا العلم ابن أبي كريمة الذي روى عنه سحنون بن سعيد وعون وداود ابن يحيى وشجرة وغيرهم،(٥) قال سحنون فيه " كان بتونس علي بن زياد وابن أشرس وعبد الملك بن أبي كريمة ولم يكن ابن أبي كريمة في ناحيتهما، وانما كان رجلاً صالحا

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص١٦٩ .

(٢) رياض النفوس جـ١ ص٢٠٨ .

(٣) رياض النفوس جـ١ ص٢٠٤ حاشية رقم ٢ .

(٤) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص٢٠٣ ، القاضي عياض: تراجم أغلبية ص٧١ .

(٥) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص٢٣٠ حاشية رقم ٣

ورعاً صاحب أحاديث سمع عن مالك والثوري وغيرهم[١] كما تظهر شخصية محمد بن يحيى بن سلام التميمي رحمه الله في هذا المضمار كعالم له دراية وعناية بالحديث ونقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله عاصر الأمير أبوإبراهيم أحمد بن حمد بن الأغلب. وكان مولده بالبصرة ولذا يقال محمد بن يحيى بن سلام البصري توفي سنة ٢٦٢هـ وعمره اثنتان وثمانون سنه[٢] وغير هؤلاء كثيرون أمثال محمد بن سحنون الذي عرف عنه الفقه ورواية الحديث ولعل ذكر هذه الطائفة من المحدثين كافياً لبيان دور القيروان ساكنيه ومستوطنيه في تنشيط الدراسات في علم الحديث.

علم الفقه:

نشأ هذا العلم منذ وقت مبكر في الدولة الإسلامية لحاجة الناس إليه فرغبة في أن يقفوا على أحكام هذا الدين بالإعتماد على مصدري التشريع القرآن والسنة النبوية كان ظهور علم الفقه، وقد ظهر كما أسلفنا منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ومرّ بمراحل متعدده حتى وصل في نهاية المطاف الى وجود أربعة مذاهب فقهية يحتذي الناس بأئمتها وهي أبوحنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل. وقد نشأت هذه المذاهب في أمصار الدولة الإسلامية المختلفة، وكان لكل مصر مذهب معين وأحياناً ينتشر أكثر من مذهب في بلد واحد.

ولعل الهجرات من جانب والرحلات العلمية من جانب آخر قد ساهمت في التكوين المذهبي للبلد، أضف الى ذلك العامل السياسي الذي كان يلعب دوراً هاماً في عملية التمذهب كما سبق أن أشرنا الى ذلك.

عرفت إفريقية منذ بداية القرن الثاني الهجري نشاطاً ملموساً في الحركة الفقهية

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص٢٣٠ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ٢ ص١٤٥-١٤٦-١٥٠ .

فقد كان للتابعين الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز أثر محمود في بداية هذا النشاط الذي سيصبح فيمابعد حركة قوية تجعل من القيروان قاعدة علمية يؤمها رواد المعرفة من الشرق والغرب على حد سواء، وكانت هذه الحركة تتسع وتزداد قوة مع وجود الإستقرار السياسي في القيروان، فلما كانت دولة الأغالبة حيث الوضعية الجديدة لولاية إفريقية وعاصمتها وتهيأ الجو السياسي واستقرت أحوال الدولة، ومن ثم عنيت بالناحية العلمية . شهدت إفريقية آنذاك تقدما واضحا في الدراسات الفقهية، وكان البلاط الأميري ذاته يعقد المناظرات لتحصل الإستفادة المرجوة.(١)

والمناظرة كما عرفها صاحب كتاب ضوابط المعرفة " هي المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وابطال وجهة نظر خصمه مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره "(٢).

ومن هذا المعنى نستطيع أن ندرك قيمة الدور الذي أدته المناظرة في النشاط الفكري في القيروان وقد تصدى علماء المالكية في هذه المناظرات للمعتزلة حول قضية خلق القرآن(٣). ولم يتوقف الحال عند هذا الحد بل لقد ساهم المالكية بمؤلفات كتابية تصدوا فيها لمؤلفات المعتزلة ككتاب سعيد بن الحداد الذي ناقض فيه من يقول بخلق القرآن وكتاب إبراهيم بن البرذون رد فيه على محمد بن الطلاتي المعتزلي وكان هذا المؤلف سببا في قتله من قبل بني عبيد(٤).

وإذا كانت المناظرة قد ساهمت بشكل كبير في نشاط الحركة الفقهية فان من الجدير

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص٢١٣ .

(٢) عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني: ضوابط المعرفة . ص ٣٧١ .

(٣) حول موضوع المناظرة بين علماء المالكية والمعتزلة أنظر المالكي: رياض النفوس جـ١ ص٣٥٠ .

(٤) السيد محمد أبوالعزم داود : نفس المرجع . ص٢٦٣ .

أن نقول إن نشاط الدراسات الفقهية قد بدأ قبل هذا العهد وذلك عن طريق المساءلة إذ كان عالم إفريقية عبدالله بن فروخ في عصر الولاة يكاتب الإمام مالك يسأله فيما يطرأ عليه من أموره كتب مثلاً إلى الإمام مالك رضي الله عنه يبلغه عن حال إفريقية اذ قال" إن بلدنا كثير البدع "فرد عليه الإمام مالك بما ينبغي أن يواجهوا به أهل تلك البدع "[(١)] فكانت تلك المراسلات لها أثرها في بداية التأليف في الدراسات الفقهية، وقد شجع على التأليف في هذا المجال دخول موطأ الإمام مالك رحمه الله، وجامع سفيان الثوري مع الفقهية علي بن زياد (ت سنة١٨٣هـ)، وكان ذلك قبل قيام دولة الأغالبة حتى نجد بعد ذلك أول مؤلف في الدراسات الفقهية أخرجه هذا الفقيه علي بن زياد (كتاب خير من زنته)[(٢)]، كما كان لنشاط ابن غانم في الدراسات الفقهية أثره في إثراء هذا المجال حيث كان نشاطه ممثلاً في المراسلات التي تمت بينه وبين الإمام مالك من جهة وبين أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة من جهة ثانية[(٣)].

كانت المرحلة السالفة الذكر هي المرحلة الأولية للتأليف في الفقه وبداية نشاط الدراسات الفقهية إذ ستكون مرحلة دولة الأغالبة عصر الإزدهار لهذا المجال من التراث العلمي، ولعل ذلك راجع إلى:

أولاً: الإستقرار النسبي الذي عمّ إفريقية بعد ماكان في عصر الولاة من العزل والتولية التي كانت تتم بصورة سريعة بسبب أحداث الخوارج الأمر الذي كان يحصر عمل الوالي في تهدئة الأمور واصلاح ماأمكن إصلاحه من مرافق الدولة.[(٤)]

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص١١٤ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٢ .

(٣) الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب ص٢٢٩ ، والقاضي عياض: تراجم أغلبية ص١٢ .

(٤)محمد زيتون : نفس المرجع . ص١٢٠ .

ثانياً: التشجيع الذي كان من الأغالبة للناحية العلمية والتسهيلات الجمة التي قدمتها الدولة للدارسين والعلماء على حد سواء كانشاء المكتبات العامة والخاصة واستحضار الكتب من شتى بقاع الأرض لها وبالتالي عقد المناظرات العلمية في مجالسهم.

وخير شخصية تطالعنا فيها المصادر في مجال الدراسات الفقهية في الفترة موضوع البحث هي شخصية أسد بن الفرات وأصله من نيسابور قدم أبوه إفريقية وأمه حامل به في رواية عياض وفي رواية المالكي أن والده قدم به إلى إفريقية منذ صباه(١). رحل في طلب العلم الى تونس حيث درس على علي بن زياد موطأ مالك ثم رحل الى الإمام مالك ذاته سنة ١٧٢هـ وسمع منه موطأه، وطلب علم أهل العراق وتتلمذ على طلبة أبي حنيفة من أمثال أبي يوسف، وأسد بن عمر، كما رحل إلى مصر بعد وفاة الإمام مالك فألزم نفسه بحلقات عبدالرحمن بن القاسم الفقيه المالكي وعنه سجل مؤلفه في الفقه المعروف بالأسدية وهي ستون كتاباً.(٢)

عاد أسد الى القيروان سنة ١٨١هـ ومعه من علم أهل المدينه وأهل العراق مايعينه على تنشيط الحركة الفقهية، وكان إقبال الناس عليه شديداً غير أن قوله بالرأي الى جانب الأخذ بالأثر قد أثار بعض أهل الدين في القيروان من أمثال عبد الخالق العابد، وقد كان لأسد وجهة نظر في الأخذ عن أهل المدينة وأهل العراق إذ كان يرغب في تدعيم الرأي بالأثر.(٣)

تولى القضاء للأمير زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٠٣هـ الى جانب القاضي الحنفي

---

(١) ترتيب المدارك جـ١ ص١٧٢ - رياض النفوس . جـ ١ . ص ١٧٩

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ١ ص١٧٩ .

(٣) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص٢٥١.

أبو محرز، وكانت المناظرات تعقد في مجلس الأمير الأغلبي بينه وبين القاضي الثاني الحنفي المذهب أبو محرز، فما كان لهيبة السلطان في نفس أسد أثر يمنعه من قول الصواب وهو بهذا يمثل المنهج المالكي في مقاومة السلطان والجهر بالحق دون خشية، أدى أسد دوراً محموداً للمذهبين المالكي والحنفي، فمن حيث المذهب المالكي يعتبر أسد من أوائل الذين استعملوا الأثر وبذلوا قصارى جهدهم في الأخذ بالنصوص فمثلاً الأسدية وإن استعمل فيها الرأي والقياس إلا أنها لم تخرج عن كونها مبنية على الآثار وقد ساهمت في الحياة الفكرية وبالخصوص الدراسات الفقهية وليس في إفريقية فحسب بل وحتى في مصر إذ أصر أهالي مصر على أسد أن يدفع إليهم بالأسدية[١]

أما خدمات أسد لمذهب أبي حنيفة فإليه يرجع الفضل في تبصير الناس بحقيقة مباديء مذهب العراقيين الخالي من كل دخيل، ولعل أدق تعبير يمكن الأخذ به في هذا الصدد - أي ماأداه - أسد للمذهبين اللفتة الطيبة الذي ذكرها المجذوب حول فقه أسد لكونه يفتي بالمذهبين مما يشير إلى أنه لم يكن ناقلاً ولامقلداً " بل رجلاً من رجال الإجتهاد، إماماً من أئمة التشريع والفقه[٢]" . فأثرى بذلك الوعي والعقل والتفكير في الدراسات الفقهية سواءً ماكان ممثلاً في مؤلفاته أو ماأسداه من تعليم لطلبته. وقد كان تراثه الباقي من طلبته كثير إذ سمع منه أحناف ومالكيون على حد سواء[٣].

أدت الأسدية دورها في مجال الدراسات الفقهية إلى أن جاء الإمام سحنون بن سعيد الذي أحدث تغييراً جذرياً عن طريق تنقيح أسدية أسد في مجال التيار الفقهي في إفريقية. وذلك بعد أن عرضها سحنون بن سعيد على فقيه المذهب المالكي آنذاك

---

(١) محمد زيتون : نفس المرجع . ص ٢٥٢ .

(٢) الصراع المذهبي ص ٥٤ .

(٣) عبد العزيز المجذوب : نفس المرجع . ص ٥٧ .

ابن القاسم في مصر. إذ أدرك الإمام سحنون الحاجة الماسة إلى تنقيحها لكن بقيت أجزاء منها كما هي فالمدونه والمختلطة هي أصل المذهب المالكي وعليها العمد عندهم إذ أصبحت تمثل عند المغاربة بمثابة الرأس من الجسد، ولاعجب فقد أدت المدونة إلى ثراء فكري وحضاري وعلمي وفقهي كما أنها أخرجت نموذجاً فقهياً يتناسب مع الطبيعة البشرية والنفسية والثقافية للمغاربة[١] ".

ويمكن بالنظر فيما كتب عن الأسدية والمدونة قول ماذكره المجذوب في هذا الصدد بأنه ليس من ثمة خلاف بين العمليين الفقهيين سوى ماكان في المنهج فقط ، فأسد بنى أدراج مذهب على مذهب آخر فوقع بذلك في اختلاط في الأقوال واختلاف في غروها كما اعتمد لاستخلاص الحقائق على الإجتهاد أكثر من الإعتماد على الأحاديث والآثار كما هو منهج مالك.[٢]

على أن ذلك النقد لايؤدي إلى التقليل من قيمة الأسدية فلا ننسى أنها كانت قاعدة المدونه وإن كان بطل الأخذ بها بعد ظهور مدونة سحنون الا أنها الأصل على كل حال .

ولعل مما يوضح قيمتها أن الإمام سحنون لم يتجنبها ويصرف نظره عنها ، ويعمد الى تأليف منهج مستقل إنما رأى أن قيمتها لاتوازي وتحتاج فقط إلى تنقيح وشروح وزيادة فأخذها وعرضها على ابن القاسم الفقيه المالكي وكان نتاج ذلك المدونه ، مع بقاء أجزاء منها على ماهي عليه دون تنقيح ولعل في وجود هذه الأجزاء على صورتها الأولى مايدلل على أنها بغير حاجة وهذا مايؤكد قيمة العمل الذي قام به أسد. ذكر

---

(١) يوسف حوالة : نفس المرجع . ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) الصراع المذهبي ص ٥١ .

عياض في شأن هذا الموضوع قوله " رحل سحنون الى ابن أبي القاسم وقد تفقه في علم مالك فكاشف ابن القاسم عن هذه الكتب مكاشفة فقيه يفهم فهذبها مع سحنون "[(١)] وفي موضع آخر ذكر قول الشيرازي " واقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون ، ونظر سحنون فيها نظراً آخر ، فهذبها وبوبها ودونها وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ماختار ذكره وذيل أبوابها بالحديث والآثار إلا كتباً منها مفرقه بقيت على أصل إختلافها في السماع [(٢)]" . ويمكن القول أن العمل الذي قام به الإمام سحنون قد أدى في رأينا الى الطريق الأقوم للتأليف في الدراسات الفقهية القويمة. حقيقةً ماكان لسحنون أن يقوم بهذا العمل لولا ماحباه الله سبحانه وتعالى به من عقل راجح وفكر ثابت ، وقد كان للبيئة التي عاش فيها أثر على تكوينه فقد كان منشأه في القيروان إذ دخل أبوه إفريقية مع جيوش حمص[(٣)]. وإن لم تمدنا المصادر بالسنة التي دخل فيها إذ تكرر دخول جند الشاميين الى إفريقية وقت الأزمات السياسية إلا أن منشأه كان في عاصمة العلم الأولى في المغرب التي أضحت بفضل جهود الخلفاء والولاة مركزا ثقافيا على مستوى عال جدا. ولم يكتف سحنون بتلقي العلم عن علماء القيروان من أمثال البهلول بن راشد وعلي بن زياد ، وابن أبي حسان، وعبدالله بن غانم، ومعاوية الصمادجي وغيرهم، بل طلب الاستزادة في العلم فرحل الى المشرق للتلقي من أكبر شيوخ ذلك العصر فأخذ من الحجاز عن وكيع بن الجراح وسفيان بن عيينه وعبدالرحمن بن المهدي والمغيرة بن عبدالرحمن ، وفي مصر أخذ عن عبدالرحمن بن القاسم وعبدالله بن الحكم وشعيب بن الليث وابن وهب وغيرهم. عاد سحنون بعد

---

(١) تراجم أغلبية ص ٥٩

(٢) تراجم أغلبية ص ٦٠

(٣) المالكي: رياض النفوس جـ ١ ص ٢٤٩ .

تلك الرحلة بعلم غزير جعله أهلا لأن يقال عنه " هو سيد أهل المغرب " فقال حمديس لقائل هذه العبارة وهو يونس بن عبد الأعلى "أو لم يكن سيد أهل المغرب والمشرق [١]

هذا التحصيل العلمي جعله يدفع الحركة الفقهية قدما كما كان تقواه وورعه سنداه. إذ لم يكن ليفتي أو يقضي إلا بعد أن يمعن النظر ويتقصى الخبر جيدا ولابأس أن تأخذ منه القضية وقتا المهم أن تكون النتيجة صائبة. يذكر أن رجلا قدم عليه فسأله عن مسألة وتردد عليه ثلاث ليال ، ولا يجد فتواه جاهزة فقال له " مسألتي أصلحك الله ثلاثة أيام " فرد عليه الإمام سحنون " ماأصنع بك ياخليلي مسألتك نازلة وهي معضلة وفيها أقاويل وأنا متحير في ذلك " فقال له الرجل " وأنت أصلحك الله لكل معضلة " فرد عليه سحنون " هيهات ياابن أخي ليس بقولك أبذل لحمي ودمي للنار ، ماأكثر مالا أعرف إن صبرت رجوت أن تنقلب بحاجتك وإن أردت أن تمضي الى غيري تجاب في ساعة واحدة [٢]" كانت سلوكياته تلك زاداً للفقه والدراسات الفقهيه ، اذ تخلق أصحابه بمثل خلقه فكان نتاجهم وعملهم على مستوى مرض أدى الى استمرارية النشاط الفقهي في ذروته كما أدى الى بقاء مذهب مالك في المغرب حتى عصرنا هذا قال ابن الحارث " كان سحنون أفضل الناس صاحباً ، وأعقل الناس صاحباً ، وأفقه الناس صاحباً وكانت هذه الصفات صفات سحنون ، فخلق بها أصحابه رحمهم الله تعالى [٣]

كان في تلامذة سحنون ميل كبير للدراسات الفقهية والشرعية، إذ دأبوا على تحصيل العلم مقتفين أثر إمامهم ، من أولئك أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عيدوس

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٣) ابن فرحون : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٥ .

(ت ٢٦٠هـ) قال فيه حماس بن مروان " مارأيت مثل ابن عيدوس في الزهادة والفقه[١] " . وكتابه المجموعه على فقه مالك خير مايبرهن على ذلك كما كان له عقلية العالم الفطن حيث كان " حسن التعبير عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وماإجتمعوا عليه ..... وقال ابن الحارث ، كان حافظا لمذهب مالك والرواة من أصحابه إماما فقيها مبرزا في ذلك غزير الاستنباط جيد القريحة [٢]" ورغم أنه لم يتم تأليف كتابه (المجموعه) إلا أن له كتبا أخرى مثل كتاب التفسير وكتبا أخرى في تفسير بعض أصول من العلم مثل تفسير كتاب المرابحة وتفسير المواضعة وتفسير كتاب الشفعه وكتاب الدور وكتاب فضائل أصحاب مالك وكتاب مجالس مالك وكتاب الورع وله أربعة كتب في شرح مسائل من المدونة [٣]. كما كان لابن عيدوس دور كبير في تنشيط الدراسات الفقهية عن طريق الدروس التي كان يعلمها لتلامذته، قال حماس بن مروان وهو أحد تلامذته " كان ابن عبدوس يلقي علينا المسائل فاذا أشكلت شرحها فلايزال يفسرها حتى نفقهها فيسر بذلك وإن لم يرنا فهمناها غمه [٤]" .

أما رائد الدراسات الفقهية من تلامذة الإمام سحنون فهو ابنه محمد بن سحنون[٥] فقد أثرى الدراسات الفقهية تأليفاً وتعليماً ومناظرة . قال ابن الحارث فيه " كان من الحفاظ المتقدمين المناظرين المتصرفين ، وكان كثير الكتب غزير التأليف له نحوا من مائتي كتاب في فنون العلم ، ولما تصفح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتابه وكتاب ابن عيدوس قال في كتاب ابن عبدوس " هذا كتاب رجل أتى بمذهب

---

(١) عياض : تراجم أغلبيه ص ١٩٠ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٩٠ .

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ١٩١-١٩٢ .

(٤) القاضي عياض : تراجم أغلبة ص ١٩١ .

(٥) ابن فرحون : نفس المصدر . جـ ٢ ص ١٧٠ .

مالك على وجهه ، وفي كتاب ابن سحنون ، هذا كتاب رجل سبح في العلم سبحا [(١)]".
ولقد كان ابن سحنون خير خلف لوالده اتبع منهجه في مناصرته لمذهب الامام مالك رضي الله عنه حتى كان إمام عصره في مذهب أهل المدينة، وكانت براعته في الجدل حجة دامغة لاظهار الحق وقد ألف رسالة في آداب المتناظرين مما يدلل على سعة إدراكه لقيمة تلك المناظرات في الدراسات الفقهية وفي الفقه المالكي على وجه الخصوص "ولايخفى أن مناظرته لليهودي[(٢)] أظهرت لنا أمرين: أولهما أن الذي يناظر لابد أن يكون واسع العلم والدراية، وثانياً أن يكون قويا قادرا متمكنا لذلك يقول لصاحبه الذي دفع به الى مناظرة ذلك اليهودي في مصر بعدما فشل هو في مناظرته وبعدما أسلم اليهودي وعلت أصوات الناس بالتكبير، وقد خرج يمسح وجهه من العرق من شدة الجهد الذي بذله وأمضى فيه مايقارب من يوم كامل " لاجزاك الله خيرا كاد أن تجري على يديك فتنة عظيمة تناظر يهوديا وأنت ضعيف، فان ظهر عليك اليهودي بضعفك افتتن من قدر الله بفتنته [(٣)] فالمناظرة لاتأتي من فراغ ولاتكون جدالاً لمحاولة كسب القضية بقدر ماتهدف الى الاستفادة ودحض الحجج وتمحيصها للوصول الى الحقيقة ولعل قول الفقيه يحيى بن عمر في محمد بن سحنون مايدلل على أنه كان أهلا لمثل تلك المواقف بل وسيدا لها " كان ابن سحنون من أكثر الناس حجة وألقنهم لها وكان يناظر أباه "[(٤)]. ولعل من الجدير قوله أن هذه المناظرات كانت ذا فائدة عظيمة لأنها تتم في مجلس يحضره كبار أهل العلم ومشايخه وطلبته فتكون مبادلات الرأي والأخذ

---

(١) ابن فرحون : نفس المصدر . جـ٢ ص ١٧٠ .

(٢) أنظر المناظرة في : المالكي : نفس المصدر . جـ١ . ص٣٥٠ .

(٣) عياض : تراجم أغلبية ص ١٨٢ .

(٤) عياض : تراجم أغلبية ص ١٧١ .

والرد كنوزا في الدراسات العلمية ، وثراءً للفكر الحضاري ومجالاً لتوسيع المدارك الإنسانية .

أما مؤلفات ابن سحنون فهي كثيرة جدا كانت مجالا لأن يباهي أهل بلده به علماء الأمصار فقد ذكر مقدار ماألف العراقيون من الكتب فقال اسماعيل بن اسحاق القاضي " عندنا من ألف في مسائل الجهاد عشرون جزءا " وهو محمد بن سحنون[١] وان كان محمد بن سحنون قد ألف في مختلف فنون العلم ككتبه في السير والورع والايمان وردوده على أهل الشرك وفي الحديث النبوي وطبقات العلماء وفي التاريخ وغيرها. فان الكتاب الذي خلده وبه صار من أئمة العلم الأفذاذ هو كتاب (الأمامه) الذي كتب بماء الذهب وأرسل الى بغداد حيث الخليفة العباسي المستعين بالله[٢].

أيضا كان الفقيه القاضي عبد الله بن طالب من الذين أسهموا في الدراسات الفقهية بعدد من المؤلفات فله كتاب (الرد على من خالف مالك) وثلاثة أجزاء في (أماليه) كما كان لمناظرته أثر كبير في تحقيق أكبر قدر ممكن من الدراسات الفقهية إذ كان يحرص على جمع اثنين من المختلفين في قضية فقهيه ويحرض بينهما[٣] ليصل الى نتيجة مدروسة صائبة تزيد الدراسة الفقهية كسبا علميا باضافة شيء جديد من الأمور والمستحدثات.

وممن أسهم في هذا النوع من المعرفة يحيى بن عمر الأندلسي (ت ٢٩٥ هـ) من موالي بني أمية أندلسي من أهل جيان . سمع العلم بافريقية من سحنون بن سعيد وعون وأبي زكريا الحضري وغيرهم،وسمع بمصر من أبي بكر وابن رمح وحرمله وأبي

---

(١) ابن فرحون : نفس المصدر . جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٢) الدباغ : نفس المصدر . جـ ٢ ص ١٢٧-١٣٤ .

(٣) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ ص ٣٧٦ .

طاهر والحارث بن مسكين[١] أما منزلته العلمية فقد بلغت شأوا عظيما قال ابن الحارث " كان يحيى متقدما في الحفظ وسكن القيروان فشرفت به منزلته عند العامة والخاصة ، ورحل الناس اليه لايريدون المدونة والموطأ الا عنه، وكان يجلس في جامع القيروان ويُجلس القاري على كرسي ليسمع من بَعُد من الناس لكثرة من يحضره[٢] " وكانت مؤلفاته من الكثرة " كان إماما في الفقه ، ثبتا ثقة ، فقيه البدن ، كثير الكتب في الفقه والآثار ، ضابطا لما روى "[٣] وقد كانت مؤلفاته مثل الرد على الشافعي ، وكتاب اختصار المستخرجة المسمى بالمنتخبة وكتاب فضل الوضوء والصلاة وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب من أمهات الكتب في الفقه المالكي فقد بلغت تلك المؤلفات نحواً من أربعين جزءا[٤].

ويساهم عيسى بن مسكين في إثراء الدراسات الفقهية بكثرة مؤلفاته فقد كان " كثير الكتب في الفقه والآثار صحيحها [٥]" . قال أحد تلامذته له " أدخلني عيسى بن مسكين الي بيت مملوء بالكتب ثم قال لي : كلها رواية ، ومافيها من كلمةالا وأنا أحفظ لها شاهداً من كلام العرب[٦]" غير أننا لم نستطع الوقوف على أسماء كتبه تلك.

ولايمكن بحال من الأحوال أن نغفل دور النساء في تلك الدراسات فقد ساهمت نساء في هذا المجال بنصيب جيد وخير من تطالعنا أخبارهن خديجة بنت سحنون (ت

---

(١) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٦١ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٦٢ .

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٦٣ .

(٤) ابن فرحون نفس المصدر . جـ ٢ ص ٣٥٥ .

(٥) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٣٣ .

(٦) ابن فرحون : نفس المصدر . جـ ٢ ص ٦٧ .

٢٧٠هـ) التي اشتهرت برواية الفقه على المذهب المالكي، وأسماء بنت أسد بن الفرات (ت ٢٥٠هـ) وكانت تروي فقه الأحناف ، ومهدية الأغلبية[١] التي لم نستطع الوصول الى دورها في الدراسات الفقهيه بشكل واضح غير ماذكر أنها في عداد النساء اللواتي ساهمن في هذا المجال العلمي.

ثالثاً : الدراسات الأدبية والنحوية :

تمثل الدراسات الأدبية في أي مجتمع إنساني التصورات والأفكار التي يحملها أفراده وتبرز قيمته الحضارية، وكانت بلاد المغرب تعتبر هذه المواد من الأساسيات في التربية الإسلامية[٢]. وان كانت هذه التوعية من الدراسة قد بدأت متأخرة نسبيا فان مرده تأخر البربر في فهم ونطق العربية، لكن ظهور جيل جديد نشأ نشأة عربية صرفة كانت الإنطلاقة نحو بداية هذه الدراسة ، لذا ليس بمستغرب أن يكون العصر الأغلبي عصر بداية النهضه الأدبية في إفريقية[٣]. لاسيما وأن الدولة قد بلغت مرحلة من الثراء لم تبلغها دولة مغربية أخرى بفضل فتح صقليه اضافة الى الأمن الذي عم البلاد عدا بعض المشاكل والثورات الداخلية التي تحدثنا عنها في الفصل الأول. وقد ذكر يوسف حواله عدة سمات للدراسات الأدبية في القيروان في الفترة موضوع البحث نوجزها فيمايلي:

١- إن الدراسات الأدبية في إفريقية لم تستوعب جميع فروع هذا العلم فلم يحفل النشاط الأدبي في النثر بالقصص ، وفي الشعر لم تعرف الموشحات والأزجال مطلقاً.

٢- تأثر الحركة الأدبية في افريقية بمثيلاتها في المشرق الإسلامي رغم اختلاف

---

(١) يوسف حوالة : نفس المرجع . جـ ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) محمد عادل عبدالعزيز: التربية الإسلامية في المغرب ص ١٩ .

(٣) أبوالقاسم كرو ، وعبد الله شريط: عصرالقيروان ص ٣٨ - ٣٩ .

ظهور نشأة الأدب والثقافة في كلا البلدين.

٣- إن الدراسات الأدبية احتلت المركز الثاني في سير الحركة العلمية في افريقية بعد الدراسات الشرعية [(١)] .

أولا: الدراسات الأدبية :

اشتملت الدراسات الأدبية على الكتابة والخطابة والشعر فهذا القدر هو الذي حفلت به الدراسة في عصر بني الأغلب.

أ: الكتابة

كانت للكتابة في هذا العصر سمات بارزة تتمثل في عرض المضمون ثم تذييل المكاتبة بآية قرآنية تناسب المقام أو تذييل المكاتبة ببعض أبيات من الشعر [(٢)]. وأول نص لهذا المعنى من الكتابة يتجلى بوضوح في المكاتبة التي تمت بين خريش بن عبدالرحمن بن خريش الكندي الثائر في تونس وإبراهيم بن الأغلب الأمير الشرعي للبلاد سنة ١٨٦هـ [(٣)]. نقتطف منها مايلي:

كتب خريش الى ابراهيم قائلا " من خريش القائم بالعدل الى ابراهيم بن الأغلب. أما بعد: فاني أقمت عن الخروج قبل يومي هذا لأني كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب فلعمري لقد أرانا الله فيكم ماقوى به أهل دعوة الحق عليكم ... ولست أطلب إن خرجت عن الثغر فلاترد أن تصلي لحربي ، وليكن رأيك طلب سلمي والسلام [(٤)] فرد عليه إبراهيم بقوله " من ابراهيم بن الأغلب الى خريش رأس الضلال، سلام على من

---

(١) الحياة العلمية: جـ ٢ ص ٥٨٢، ٥٨٣ .

(٢) محمد زيتون : نفس المرجع . ص ٣١٨

(٣) انظر شعر التزيل في الفصل الاول

(٤) الطالبي: الدولة الأغلبية ص ١٥٦ .

اتبع الهدى أما بعد: فان مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة وسقطت عليها " استمسكي فاني أريد الطيران ، فقالت النخلة ماشعرت بسقوطك فيكربني طيرانك[١]".

وتوضح هذه المراسلات سمات النثر الأدبي آنذاك من استخدام الألفاظ الموافقه للبيئة وسلاسة العبارة وتمثيل تشبيهي يقرب الصورة للذهن مع بلاغة وفصاحة دون تكلف في ذلك.

وممن برع في الكتابة في العصر الأغلبي أحمد البريدي (القديدي)[٢] أروع رسالة كتبها كانت للأمير إبراهيم بن أحمد الدي كان قد عينه كاتبا له ثم حدث بينهما خلاف لسوء صنيع أحمد ذاته كما يذكر ذلك الوزير لسان الدين الخطيب فسجنه الأمير الأغلبي فارسل اليه رسالة من سجنه نذكر منها " أعز الله الأمير لكرم العفو وعلو قدره وجليل خطره تسمى الله عز وجل به فسمى نفسه العفو الغفور .... ولست أيد الله الأمير ممن يدعي العصمة والبراءة من الهفوة ولست أمت اليك الا بفضلك علي واحسانك اليّ ولاأعرّفك بل أذكرك أن من غرس غرساً فواجب أن لا يجنيه "[٣].

ومن كتاب ذلك العصر أيضا أبواليسر الشيباني (ت ٢٩٨هـ) الذي عمل كاتبا عند الأمير إبراهيم الثاني ثم عند عبد الله الثاني وفي عهد الأمير زيادة الله الثالث عُين رئيسا لبيت الحكمة وقد عاش طيلة مكوثه في افريقية يدرس الأدب مع براعته في علم الرياضيات . وأيضا عبدالله الصائغ الذي كان بمثابة وزير للأمير زيادة الله

---

(١) الطالبي: الدولة الأغلبية ص ١٥٦ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة واضحة تبين مولده ووفاته وثقافته غير ماذكره لسان الدين بكونه أدبيا ظريفا شاعرا بليغا بارعا في الكتابة مليح الشعر حلوه (الوزير لسان الدين بن الخطيب أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٣١ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ ١ ص ٢٤٤ .

الثالث وهو من أصل قيرواني نشأ منذ نعومة أظفاره على الأدب تلقاه عن أبي اليسر الشيباني [١] .

ب : الخطابة :

نمت في هذا العصر الخطابة ولعل الأحداث السياسية التي مرت بها الدولة قد فتقت القريحة وابراهيم بن الأغلب كان خطيباً فصيحاً بشهادة المؤرخين[٢] . ومن خطبه خطبته المشهورة التي ألقاها يوم دخل القيروان بعد القضاء على فتنة عمران بن مجالد سنة ١٩٤هـ وقد حوت الخطبة من أصول البلاغة والذوق الفني الكثير كقوله " لست أميركم ولكن أخذت ثغر أمير المؤمنين ممن أخذه بالخلاف[٣]" .

كذلك خطب الفقهاء كخطبة الفقيه عبدالله بن طالب التي ألقاها في المسجد الجامع بالقيروان بعد تعيينه صاحباً للصلاة في جامع القيروان وقد ذكر يوسف حوالة أنها حوت معظم خصائص الخطابة[٤] جاء في مقدمة الخطبة " الحمد لله الذي على عرشه استوى وعلى ملكه احتوى وهو في الآخرة يُرى[٥] .

جـ) الشعر :

مما شجع الحركة الشعرية ودفع بها قدما مشاركة الأمراء أنفسهم في هذا النوع من المعرفة فمؤسس الدولة الأغلبية كان شاعراً أورد له ابن الابار هذه الأبيات يوم انتصاره على تمام بن تميم وأرسل الى الوالي الشرعي العباسي محمد بن مقاتل العكي بالعودة الى القيروان وتسلم زمام الأمور والعودة من طرابلس بعد أن أخرجه منها الثائر

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) لسان الدين: أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٤ ، ابن الآبار: الحلة السيراء جـ ١ ص ٩٣ .

(٣) انظر نص الخطبة كاملا في الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب ص ٢١٨ .

(٤) الحياة العلمية جـ ٢ ص ٥٩٧ .

(٥) الدباغ : نفس المصدر . جـ ٢ ص ١٦١.

تمام بن تميم:

أتشكر عنا ما صنعت بربها ... وردي عليها الثغر أم تكفر

نفيت لها التمام بالسيف عنوة ... ولم يقته في الله ما يتمضر

فأقبل إلى ما كنت خافت كارهاً ... فقد سيفي عنك ما كنت تحذر(١)

كما كان الأمير أبوالعباس ابن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢هـ) شاعراً ومن شعره:

ما سار عزمي الى قوم وأن كثيروا ... الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا

ولا أقول إذا ما الأمير نازلني ... ياليته معروفا وقد وقعا

حتى أجليه قهراً بمعترم (٢) ... كما يجلي الدجى بدرا إذا طلعا

كذلك الأمير زيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣) يقال إنه كان شاعراً مجيداً(٣).

أما من غير الطبقة الحاكمة فقد عرف هذا العصر عددا من الشعراء العظام أمثال بكر بن حماد الزناتي وكان يغلب على شعره الزهد واليك بعضا من قوله:

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا ... هيهات هيهات يابكر بن حماد

بينا ترى المرء في لهو وفي لعب ... حتى تراه على نعش وأعواد

في كل يوم نرى نعشاً نشيعه ... فرائح فارق الأحباب أو غاد

ومما يلفت النظر مساهمة الفقهاء في هذا المضمار، فمن علماء المالكية الذين قالوا الشعر الفقيه أحمد بن أبي سليمان(٤) وعبد الله بن أبي حسان اليعصبي(٥) وأبو يزيد

---

(١) ابن الابار: نفس المصدر . جـ١ . ص٩٦

(٢) أبوالقاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع . ص ٣٨ .

(٣) انظر بعضا من شعره في كتاب الوزير ابن الخطيب : اعمال الأعلام جـ٣ .ص ١٩

(٤) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٢٧١ وانظر أيضا ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٥) انظر بعضا من شعره عند القاضي عياض: تراجم أغلبية ص ٧٤ .

عبد الملك بن أبي كريمة الذي أثنى عليه الإمام سحنون ومن شعره:

لقد ذهب الكماة وأسلموني   كفى حزناً تعرفني الكماه

هم كانوا التقاة لكل أمر   وهم زين المجالس في الحياة

تولوا للقبور وخلفوني   فواحزنا على فقد الحماة(١)

وكانت الظروف السياسية آنذاك خير ملهم للناس لقول الشعر. خذ مثلا أثناء خروج خريش بن عبدالرحمن على الأمير إبراهيم الأغلبي فقد ظهرت قصائد تصف إبراهيم الأمير بخير الأوصاف وتضعه في مصافّ عظام الرجال ومن ذلك قول عامر بن المعمر بن سنان التميمي:

لولا دفاعك باابن أغلب أصبحت   أرض الغروب رهينة لفساد

ولعمّنا ذاك الخلاف بفتنةٍ   تعدو كتائبها بغير سواد

قالوا غداة لقائهم : لا ننثني   حتى نحل الخلد من بغداد(٢)

وأيضا لما حرم الأمير إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ) تناول النبيذ في القيروان في حين جعله حلالا في عاصمته الجديدة رقادة ثار بعض العامة وأنشد يقول :

ياسيد الناس وابن سيدهم   ومن اليه الرقاب متقاده

ماحرم الخمر في مدينتنا   وهو حلال بأرض رقادة(٣)

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن الابار : نفس المصدر . جـ١ .ص ١٠٧

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٢٤٧ .

ورغم أن فترة الأغالبة كما أسلفنا بداية النهضة في الدراسات الأدبية إلا أن تذوق الشعر ومعرفة دلالة ألفاظه كانت قد رسخت عند مجيئه فلما بعث الكاتب محمد بن أحمد البريدي (ت ٢٧٦هـ) رسالته الى الأمير الأغلبي إبراهيم بن الأغلب وذيلها بأبيات من الشعر قال في البيت الأول :

هبني أسأت فأين العفو والكرم   إذ قادني نحوك الإذعان والندم

فلما قرأ الأمير تلك الأبيات قال " يكتب الى هبني أسأت " وهو قد أساء أما انه لو قال:

ونحن الكاتبون وقد أسأنا   فهبنا للكرام الكاتبينا

لعفوت عنه[(١)]" فكان استخدام اللفظ مع حسن العرض يعطي مدلولا معينا أدركه متذوقي الشعر

ويبدو واضحا من خلال استقرائنا لكثير من المصادر أن الشعر في عهد الأغالبة لم يحفل بجميع الأغراض فإن كنا رأينا الرثاء والفخر والزهد والمدح إلا أننا لم نحظ بشعر الغزل مثلا ولعل ذلك النوع ماكان ليجد له مكانا في بيئة كبيئة القيروان التي كان الفقهاء فيها يشكلون عصباً قوياً يردع ويمنع كل تيار بعيد عن روح الإسلام وأدب الإسلام .

وكان لعناية الأغالبة بالشعر أثر في دفع عجلته الى الأمام فعدا كونهم يتذوقون الشعر ويقرضونه فانهم كانوا يعمدون الى تخصيص أوقات لمجالسة الشعراء والسماع منهم .

ولعل من الجدير ذكره أن الإستقرار الذي نعمت به إفريقية وبالتالي الشعور

---

(١) ابن عذارى : نفس المصدر . جـ ١ ص ١٢١ ، يوسف حواله : نفس المرجع . جـ ٢ ص ٦٦٥ .

بالاستقلال كانا من عوامل النهضة الشعرية [١]. كما كان للنساء نصيب في قرض الشعر فهذه مهدية الأغلبية من الأسرة الحاكمة تشارك في الدراسات الأدبية بقصيدة ترثي بها أخاها أبو عقال بن غلبون :

ليت شعري ما الذي عاينته ... بعد دوم الصوم مع نفي الوسن

مع نزوح النفس عن أوطانها ... من نعيم وحميم وسكن

فكما تبلى وجوه في الثرى ... فكذا يبلى عليهن الحزن [٢]

ويصفها محمد زيتون بقوله " مهدية بنت الحسن ابن غليون الأغلبية التي نشأت في القرن الثالث الهجري وتلقت العلوم والآداب وأتقنت العربية وقالت الشعر[٣]". ولم نجد لها شعرا غير ماأوردناه ولا ندري هل فقد هذا التراث مع حوادث الزمن؟ أم أنه لم يحفل بالتسجيل منذ ذاك الوقت؟ أم أن المؤرخين والرواة اختصروا على كتابة أشهر ماقيل؟.

د) الدراسات النحوية :

وجد علم النحو في إفريقية من شُغِفَ بدراسته ، وممن برع في هذا العلم أبوالوليد عبد الملك ابن قطن المهري اللغوي (ت ٢٥٦هـ)[٤] الذي يصفه المالكي بقوله " شيخ أهل اللغة العربية والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم في زمانه وبلده[٥]" كما كان له علم بالأنساب وبوقائع العرب وأيامها ، ولم يكن له مثيل في شروح الأشعار. له

(١) يوسف حواله : الحياة العلمية . جـ٢ ص ٥٧٧ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ ص ٤٣٦ .

(٣) القيروان ودورها في تاريخ الحضارة ص ٣٠٦ .

(٤) رياض النفوس: جـ ١ ص ٣١١ .

(٥) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ ص ٣١١ .

مـؤلفـات عـديدة أثرت الدراسـات اللغـوية مـثل كـتـاب الألفـاظ وكـتـاب اشـتـقـاق الأسماء[(١)].

كما ساهمت شخصية أخرى في هذا المجال وهي شخصية أبو سعيد ابن حرب ابن غورك الذي كان معاصراً للمهري وقد فاق المهري في معرفته بالقرآن وحدود النحو ، كثير الوقار قليل الكلام . ومنهم أيضاً أبو محمد المكفوف عميد العربية والأدب في القيروان زمن الأغالبة وكان من تلامذته الذين أسدوا خدمات جليلة للنحو أبو القاسم بن عثمان الوزان الذي كلفه الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني بتشكيل وتصحيح بعضاً من الكتب[(٢)]. كما عرف العصر الأغلبي شخصية أبي الأسود أحمد بن أبي الأسود الذي كان من أصحاب أبي الوليد المهري. وكان يجلس بمسجد قرب داره يقريء الناس النحو واللغة[(٣)].

أيضا ساهم العالم اللغوي أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل (ت ٢٨٥ هـ) في نشاط حركة النحو وتقدمها لاسيما أنه كان يحفظ كتاب سيبويه عالم النحو المعروف وكان له مكتب في القيروان يجلس فيه ويجمع أصحاب العلم من اللغويين والنحاة وطلبة العلم للمدارسة في هذا النوع من المعرفة ، ويذكر أن له مؤلفا في النحو لم نقف على اسمه وآخر في اللغة باسم (أوضاح في اللغة)[(٤)].

هذا النشاط الذي قام به هؤلاء النحويون كان له أثره في نشأة مدرسة القيروان النحوية واللغوية ، وسيترك أثره بارزاً واضحاً بكثرة المؤلفات التي صارت تضاهي

---

(١) جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة جـ ١ ص ٥٨٦ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب: الورقات . القسم الأول . ص ٣٢٨ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب: الورقات . القسم الأول . ص ١٦٩ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب: الورقات . القسم الأول . ص ١٦٩ .

مؤلفات المشارقة.

رابعاً: الدراسات التاريخية :

أول شخصية عنيت بعلم التاريخ تطالعنا في عهد الأغالبة هي شخصية أبي عبد الملك الملشوني وابنه اسحاق الذي لم يذكر المالكي سنة ولادته أو وفاته غير ماذكره من معاصرته لدولة الأغالبة زمن الإمام سحنون بن سعيد الذي أشار على الأمير محمد بن الأغلب (٢٢٦-٢٥٢هـ) باحضار الملشوني لقصره في شهر رمضان للاستفادة من مروياته في علم السير والتاريخ. ذكر المالكي قول سحنون " فأين أنت أيها الأمير من اسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الأمم السابقة والأعوام الماضية " هذا الابن هو الذي عاصر الإمام سحنون أما والده أبو عبدالملك فلا نعرف عنه شيئاً سوى ماذكره المالكي نقلا عن أبي العرب قوله " كان أبو عبدالملك الملشوني صاحب أخبار ومغاز وله كتاب كبير في أخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم [(١)].

ولعل كتاب التاريخ الذي يقع في ستة أجزاء والذي ألفه محمد بن سحنون يعتبر بحق رائد الحركة التأليفية في الدراسات التاريخية في عصر الأغالبة وإن لم نستطع الوصول إلى محتواه بشكل تفصيلي إلاأن محمداً بن سحنون على ماوقفنا عنه كان موسوعة عصره في جميع الفنون ولقد كان من اهتمامه بالدراسات التاريخية أن ألف كتابا في السير حوى عشرين باباً[(٢)].

كما أدى شيخ علم اللغة أبوالوليد عبدالملك بن قطن اللغوي دورا بارزا في

---

(١) رياض النفوس جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب جـ ٢ ص ١٧١ .

الدراسات التاريخية إذ كان عالما بالأنساب وبأيام العرب ووقائعها (١). غير أن علم اللغة اكتسح كل شهرته فلم يعرف إلا بابن قطن اللغوي.

ويلحق علم الأنساب بالدراسات التاريخية ، وقد بدأ الاهتمام بهذا النوع في عهد الأغالبة من قبل البربر الذين عنوا بضبط أنسابهم ، وأشهر النسابين كانوا من قبيلة مطماطة كخالد بن خداش المطماطي ، وخليفة بن خياط المطماطي ، وأشهر النسابة في عصر بني الأغلب هو أبو سهل الفارسي النفوس ، حفيد عبد الرحمن ابن رستم الذي ألف ديواناً شعرياً حوى تاريخ البربر وحروب الإباضية مع أهل السنة ، ويُذكر أن كتاباتهم تلك كانت باللغة البربرية زمن حكم الأغالبة(٢). كما ساهم الأمير محمد بن زيادة الله الأغلبي في الكتابة التاريخية بكتابه الذي تحدث فيه عن تاريخ أسرته وأطلق عليه اسم تاريخ بني الأغلب(٣).

خامساً: العلوم الطبيعية:

الفلك والرياضيات : اهتم مؤسس بيت الحكم إبراهيم الثاني الأغلبي بترجمة بعض المصنفات اللاتينية في علم الرياضيات تخيرها بمعرفته حيث كان يجييد تلك اللغة فطلب من الرهبان الصقالبة القيام بترجمتها مع التنقيح والتصحيح ووضعها في قالب عربي(٤). ومن ثم أدى ذلك الى انتشارها بين الناس وبدأت بذلك الإنطلاقة الأولى نحو تأسيس مبادىء علم الرياضيات في بلاد المغرب.

---

(١) المالكي: رياض النفوس جـ ١ ص ٣١١ .

(٢) محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ص ٣٧٣ .

(٣) ابن الآبار: الحلة السيراء جـ ١ ص ١٨ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٠١ .

ولهذا لانستغرب إذا كنا نرى من الأفارقة من تكون لهم معرفة بهذا العلم فأبو اليسر الشيباني (ت ٢٩٨هـ)(١) الذي برع في اللغة والنحو وكان رياضيا معروفا الا أن المصادر لا تذكر له مؤلفات في هذا النوع من المعرفة كمؤلفاته الأدبية(٢).

ويفيدنا الدباغ في هذا المجال بمعرفة شخصية الحفري واسمه يحيى بن سليمان الفارسي ، ويبدو من اسمه أنه فارسي غير أن الدباغ لم يفدنا في معرفه أصله بشيء غير ماذكره من أنه كان يسكن على حُفرة درب أم أيوب بسوق الأحد بالقيروان وغالب الظن أنه من مستوطني القيروان وكان مولده سنة ١٣٤هـ هرب الى المشرق لما طلبه السلطان للعمل عنده ، ولم نستطع معرفة السلطان الدي طلبه غير أنه بالاعتماد على التواريخ يتضح لنا أنه أحد ولاة العباسيين إذ كان مولده سنة ١٣٤هـ وقيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ أي كان عمره في الفترة موضوع الدراسة الخمسين عاما. تلقى العلم من علماء المشرق من أمثال سفيان بن عيينه ، والفضيل بن عياض سمع من يحيى بن عمر وخلق كثير من أهل القيروان من أصحاب سحنون، وكان عالماً بالفرائض والحساب(٣). ومن فلكي عصر الأغالبة اسماعيل بن يوسف المعروف باسم (الطلاء المنجم) ولد بالقيروان غير أننا لم نقف على سنة ولادته ، درس مبادىء العلوم في القيروان ثم طلب الإستزادة في العلم من بغداد وفيها درس علم الفلك والتنجيم وبرع

---

(١) أبواليسر الشيباني: إبراهيم ابن محمد الشيباني يكنى بأبي اليسر ويعرف بالرياضي الكاتب أصله من بغداد وبها نشأ وقرأ على جلة محدثيها وفقهائها وتتلمذ على أدباء عصره من أمثال الجاحظ والمبرد وثعلبه كما لقي شعراءها أبا تمام والبحتري ، رحل إلى الأندلس ثم قدم على الأمير إبراهيم الثاني ، وقد إشار على الأمير ابراهيم بن أحمد بانشهاأ بيت الحكمة وقد عينه الأمير رئيساً عليها (حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . جـ ١ ص ١٤٤ ٢٤٥).

(٢) يوسف حوالة: الحياة العلمية جـ ٢ ص ٨٠٣ .

(٣) معالم الإيمان جـ ٢ ص ٦٣ .

فيهما ، إشتغل عند مستحضري العقاقير فأدى به ذلك إلى أن يقف على أسرار علم الصيدلة وحذق فن الطلاء (يقصد بالطلاء تحضير المواد الخاصة بزينة النساء من دهون وعطور). كان معاصراً للأمير إبراهيم الثاني وله معه صحبه(١).

وإذا كان العصر الأغلبي لم يزخر بعلماء كثيرين في هذا العلم إلا أنه كان لهذا الفرع من المعرفة ظاهرتين بارزتين أدت الى وضوح صورته تماما :

أولاً: الفكر الهندسي الذي بدأ في ذلك العصر والذي تمثل في المنشآت الكثيرة التي زخر بها عصر الأغالبة من فسيقيات وحصون وآلات حربية ومباني خاصة وعامة وتخطيط طرق وهندسة زراعية كل ذلك بما يتفق وروح ذلك العصر.

إضافة الى الفكر الفلكي الذي بدا ظاهرا في العناية بالحساب وحركة الأفلاك والنجوم وتحديد أوقات الصلاة وغيرها.(٢)

ثانيا: اهتمام الأمراء بمواكبة حركة التقدم في هذا المجال في بلاط المشرق الإسلامي وقد كان الأمير إبراهيم الثاني شديد الولع بعلم الفلك والرياضيات فكان يحرص على استقدام نفائس مايوجد في بغداد مما لانظير له في أنحاء المغرب ، ولهذا الغرض كان يزود رئيس بعثته (الذي يبعثه مرتين في السنة لتجديد ولائه للخلافة العباسية بالمال الوافر لاستجلاب علماء أخصائيين في سائر العلوم من العراق ومن مصر يتفق معهم بما يرضيهم ، وكذلك لشراء نسخ الكتب العلمية لاسيما مؤلفات الفلك والتنجيم لولوع الأمير بها خاصة(٣).

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الاول . ص ٢٥٢ .

(٢) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ٢٠١ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ ١ ص ١٩٦ .

ولعل مما يؤكد اهتمام الأمراء بهذا العلم أنه يوجد في بيت الحكمة دواليب خاصة تحفظ فيها الآلات الفلكية لرصد حركة الكواكب وسيرها كالإسطرلابات والجيوب والمقنطرات(١).

علم الطب:

عرف عصر الأغالبة عدداً لابأس به من الأطباء المسلم منهم وغير المسلم ويبدو أن الذي ساعد على النهضه الطبية آنذاك عناية أمراء الأغالبة والمتمثلة في انشاء البيمارستانات ، حيث حرصت الدولة الأغلبية على العناية بالصحة ، فأنشأ بادىء ذي بدء البيمارستان الذي عرف فيما بعد باسم (الدمن) بقرب مسجد السبت وغلب عليه اسم الدمنه لأنه أقيم في منطقة تحمل هذا الاسم فغلب اسم المكان على المنشأة وأصبح هذا اللفظ يطلق على جميع مراكز الصحة والتطبيب كما أسلفنا القول. ثم أنشأ الأغالبة بعد ذلك عددا من البيمارستانات في المدن مثل سوسة وصفاقس وتونس وكانت على غرار المبنى المنشأ في القيروان (٢) . كما شجع على النهضة الطبية الزيارات التي كان يقوم بها الأمراء للأدمنه في المناسبات السعيدة وأيام الأعياد. بل وتتضح عناية الأغالبة بهذه الناحية في استقدام المهرة من الأطباء من شتى بقاع الأرض الى إفريقية كاستقدام الطبيب اسحاق بن عمران البغدادي سنة ٢٦٤هـ ، وهو من أصل بغدادي نشأ ودرس هناك ، ويرجح حسن حسني عبدالوهاب أنه قد أخذ العلم عن بختيشوع بن جبرائيل وحنين بن اسحاق وقد كان في طبقتهما كما يرجح أنه درس في بيت الحكمة العباسي(٣) . بقدوم اسحاق بن عمران الى افريقية تبدأ صفحة جديدة في

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ١٩٧ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب :الورقات . القسم الاول . ص ٢٨٤.

(٣) الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٣.

علم الطب في افريقية اذ لم يكن مجهود اسحاق بن عمران مقتصرا على مداواة المرضى فحسب بل تعداه الى ناحيتين مهمتين كان لهما أكبر الأثر في نشاط الحركة الطبية واستمراريتها حتى بعد انتهاء دولة الأغالبة:

أولاهما: جلوسه لتلقين هذا العلم في بيت الحكمة. وكان له عدد من التلاميذ أصبحوا فيما بعد نواة المدرسة القيروانية الطبية فقد كان من طلبته ابنه علي بن اسحاق وزياد بن خلفون . واسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وأبو بكر محمد بن الجزار ، وأبو سعيد الصقيل وغيرهم[(١)] .

وثانيهما: المؤلفات التي أثرت هذا النوع من المعرفة وقد أوردها ابن أبي أصيبعه في كتاب طبقات الأطباء " ولاسحاق بن عمران من الكتب: كتاب الأدوية المفردة ، كتاب العنصر والتمام في الطب ، مقاله في الاستسقاء ، مقاله وجيزة كتب بها الى سعيد بن توفيل المتطبب في الابانه عن الأشياء التي يقال إنها تشقى الأسقام ، وفيها يكون البرء ، مما أراد اتحافه من نوادر الطب ولطائف حكمه ، كتاب نزهة النفس ، كتاب في المالنخوليا ، كتاب في القصد ، كتاب النبض ، مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته[(٢)] . على أن أعظم تلك الكتب فائدة كتاب المالنخوليا الذي وصف بأنه ليس له مثيل على الإطلاق إذ يعالج مرض الوساوس ، أو ما يطلق عليه اسم المرض السوداوي ومما يدلل على عظيم فائدته وبُعد صيته وشهرته أنه في القرن الحادي عشر الميلادي أي حوالي القرن الخامس الهجري تُرجم الى اللغة اللاتينية للاستفادة منه[(٣)] .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٥ .

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٤٧٩ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٥ .

كان للمدة الطويلة التي عاشها اسحاق بن عمران في القيروان والتي بلغت زهاء عشرين عاماً أثر كبير في نمو هذا الفرع من العلوم الطبيعية حيث تم اخراج جيل جديد من أبناء إفريقية ذاتها يمارسون الطب ، لذا كان بحق جديرا بالوصف الذي وصفه به عدد من المؤرخين كقول صاعد الأندلسي فيه " وممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي اسحاق بن عمران كان مقدما في جودة قريحته وصحة العلم وهو الذي ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب [1] وكانت وفاته سنة ٢٩٤هـ أو سنة ٢٩٥هـ أي قبيل نهاية دولة الأغالبة بفترة وجيزة[2] .

وقد شارك من غير المسلمين في ازدهار الحركة الطبية في القيروان في عهد الأغالبة اسحاق بن سليمان الإسرائيلي الذي كان حاذقا ماهرا في صناعة الطب كما ساهم في هذا النوع من العلوم الطبيعية إسهاما كبيرا بمؤلفاته الضخمة ونشره للعلم بجلوسه للتدريس ، وكان من أشهر تلامذته: الطبيب المعروف أحمد بن الجزار القيرواني. أما أهم مؤلفاته (الحميات ، وبستان الحكمة) كما قام بدراسة مؤلفات استاذه اسحاق بن عمران وشرحها باختصار ليسهل تدريسها وتداولها[3] .

وكما أسلفنا القول فان تلامذة اسحاق بن عمران سيكون لهم الدور البارز في الحركة الطبية فهذا تلميذه (زياد بن خلفون) يصبح طبيباً ماهراً يعالج الأمراء والأعيان ويزور الدمنه في أوقات معينه ، كان معاصراً لابراهيم الثاني ، وقد كان مسكنه القيروان إلا أنه انتقل مع الأمير إبراهيم ابن أحمد الى رقادة[4] .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٤ .

(٢) حسن حسني عدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٥ .

(٣) ابن أبي أصيبعه: عيون الأبناء في طبقات الأطباء ص ٤٧٩ .

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول ص ٢٤١ .

كذلك برزت شخصية الفضل بن علي بن ظفر وهو من أبناء القيروان تلقى علمه على يد علماء بلده وجالس اسحاق بن عمران واسحاق بن سليمان اليهودي وزياد بن خلفون، وصفه الخشني بقوله " كان من أهل الرسوخ في العلم مع أنفته من أن ينسب اليه ". لم تمدنا المصادر والمراجع على حد سواء بمؤلفات له ساهمت في نشاط الحركة الطبية وإنما ذكر أنه من رواد بيت الحكمة ويبدو أنه باجتماعه بكبار أهل العلوم المختلفة قد ساهم في تنشيط وبث هذا النوع من العلم(١).

أما أبو بكر محمد بن أبي خالد الجزار الذي تتلمذ على أطباء بني الأغلب وهم اسحاق بن عمران واسحاق بن سليمان وزياد بن خلفون فيبدو أنه عاش في نهاية دولة بني الأغلب إذ كانت وفاته في النصف الأول من القرن الرابع الهجري عن عمرٍ يناهز السبعين عاماً(٢).

أماكن التحصيل العلمي في القيروان :-

سار التعليم في القيروان وفق منهج سديد وكان طالب العلم ينتقل من مرحلة الى أخرى تبعاً لسنه ومقدار تحصيله العلمي وكان لكل مرحلة من تلك المراحل مكان خاص يتلقى فيه الطالب ألواناً شتى من المعرفة والثقافة لعل أهمها هي :

ا - الكتاب :

وهو من أقدم أماكن التعليم في العالم الاسلامي يتعلم الصبي فيه مبادىء القراءة والكتابة ويحفظ فيه القرآن الكريم اضافة الى بعض مبادئ النحو والحساب (٣) أي ان

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٤١ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . ص ٢٣٩ .

(٣) الجزنائي : زهرة الاسى في نباء مدينة فاس . ص ٨٣ .

مرحلة الكتاب تعني الدراسه الأوليه أو الابتدائية . وانتشرت نوعين من الكتاتيب فهناك الكتاتيب الخاصة التي مقرها قصور الأمراء والوزراء ، والكتاتيب العامة التي انتشرت في انحاء القيروان[١] .

ومعلم الكتاب على مستوى من العلم والثقافة ويشترط فيه أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى عارفاً بأحكام التجويد والترتيل ليُعلم الصبية أمور دينهم من صلاة وطهارة وغيرها وله معرفة بالنحو وأصول الخط ويكون من ذوي الخلق الكريم والسيرة الحسنة [٢] .

ويقع على عاتق المعلم اختيار مكان الكتاب ويكون اما حانوتاً أو حجره مجاوره للمسجد أو بعيدة عنه أو غرفة في منزل مؤثثه ببعض الحصر [٣] .

ولقد أدت الكتاتيب دورها المناط بها في تعليم الصبيان سبل العلم البسيط ليكونوا بعد ذلك قادرين على تحصيل علمي أرفع وأعمق وأشمل مقره المسجد .

٢- المسجد :

منذ عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم والمسجد يعتبر مركز اشعاع علمي وثقافي، وقد اضطلعت مساجد العالم بتلك المهمة مند انشائها وساهم مسجد القيروان الجامع - مسجد عقبه بن نافع - في تلك العملية التربوية التعليمية بشكل كبير فانعقدت حلق العلم وتصدر العلماء والفقهاء للتدريس فيه .

يلتحق التلميذ بالمسجد بعد أن يختم القرآن في الكتاب ، والتعليم في المسجد

---

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب . ص ٥٢ .

(٢) عبدالرحمن حجازي : المذهب التربوي عند ابن سحنون . ص ٦٧ .

(٣) محمد عادل عبدالعزيز : التربية الاسلامية في المغرب . ص٣٩.

حراً أي ان للطالب حق اختيار ماتميل اليه نفسه من العلوم فيدرسها . ويعتبر التعليم في المسجد تعليماً عالياً يعادل ماهو معروف عندنا اليوم بالتعليم الجامعي وهو تعليم لا أجر عليه (١) .

ولم يقتصر التعليم في المساجد على الكبرى منها بل حذت المساجد الصغرى حذو المساجد الجامعة في مهمة نشر العلم ، وقد حرص أهل اليسار من العلماء وغيرهم على انشاء مساجد بجوار منازلهم وتلقين الطلبه العلم فيها (٢) فهناك مسجد الأنصار قرب محرس الانصار ، ومسجد أبي ميسره قرب باب توس ، ومسجد حنش الذي اشنأه التابعي حنش بن عبدالله الصنعاني المتوفي سنة ١٠٠هـ .

أما عن نوعية الدروس التي كانت تعقد في المساجد فانه من المؤكد ان العلوم الشرعية بكافة فروعها كانت لها الأولوية ثم تأتي بعدها علوم اللغة والدراسات الأدبية(٣) غير أنه لا يستبعد أن تكون للعلوم الأخرى كالتاريخ والعلوم الفلكية نصيب من الدراسة يسير .

٣- المكتبات :

نتيجة لنشاط الحركة العلمية ونشاط حركة التأليف التي أضحت سمه من سمات العهد الأغلبي بسبب الاستقرار السياسي والأمني الذي نعمت به المدينة ، تسابق الناس على اقتناء الكتب وبذل الغالي والنفيس للحصول عليها ليس من علماء بلدهم فحسب بل من جميع مراكز الحضارة في العالم الاسلامي ، حتى صار كثير من الناس مكتبات

---

(١) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ افريقية . ص ١٥٦ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . ص٨٣ .

(٣) يوسف حواله : نفس المرجع . جـ١ . ص٢١٤ .

خاصة تتفاوت عن بعضها البعض بحسب مركز كل فرد وميله لأحد فروع المعرفة [١] .

هذا وضع المكتبات الخاصة أما بالنسبة للمكتبات العامة فان مكتبة المسجد الجامع بالقيروان هي أول مكتبة عامه انشأها الأغالبة وعرفت باسم (بيت الكتب) وقد خصص البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم لخزين الكتب وقد ازداد عددها بسبب حبس أهل الخير للكتب فيها طلباً للأجر وعموم الفائدة . وقد وجدت فيها كتب محبسه منذ عهد القاضي سحنون بن سعيد[٢] .

ثم أنشأ الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبي مكتبة بيت الحكمة في مدينة رقادة - عاصمة الأغالبة منذ سنة ٢٦٤هـ وزودها بمختلف الكتب منها ما هو مترجم عن اليونانية والسريانيه الفارسية . وحوت المكتبة على كتب الرياضيات والحكمة والفلسفة والطب وسائر العلوم التجريبيه فضلاً عن الكتب الفقهية العقائدية والأدبية [٣] .

وقد ساهم الأمير ابرهيم بن أحمد بشكل كبير في أثراء تلك المكتبة حيث أنه أولاً حشد عدداً من الكتاب والوراقيين لنسخ الكتب داخل بيت الحكمة وخصص للنسخ مكاناً خاصاً . ثانياً . أرساله سفاره للمشرق الاسلامي مرة وأحياناً مرتين كل عام لاحضار نفائس الكتب المشرقية وتخزينها في بيت الحكمة وثالثاً . استدعى علماء عصره الأفذاذ الى رقاده والجلوس للتدريس في بيت الحكمة [٤].

وقد خصصت في بيت الحكمة قاعات للجلوس والمطالعة كما خصص أعوان يشرفون على نظام الدار وحراستها ورئيس هؤلاء ناظر يطلق عليه اسم (صاحب بيت

---

(١) محمد زيتون . نفس المراجع . ص٤١٠.

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق . ص ٦٢ .

(٣) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا . ص ١١١ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ١٦٩ .

الحكمة) وأدل من تولى هذا المنصب هو أبو اليسر الشيباني[١].

ولعل بعد التحدث عن الناحية العلمية في القيروان في عهد الأغالبة نستطيع القول أن علماء ذاك البلد شأنهم في ذلك شأن علماء العصور الإسلامية اجتهدوا في تحصيل العلم وجدُّوا في الرحلة طلبا للاستزادة ، كما يلاحظ أن العالم لم يكن يكتف بدراسة فرع من فروع المعرفة إنما تجده يأخذ بقسط من هذا العلم وذاك حتى يبرع في أكثر من مجال علمي فتجد الرجل فقيهاً ومحدثاً ومؤرخاً كمحمد بن سحنون ، وتجده أديباً رياضياً كأبي اليسر الشيباني ولعل هذا يجعلنا نؤكد أن هذه السمة سمة الرغبة في الإستزادة في مختلف الفروع العلمية كان عاملا من عوامل نشاط الحركة العلمية ودفعها قدماً.

كما أن إحساس هؤلاء العلماء بقيمة العلم كان يدفعهم إلى التدريس والتأليف أيضاً ولابد أن التقدم في صناعة الورق الذي نُقلت صناعته عن الصين منذ أواسط القرن الثاني الهجري[٢] قد ساهم في انتشار المؤلفات وبالتالي الى نشاط الحركة العلمية.

ولايمكن أن ننسى فضل الأغالبة في إحياء روح التعاون بين طبقات المجتمع رغم تباينها من عرب وبربر وأفارقة ورومان(٣). فكان لذلك أثره في التمازج الفكري والدفع الحضاري.

وثمة جانب لابد من التنويه اليه هو أن إفريقية زمن الأغالبة قد حفلت بألوان من الثقافة المختلفة إذ كانت مدارس القيروان تحوي جميع فروع المعرفة الإسلامية[٤]. غير أنها تفاوتت في الإزدهار والنماء تبعاً للإقبال عليها من ناحية وسابقية الدراسة فيها من ناحية أخرى.

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص١٩٩ .
(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ١٩٣ .
(٣) محمد الطالبي : دراسات في تاريخ إفريقية ص ١٥٦ .
(٤) حسن أحمد محمود: الإسلامية والثقافة العربية ص ١٥٥ .

الفصل الرابع

النشاط الاقتصادي لمدينة القيروان في عهد الأغالبة

- جهود الأغالبة في المجال الزراعي
- الحرف والمصانع في القيروان في عهد الأغالبة
- الازدهار التجاري للقيروان في عهد الأغالبة
- اليهود ودورهم في حركة التجارة الداخلية والعالمية
- أسواق القيروان وتنظيمها
- الحسبة ودور الفقهاء في الأشراف على النشاط التجاري والمالي في القيروان
- النظم التجارية والمالية في القيروان
- الصيرفة والعمليات المصرفية
- العملة ودور الضرب
- عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في القيروان

أولت دولة الأغالبة عناية كبيرة للناحية الاقتصادية شأنها في ذلك شأن اهتمامها بسائر مرافق الدولة الصحية والاجتماعية والعمرانية . ولعل معرفة الأسرة الأغلبية لحقيقة وضع القيروان وما يمكن أن تجنيه دولتهم من خير وفير اذا تهيأت لها الأسباب ماجعل الأمير ابراهيم بن الأغلب (١٨٤-١٩٦هـ) يتعهد بدفع مبلغ أربعين ألف دينار سنوياً لعاصمة الخلافة بغداد . وقد تضاعف هذا المبلغ على عهد الأمير زيادة الله (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) (١) لهذا بذل الأغالبة قصارى جهدهم في سبيل تهيئة الظروف لانشاء برنامج اقتصادي يكفل لأفريقية ازدهارها واستقرارها ، بعد الصراعات والحروب التي شهدتها في الفترة السابقة لعهدهم .

لعل أول عمل قام به الأغالبة في سبيل الوصول الى الغاية المرسومة هو عملية تحقيق الأمن للبلاد ، وذلك بالقضاء على كافة الفتن الداخلية سواء ا ما كان منها سياسياً أو مذهبياً ، وتأمين حدود دولتهم وعمل ما يلزم لضمان سلامة أمنها كاقامة الرباطات المختلفة (٢)

أولاً - جهود الأغالبة في المجال الزراعي :

بذل الأغالبة قصارى جهدهم في العناية بالثروة الزراعية وتمثل ذلك في مظهرين

المظهر الأول : العناية بتوفير المياه :

لم يكن الأغالبة أول من سعوا الى تحقيق ذلك اذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب - بساط العقيق . ص ٣٧

(٢) انظر جهود أمراء الأغالبة في التصدي للثورات ودورهم في استتباب الأمن في الفصل الأول

نجهل حرص قادة الفتح في وقت مبكر على هذا الأمر ، فالآبار التي حفرها القائد معاوية بن حديج والتي ما تزال تحمل اسم والده حتى الان أكبر دليل على العناية بهذا المرفق الحيوي منذ البداية (١) .

ولا بد من القول أن جغرافية المكان قد فرضت على القادة والولاة والأمراء العناية بتوفير المياه ، فالقيروان العاصمة كانت من المدن التي يقل سقوط الأمطارفيها بسبب موقعها حيث أنها تقع في وسط اقليم شديد الحرارة ينزل بشكل غير منتظم(٢) .

فلا عجب اذن أن يسعى أولي الأمر فيها الى سد نقص الحاجة الى الماء بمشاريع الرى المختلفة ، فالخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١١٥هـ) يأمر واليه على بلاد المغرب عبيد الله بن الحبحاب (١١٤ - ١٢٣ هـ) أن ينشيء أثناء توسعته للمسجد الجامع في القيروان ما جلا لحفظ مياه الأ مطار . وفي هذا الصدد يقول البكري (فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب اليه عامله في القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله وأن بجانبه جنة كبيرة لقوم من فهر فكتب اليه هشام يأمر بشرائها وأن يدخلها المسجد الجامع ففعل وبني في صحنه ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات) (٣) وأيضاً من الآبار السابقة على العهد الأغلبي تلك التي حفرها يزيد بن حاتم في موضع خارج القيروان يعرف " بمنية الخيل " وكانت بئراً عذبه(٤) .

هذا بالنسبة للقيروان العاصمة أما بالنسبة لبقية مدن أفريقية فإن هذه الدولة بصفة عامة كانت تنشطر الى شطرين من حيث تواجد الماء ، الأول اقليم شمال جبال أطلس

---

(١) محمد محمد زيتون : المرجع السابق . ص ٩٠

(٢) يسري الجوهري :شمال افريقية – دراسة في الجغرافيا التاريخية والاقليمية .ص ٣٠٤

(٣) البكري : نفس المرجع . ص ٢٣

(٤) سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع . جـ ١ .ص ٣٦٦

يقع تحت تأثير البحر المتوسط لذا كان وافر الماء نسبياً أما الشطر الثاني فهو الى الجنوب ويقع تحت التأثير الصحراوي (١) .

وساهم في عملية نقص المياه في أفريقية انعدام المجاري المائية الدائمة عدا نهر واحد هو نهر مجردة الذي ينبع من الجزائر (٢) . وغالبية الأنهار التي بها ماهي الا وديان تغمرها المياه في موسم الأمطار مثل وادي العقلة الذي يجري وقت هطول الأمطار ويجف بعد ذلك (٣) ، ومثله الوادي الشتوي الذي يقع داخل الماجل الذي في جوف الماجل الكبير الذي بناه الأمير أحمد بن الأغلب اذ هو واد يجري في أيام الشتاء فقط . (٤)

ومع هذا التوضيح البسيط لجغرافية المنطقة سندرك قيمة الجهود المبذولة وأهمية العمل الذي قام به الأغالبة لتوفير الماء ليس للاكتفاء الذاتي بل ولزراعة المنطقة وتصدير المحصولات الى خارج البلاد مما أسهم في عملية تنشيط الحركة التجارية كما سنري فيما بعد .

ولعل الحرص على القضاء على مشكلة المياه جعل الولاة والأمراء يفكرون في توفيرها من مصادرها كحفر الآبار ، وتطالعنا أسماء آبار عديدة في القيروان مثل بئر أم عياض الواقعة بين المسجد الجامع وبين دار الامارة من أعمال عقبة بن نافع(٥) . وبئر روطة من محدثات الوالي العباسي هرثمة بن أعين أنشأها سنة ١٨٠هـ بالقرب من

---

(١) يسري الجوهر : نفس المرجع . ص ٢٥٥

(٢) يسري الجوهر : نفس المرجع . ص ٢٠٤

(٣) التجاني : رحلة التجاني . ص ١٨٣

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١١٥

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . جـ١ ص ٤٨

سوق الأحد [١] .

هذا فضلاً عن الوسائل الجيدة لتخزين مياه الأمطار عن طريق انشاء المواجل وقد كان في داخل القيروان وفي خارجها عدد كبير من هذا البناء فقد ذكر الحميري في هذا الصدد قوله :" وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها منها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره وأعظمها شأناًوأضخمها منبعاً ماجل أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بباب تونس " [٢] . هذا العدد الذي ذكر غير ما كان موجوداً بداخل المدينة حيث أن تلك المواجل كانت تقام في فلاة الأرض وفي داخل المساجد والدمنات فضلاً عن القصور فذلك أدى الى أن تسمى القيروان قديماً (بمدينة الصهاريج وبمدينة المواجل " . [٣]

واذا كان هذا الاهتمام بتوفير المياه في القيروان وأفريقية منذ وقت مبكر فلماذا لم يؤدِ ذلك الى ازدهار الزراعة بالشكل وبالمستوى الذي حدث في عهد الأغالبة ؟

لعل السبب في ذلك راجع الى عاملين اثنين : الأول عامل سياسي نتج عن الفوضى التي اجتاحت البلاد بسبب انتشار المبادىء الخارجية وبالتالي كثرت الفتن والثورات فلم يعد هناك أمن أو استقرار يؤدي بالمزارعين الى استثمار أراضيهم .

والعامل الثاني : السياسة الحكيمة التي استخدمها الأغالبة في توزيع المياه حيث عملوا على توزيع محكم وعادل للمياه بين الجهات [٤] فأدى ذلك الى كثرة المزارع وبالتالي الى كثرة في الانتاج . ولعل هذا الاهتمام بمثل هذا الأمر هو الذي دفع الأغالبة الى تعيين مسؤول عرف (بصاحب المياه) له ادارة خاصة مهمتها فيما يبدو

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ ص ٤٩

(٢) الروض المعطار ص ٤٨٧ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ ص ٥٧

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ ص٣٢٠

العناية بالمياه عموماً ، ما كان خاصا منها بالشرب أو الري [١] وهو ما يعادل في العصور الحديثة وزير الزراعة والمياه .

أضف الى أسباب التقدم ، ما قام به الأغالبة في مجال الري حيث عملوا على اصلاح المنشآت القديمة التي وجدت منذ العصور السالفة للعصر الاسلامي (القرطاجية والرومانية والبيزنطية) كما كان لهم دور كبير في تطوير أساليب الري وقداستعمل الأغالبة السواقي لرفع المياه كما استخدموا النواعير والدواليب وكلها تعتمد في تشغيلها على الدواب [٢] كما أنشئت الجداول والقنوات المبنية من الحجارة ، فهذا كله كان وراء تحول افريقية الى بلد زراعي خصب .

وأما المظهر الثاني : العناية بالأرض

فيتمثل في عناية الأغالبة بالأرض . وملكية الأرض تعود في الأصل الى نوعية الفتح الذي دخلت البلاد بموجبه في كيان الدولة الاسلامية ، وأرض المغرب منها مافتح صلحا ومنها ما فتح عنوة ، غير أن حسان بن النعمان الذي كان أول من نظم البلاد ادارياً أجرى عليها حكم الأرض المفتوحة صلحاً [٣].

ويذكر الجزنائي في حكم أرض المغرب ما يلي " وأما حكم أرضه ..أي بلاد المغرب فقال أبو الحسن القابسي في (شرح موطأ مالك) رحمه الله من كتاب الجهاد اختلف الناس في أرض المغرب هل افتتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة على ثلاثة أقوال : الأول الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة ، لأنه جعل في المعادن النظر للامام – ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ٣ ص٣١٩

(٢) حسن حسني عبد الوهاب :بساط العقيق ص ٣٣

(٣) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب جـ١ ص ١٧١

وطنجة ، لأنها افتتحت بالسيف ، الثاني قيل انها مختلطة هرب بعضهم من بعض فتركوها فمن بقي بيده شيء كان له ، وهو الصحيح والله أعلم (١) اذن ملكية الأرض في شمال افريقية تشبه الملكية في سائر بلاد العالم الاسلامي حيث تخضع تلك الملكية لنظام الاسلام .

في العهد الأغلبي برزت ظاهرة جديدة أصبحت سمة ذلك العصر هي (الصوافي) وهي الأراضي التي آلت الى الدولة الاسلامية في الأمصار التي فتحت عنوة وكانت تؤول الى الحكام كذلك الأراضي التي مات عنها أصحابها ولم يكن لهم ورثة فينتهي أمرها الى الدوله . وقد بدت هذه الظاهرة واضحة في عهد بني أمية في الشام (٢) أما بالنسبة لبلاد المغرب فلم نسمع عنها الا في عهد بني الأغلب وهي نوعان اقطاع مدني واقطاع عسكري (٣) وكان الاقطاع المدني يسد مسد الرواتب فكان ذلك مدعاة لأن يحرص صاحب الاقطاع على زراعة أرضه لأنها مصدر عيشة فأدى ذلك الى ازدهار الزراعة بشكل كبير . (٤)

وأما الاقطاع العسكري فقد يهدف الأمراء من منحة للقادة والجنود ربطهم بثغر لحمايته ، وقد كان لذلك أثر كبير على أمن الدولة ، وذكر حسن حسني عبد الوهاب في هذا الصدد قوله (وقد منحتهم الحكومة المحلية اقطاعات من الأراضي ذات الخصب على غرار ما كان يفعله الرومان مع جنودهم حينما كان لهم ملك البلاد)(٥) والواقع وان كان لتلك الاقطاعات أثر كبير في ازدهار الحياة الاقتصادية في افريقية اذ

---

(١) زهرة الاس في بناء مدينة فاس . ص٧

(٢) ثريا عرفه : الحياه الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي . رسالة دكتوراه لم تطبع ص ١٥٩

(٣) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١١٢

(٤) وحول موضوع اقطاعات السلطان راجع : الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٩٠

(٥) الورقات . القسم الأول . ص ١٣٠

كان الجند في فترة السلم يقومون بزراعة أراضيهم الا أن تلك الاقطاعات قد أدت الى نوع من النزعة الاستقلالية والشعور بالذات لدرجة جعلت بعضاً منهم يرفضون الجباية المستحقة عليهم (١) .

أما مسؤولية زراعة الأراضي فقد كانت تقوم على عاتق الرقيق لأصحاب الاقطاعات الواسعة من ذوى الطبقة الغنية الذين كانوا يسكنون العاصمة ويتركون رقيقهم في أملاكهم لحرث الأرض وزراعتها ويوضح هذا الأمر الحبيب الجنحاني بقوله (وقد عرفت القيروان من يملك قرى ريفية كاملة بعبيدها فقد كان أبو عبد الله محمد ابن مسروق من أهل القيروان في القرن الثاني الهجري بعد زهد يمر بالقرية من قرى أبيه فيخرج اليه أهلها ومن فيها فيقولون : نحن عبيدك وكل مالنا في هذه القرية فهو لك فيقول ان كنتم صادقين فأنتم أحرار ومالكم لكم) (٢).

واما أن يقوم صاحب الأرض باستخدام أجراء لزراعة الارض اذا كان لا يملك عبيداً وكان هذا النظام معروفاً قبل عهد الأغالبة ، فقد كان لأبي يزيد رباح بن يزيد اللخمي المتوفي سنة ١٧٢هـ أجراء للعمل في حصاد محصولاته .وأكثر ما كان يستخدم من أجناس الناس لفلاحة الأرض البربر لما عرف عنهم من مهارة فائقة في حرث الأرض وغرسها وحصادها(٣). ولا عجب في ذلك فقد كانت افريقية منذ القدم بلداً زراعيا حتى أن المسلمين أثناء فتحهم لها وجدوها كثيرة الأشجار (٤).

كما عرفت افريقية نظام الكراء (ومنهم الفلاحون الذين يعملون في الأرض

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الاول . جـ١ ص ١٣٢

(٢) المغرب الاسلامي . ص ٩٣

(٣) حسني ابراهيم مبارك : التطور الاقتصادي لولاية افريقية في عهد الأغالبة ص ٩٢

(٤) حسن حسني عبدالوهاب . بساط العقيق .ص ٣٢

بالكراء)(١) ولهذا النظام حكم شرعي فقد وردت أحاديث نبوية تحرم كراء الأرض الا بالنقد كما أورد ذلك سيد سابق مستندا على حديث رافع بن خديج ، فعن حنظلة بن قيس قال (سألت رافع بن خديج عن كراء الأرض فقال "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقلت بالذهب والفضة : فقال: بالذهب والفضة فلا بأس به) رواه الخمسة الا الترمزي (٢) .

لهذين العاملين ، عامل الاهتمام بوسائل الرى وتوفير المياه وتوزيعها وفق منهج مدروس وعادل والعناية بتوزيع الأرض ، نمت الزراعة في العهد الأغلبي نماءا كبير.

وهناك ميزة كبرى لسياسة الأغالبة الزراعية تمثلت في تنويع المحصولات الزراعية حيث أجبروا ملاك الأراضي على زراعة المحاصيل التي يحتاجها السكان ، فلا يكتفي المالك مثلاً بزراعة أرضه بمحصول واحد بل يزرع أكثر من محصول ، ضماناً لتوفير مستلزمات البلد من المنتوجات الزراعية وقد كان القاضي سحنون قد زرع أرضه زيتوناً وخصص جزءاً منها لزراعة المحاصيل أخرى (٣).

كانت الزراعة في داخل القيروان نشيطة وأكثر انتاجها الزراعي القمح وفي شرقيها حيث منطقة الساحل تكثر أشجار الزيتون (٤). وهي تمدهم بالزيت كما كانوا يحتطبون من شجر الزيتون دون أن يؤثر ذلك في زيتونهم (٥).أما في جنوب القيروان حيث بلاد الجريد فقد كانت زراعة النخيل(٦).

---

(١) محمد محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٧١

(٢) فقه السنه . جـ٣ .ص ١٦٥

(٣) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ٩٧

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق .ص ٣٣

(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٤٩

(٦) مؤلف مجهولف : الاستبصار في عجائب الامصار . ص ١٥٠

كماشتهر شمال القيروان حيث منطقة ضواحي وادي مجردة بزراعة الحبوب المختلفة(١) وفي ضواحي القيروان تزرع الخضروات والفواكة كالأترنج والتين وقصب السكر ومن جلولاء وحدها كانت تصل الى القيروان أحمال من الفواكة والبقول يومياً ، ذكر البكري في هذا الشأن قوله (ومنها كان يرد كل يوم الى القيروان من أحمال الفواكة والبقول ما لا يحصى كثرة وحولها الجنات) (٢) . كما انتشرت زراعة القطن واشتهرت كل من طبنة وقفصة ومسيلة بانتاجه بل بكثرة هذا المحصول ونظراً لأن القيروان أم البلدان فلا شك أن القطن كان يرد اليها ليفي بحاجة ساكنيها (٣).

كما انتشرت في افريقية بشكل عام أنواع مختلفة من الخضروات مثل الخيار واللفت والقثاء واللوبيا والباذنجان والقرنبيط والكرنب والرجلة والخس والملوخيا وسائر البقول (٤).

هذا بالنسبة للمحاصيل الزراعية التي كانت تنتجهامنطقة القيروان وما جاورها من المدن وهذا الانتاج يبدو أنه كان من الوفره بحيث أصبح محل تجارة داخلية وخارجية فساهم بذلك في ثراء الحياة الاقتصادية كما كان لوفرة الانتاج أثر في زيادة العشور المفروضة على أراضي المسلمين والخراج المفروض على الذميين(٥) . وكان من مساوىء السياسة الجبائية التى اتبعها الأغالبة هو المقدار المعين من المال الذي يفرض في السنة على مالك الأرض دون اعتبار لقيمة الانتاج التي كانت تتأثر الى حد كبير بالظروف الطبيعية ولعل أشد فترة عانى منها المزارعون فترة حكم الأمير عبد الله بن ابراهيم بن

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق .ص ٣٣
(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٣٢
(٣) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية . ص ١٣١
(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار .ص ١٥١
(٥) انظر الخراج وطرق الجباية ص ٢٧٦ من البحث .

الأغلب (١٩٦-٢٠١هـ) الذي ألغى العشر عن الحب وجعله ثمانية دنانير للقفيز (١) أصاب أم لم يصب (٢).ولابد من القول أنه رغم الرخاء الذي عم القيروان في عهد الأغالبة الا أنها لم تسلم من أزمان القحط من ذلك ما ذكره ابن عذاري في حوادث سنة ٢٦٦هـ (وفي سنة ٢٦٦هـ كان القحط العظيم والغلاء المفرط بافريقية) (٣). ويمكن ارجاع سبب ذلك الى أن القيروان خاصة وافريقية عامة كانت تعتمد في الري على الأمطار وهي أمطار متقبلة (٤) وهذا أمر خارج عن نطاق القدرة البشرية رغم المحدثات الكثيرة التي أنشأها الأغالبة لتوفير المياه وحفظة ، لكن لا يمكن أن ننسى مع ذلك الزيادة السكانية التي شهدتها البلاد فأصبحت الحاجة ماسة للماء للشرب ولسقي المزروعات وسائر الأمور الأخرى .

وهناك نقطة لابد من لفت النظر اليها وهي أن مهنة الزراعة كانت من المهن الرفيعة اذ ساهمت فيها جميع طوائف المجتمع على اختلاف مشاربها مساهمة دفعت بالزراعة قدماً ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن العلماء لم يكونوا يركنون لحلقات العلم دون ممارسة مهنهم التي يتعيشون منها ، فقد كانوا يعينون خدماً لزراعة أراضيهم ، واذا ما تعذر ذهاب الخادم الى المزرعة يوماً لمرض أو شيء آخر نزل صاحب الملك ذاته رغم ما يكون وراءه من أعمال الى مزرعته لحرثها. ذكر القاضي عياض قصة سحنون الذي سأله بعض المقربين اليه بقوله (ياأبا سعيد كيف يسعك أن تترك الكلبة وحاجتهم اليك ، وتخرج الى البادية فتقيم بها الشهور الكثيرة ؟ فقال (أتريدون أن تروا كتبي بهذا الغدير ؟ قال : أحتاج الى دراهم هؤلاء يعني السلاطين فأخذها فتطرح كتبي (٥)

---

(١) القفيز :من وحدات المساحة وهو يساوي ١٣٦.٦ متر مربع (محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية . ص ٩١)

(٢) ابن عذاري : نفس المرجع . جـ ١ . ص ٩٥

(٣) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ١١٧

(٤) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي ص ٦٠

(٥) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٩٧

ديوان الخراج وطرق الجباية :

يختص ديوان الخراج بجباية الجزية والخراج من الأرض وخمس الغنائم والعشور التي ترد من تجار أهل الذمة وأهل الحرب وغيرها من أموال الضبئ (١) وكانت الأراضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في العاصمة ومسجلة أيضاً في ديوان الخراج المحلي في كل اقليم (٢) .

ونظراً لعناية الخراج بالأرض فقد كان لنظام الخراج وطرق الجباية وعدالة أصحاب الخراج واهتمامهم بأعمال الري واصلاح التالف واستحداث وسائل أخرى أثره الكبير في النمو الزراعي وبالتالي في زيادة الجباية .

والجباية تخضع لأمور ثلاث كما ذكر ذلك الماوردي(٣) .

أولها: يختص بالأرض من حيث جودة تربتها فيزكو زرعها أو رداءة التربة فيقل معها ربعها .

ثانيها : ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها يكثر ثمنه ومنها يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبها .

ثالثها : ما يختص بسقي الأرض لأن ما يسقى بالدواليب لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي الأمطار كما اعتبر بعض الناس شرطان رابعاً وهو قربها من البلدان والاسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها .

حرص الأغالبة كما أسلفنا على العناية بالزراعة حيث بدأ ذلك واضحاً في العناية بالأرض والعناية بتوفير المياه . كما كان من حصرهم تعيين صاحب الخراج من ثقاتهم ويتشددون في معاقبة اذا ما فرط في الأمانه وقد حدث ذلك في عهد الأمير زيادة الله

---

(١) أنور الرفاعي : النظم الاسلامي . ص ١٧٠ .

(٢) حسام الدين السامرائي : المؤسسات الادارية . ص ١٩٥ .

(٣) الاحكام السلطانية . ص ١٤٨ .

الثالث حيث قتل عامل الخراج بعد محاسبته على ما كان بيده من أموال الخرج (١)

ويجبى الخراج مره كل عام حتى وان زرع الرجل أرض مرتين في العام (٢) ولعل هذا يوضح حرص الاسلام على مال الفرد بعدم استغلاله مادياً وان كثر دخله .

والخراج يختلف في موعد جبايته باختلاف الطريقة في الجباية اذ أن هناك طرقاً ثلاثة للجباية .

أولها : ان يوضع الخراج على مساحة الأرض ويكون وقت جبايتها معتبراً بالسنة الهلالية .

ثانيها : أن يكون الخراج على مساحة الزرع ويكون وقت الجباية معتبراً بالسنة الشمسية .

ثالثها : أن يكون الخراج على المقاسمة ويكون وقت الجباية في هذا معتبراً بكمال الزرع وتصفيته (٣) .

وقد اختلفت طرق الجباية في افريقية زمن الأغالبة فيما اتخذ معظم أمراء الأغالبة نظام المساحة / عدل الأمير عبدالله بن ابراهيم ذلك بفرض مقدار معين الأرض أخصبت أم أجدبت ثم أعاد الأمير أبو عقال الخراج على المساحة على ما كان عليه (٤) ويبدو من خلال استقرائنا لتاريخ بني الأغلب استمرارهم على نظام المساحة في الجباية حتى نهاية دولتهم .

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد . نفس المرجع . جـ٢ . ص ١٦٣ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان . ص ٤٤٧ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية . ص ١٤٩ .

(٤) ابن عذاري : نفس المصدر . ص ١٣٩ .

ثانياً- الحرف والصنائع في القيروان في العهد الأغلبي :

نتيجة لتوفر المواد الأولية اللازمة للصناعة كالخشب والمعادن ازدهرت الصناعة ازدهارا كبيرا ، وقد ساعد على نشاطها وتطورها الحاجة والطلب من قبل المجتمع الذي أصبح في عهد الأغالبة من المجتمعات الحضارية المرموقة .(١) ، فكان نتاج ذلك التطور تقدم حرفي وتنويع في التصنيع كما ساهمت في تحقيق ذلك هجرة الحرفيين من سكان المدن الساحلية الذين كانت لهم خبرات صناعية منذ زمن الفينيقيين والرومان الى المدن الكبرى ومنها القيروان . أيضاً ساهم الفرس القادمين من المشرق مع جيوش الخلافة في دفع عجلة التصنيع (٢) . كيف لا وامبراطورية الفرس كانت قبل قرن ونيف من الزمان احدى القوتين العظيمتين على الساحة سياسياً وحضارياً واقتصادياً واجتماعياً . فورث أفرادها فنون صناعات مختلفة أدخلوها معهم الى حيث ينتهي بهم المطاف .

ولعل الدور الذي قامت به السلطة الحاكمة في الاشراف على بعض الصناعات ذات الأهمية كصناعة الأسلحة والعملة والمنسوجات الأميرية (دار الطراز) (٣) قد أدى الى النهضة الصناعية وبالتالي الى جودتها .

ويمكن القول أيضاً أن مما ساهم في النشاط الصناعي وازدهاره النظرة الرفيعة للمهن والصنائع من قبل المجتمع - اذ كان الناس ينظرون الى من يتعلم الحرف نظرة ايجابية على حد تعبير الجنحاني (٤)فشجع ذلك فئات المجتمع على اختلاف طبقاته

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي الحياة الإقتصادية والإجتماعية . ص ٧٨

(٢) السيد عبد العزيز سالم : نفس الرجع . ج٢ ص٣٤٧

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص ٧٩

(٤) المغرب الإسلامي : ص ٧٨

الى الاتجاه نحو المهن وممارستها كلا حسب مستواه وفكره وطبقته .

ويضيف أنور الرفاعي عوامل أخرى كانت وراء النهضة الصناعية في الدول الاسلامية بصفة عامة فيقول (وقد نشطت الصناعة وازدهرت وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الترف والبذخ وكثرة الأموال ونشاط التجار) (١). ولعل ذلك ما أدركه ابن خلدون في حديثه عن المجتمعات حيث قال (وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع)(٢).

ولابد من ذكر أن تلك الصناعات كانت يدوية آنذاك غير أنها كانت غاية في الدقة والذوقد الفني (٣). وأهم تلك الصناعات كانت صناعة النسيج من الكتان (٤). الا أن نسيج الأثرياء كان يصنع من الحرير والصوف ويسمى السفساري لكن لبس العامة كان من الصوف والكتان (٥) ويتبع تقدم صناعة النسيج تقدم في عملية الصباغة ؛ وقد استوردت مواد الصباغة من الهند ومن العراق ومن الشام والجريد(٦).

ويدخل في نطاق صناعة النسيج صناعة البسط ، وقد نقل القيروانيون هذا الفن عن الفرس لكنهم ما لبثوا أن أدخلوا عليها تعديلات كاستعمال الحرير حتى أضحت ذات طابع خاص وذات قيمة عالية الأمر الذي دفع بالأغالبة الى أن يبعثوا بالبسط الى خلافة بغداد ضمن الخراج السنوي المقرر (٧) وقد كان يصل من البسط الأفريقية الى

---

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٥

(٢) المقدمه ص ١٥١

(٣) حسني ابراهيم مبارك : نفس المرجع . ص١١٩

(٤) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي في عهد الأغالبة ص ١٤

(٥) نجاة باشا : التجارة في المغرب الإسلامي ص ٤٩

(٦) نجاة باشا : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٧) حسن حسني عبد الوهاب بساط العقيق ص ٣٤

بغداد حوالى ١٢٠ بساطا سنوياً [١].

هذا ما كان من صناعة النسيج داخل القيروان أما في البلدان الأخرى [٢]. ففي ترنس كانت صناعة الثياب من الكتان والقطن [٣] . وفي قابس كانت الثياب من أرفع أنواع الحرير من دودة القز لوجود شجرة التوت فيها بكثرة (وحريرها أجود الحرير وأرقة)[٤]. كما اشتهرت سوسة بانتاج نوع من الثياب عرف بالثياب السوسية ولصناعة (عمائم المعمور) وفي صفاقس كان ينسج نوع غريب الصنع حيث ينسج من سلوك تكون متصلة ببصلة يقذف بها في البحر ويعرف ذاك النوع بصوف السمك [٥]

أما الدباغة - دباغة الجلود - فقد برع فيها القيروان لاسيما تلك الدباغة التي تصنع لغرض الكتابة . يذكر زيتون أن بجامع القيروان مجموعة من المصاحف مكتوبة على هذه الرقوق غير أننا لم نستطيع معرفة تاريخ كتابة تلك المصاحف هل هي من عهد الأغالبة أو من العهود التي تلتهم أو سبقتهم كما انتشرت في عهد الأغالبة عملية تجليد الكتب والمحافظة عليها بالجلودوقد تفنن الأغالبة في زخرفتها بالتطريز والتكليل بالجوهرة [٦] . ومن المصنوعات الجلدية التي للقيروان الفخر في انتاجها السروج القيروانية التي بلغت من الشهرة والصيت ما بلغت حتى عرفت في أوروبا كما صُنعت الأحذية والأحزمة ولوازم الحرب من الجلود النقية الجيدة [٧].

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج٢ ص ٢٨٤

(٢) يضطرنا الحديث عن اقتصاد القيروان الى الحديث عن انتاج المدن الأخرى التابعة لها لما في ذلك من أثر كبير على اقتصاد القيروان .

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٢٨٩

(٤) مؤلف مجهول : الإستبصار فى عجائب الأمصار ص ١١٩

(٥) القلقشندى : صبحى الأعشى ج٥ ص ١٣٨

(٦) محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٥٩

(٧) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص ٣٥

ونظراً لوفرة الخشب في منطقة افريقية اذا كانت منطقة الشمال كثيرة الاخشاب تطورت الصناعات الخشبية بشكل كبير شمل النطاقين المدني والحربي . فعلى صعيد المعالم المعمارية نشاهد تطورا في صناعة الأبواب والنوافذ والشرفات مستخدمين أسلوب تطعيم الخشب مع بعضه أو عمل حليات من قطع خشبية صغيرة مخروطة تلصق مع بعضها البعض وتسمى(عرناصة) ومن ذلك محراب جامع القيروان الذي فيه مربعات واطارات من خشب الساج المجلوب من الهند وكذلك مقصورة الجامع ذاته كانت بنفس ذلك الأسلوب من الفن (١) .

ولعل الصناعات الخشبية قد أسدت خدمات جليلة للبحرية حين تكفلت بصناعة السفن ، واذا لم تكن تلك الصناعة في القيروان فقد قامت في احدى مدنها وبأمر من أميرها زيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣هـ) الذي اتخذ مدينة سوسة (المعقل البحري للأغالبة) دارا لصناعة السفن (٢) .

كما ظهرت وسائل نقل خشبية مثل (المحفات) وتستخدمها النساء في التنقل ، (والعمارية)وهي خاصة بانتقال الأمراء وخاصتهم ، والزلاج وهو قارب صغير يستعمل للتنزه (٣).

كذلك اشتهرت القيروان بصناعة الزجاج وكان يصنع منه التحف الجميلة والقنينات المزخرفة المذهبة يستخدمها الصيادلة للأدوية وأيضاً الشمسيات أو القمريات الزجاجية وما يزال بجامع القيروان هذا النوع المصنوع منذ عهد الأغالبة وقد كان لأولئك الصناع حي خاص يعرف بحي الزجاجين كما كان لهم سوق يسمى بسوق الزجاج وأهم ما يميز

---

(١) محمد زيتون : نفس المرجع . ص ١٦٠

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . ج٢ ص ٢١٥

(٣) ابن الآبار الحلة السيراء ج١ ص ١٥٧ سعد زغلول عبد الحميد نفس المرجع . ج١ ص ١٦٧

صناعتهم الجودة والرقي [١].

أما ما يختص بالصناعات المعدنية فأن من الجدير القول أن كثير من هذا النوع قد ظهر في عهد الأغالبة حيث كانت الخامات متوفرة في افريقية واذا لم يكن توفرها في القيروان فان المدن الأخرى كانت غنية بها مثل مجانه التي توفر فيها الحديد والفضة والرصاص [٢] وانصب اهتمام الأغالبة على تصنيع الأسلحة اذا كانت الحاجة تدعو لذلك حيث أن الدولة تواجه أعداءً في الخارج والداخل وكان مركز تلك الصناعات مدينة العباسية ، وقد ساهم الفرس في تقدمها مساهمة فعالة . وأهم المنتوجات الحربية كانت السيوف وفيها كان حرصهم على جودة حديدها والرماح والحراب والسهام والنشاب والدروع والتروس والمنجيق [٣].

أما صناعة المجوهرات فان القيروان ذاتها اشتهرت بصياغتها وقد عرف عن صناعها مهارة فائقة فيها . وقد تفننوا في تزيينها وترصيصها بأنواع الحجارة الكريمة[٤].

كما برعت القيروان أيضاً في صناعة الأواني الفخارية ، وقد اشتهرت كثيراً الأنية المعروفة باسم (الريحية) وهي " شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار وعامة الأمصار " [٥].

وفي مجال الصناعات الغذائية فان انتشار مطاحن الحبوب العامة والخاصة في القيروان كا ن بشكل كبير . كما اشتهرت المدن الأخرى بصناعات غذائية مختلفة

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط . ص ٢٥٣

(٢) أرشيبالد لويس : نفس المرجع . ص ٢٥٣

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٥٣

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق . ص ٣٥

(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٤٠

كحفظ التمور في الأزيار التي اشتهرت بها قفصة [١] وصناعة الزيت في سوسة وصفاقس [٢] واشتهرت تونس بهاوبنزرت بصناعة حفظ الأسماك [٣] كما ظهرت صناعة الصابون في القيروان وهي صناعة تعتمد على الزيت وكانت القيروان تستهلك منه كميات كبيرة بسبب عدد الحمامات الموجودة بها [٤].

وهناك نقطتان نستخلصها ونحن نتحدث عن الصناعة في العهد الاغلبي

أولاً : أن هذه الصناعات التي تعرضنا لدراستها لم تكن وليدة عهد الأغالبة وانما كانت قبل ذلك الا النادرة منها كالصناعات الخشبية أما بقية الصناعات فهي قديمة قدم القيروان ذاتها بدليل أن الأسواق على عهد الأمير يزيد ابن حاتم (١٥٤-١٧١هـ) . قد نظمت حسب الصنائع مثل سوق الزجاجية وسوق الجزارين وسوق النخاسين وسوق الغزل غير أنها تطورت تبعاً للتقدم الحضاري الذي شهدته افريقية زمن حكم الأغالبة [٥]

ثانياً: أن الصناعات في عهد الأغالبة قد تأثرت بنظائرها في بغداد خذ مثلاً صناعة الخزف التي برع فيها الصناع في العهد الأغلبي كانت في الحقيقة محاكاة لما وجد في بغداد ثم طور الصناع الأفارقة تلك الصنعة حتى فاقوا فيها مصنوعات الخزف العراقي [٦].

ويمكن القول أن تضافر جهود فئات المجتمع الأغلبي في الانتاج الصناعي كان له تأثير عظيم للتقدم والرقي الصناعي [٧].

---

(١) مؤلف مجهول : الإستبصار في عجائب الأمصار ص ١٥٣

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٣

(٣) مؤلف مجهول : الإستبصار في عجائب الأمصار ص ١٢٥

(٤) حسني ابراهيم مبارك : نفس المرجع . ص ١٢٩

(٥) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي . ص ٦٧

(٦) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٨٢

(٧) عثمان الكحاك : المجتمع التونسي في عهد الأغالبة ص ١١

ثالثاً : الازدهار التجاري في عهد الأغالبة

ساعدت عدة عوامل الأغالبة في عملية نشاط الحركة التجارية ، ولعل وفرة المنتوجات الزراعية والصناعية قد دفع قدماً نحو تصدير تلك المنتوجات واستيراد مواد أخرى غير موجودة في البلاد بدلاً منها . فالقيروان ذاتها كانت مستودعاً لخيرات افريقية وسوقاً لنفاذ بضائعها الصناعية والزراعية . وما فاض عن حاجة ساكنيها صدر الى الخارج [١].

غير أن كثرة الانتاج وان كانت كعامل دفع الى عملية التجارة الخارجية الا أنه لا بد من القول أن الحاجة الى ماهو غير موجود في افريقية قد ساهم بشكل أكبر في دفع ذلك النشاط . ولعل نظرة فاحصة الى واردات الدولة تبين قيمة تلك الحاجة ، فمثلاً الرقيق كان التجارة الرابحة وكانت الحاجة اليه ماسة بسبب ظروف دولة الأغالبة اذ كان عمد الأمير ابراهيم بن الأغلب في جيشه وحرسه الخاص وفي بعض الصناعات بعد بناء عاصمته العباسية وبعدما كان من جنده الأول وثوراتهم المتكررة [٢].

وكان هناك نوعان من التجارة ، تجارة محلية أو داخلية ، وتجارة أخرى خارجية أو عالمية [٣].

أولاً : التجارة الداخلية :

ظهرت الحركة التجارية الداخلية أو المحلية بين مدن افريقية وكانت القيروان بفضل موقعها في وسط المنطقة المركز الرئيسي لذلك التحرك التجاري ، وقد أدرك الأغالبة أهمية التبادل التجاري ، بين مدن افريقية بعضها مع بعض وبين مدن افريقية والقرى

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص ٣٦

(٣) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . ص ٤٢٠

(٣) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٤٣ ، ٦٢

فعمدوا الى ربط المدن بالقرى عن طريق اصلاح الطرق القديمة التي كانت زمن الرومان لاسيما في منطقة الشمال ، واستخدموا أيضاً طرقا جديدة (١) . فساهمت تلك الخطوة بشكل كبير في عملية تسهيل نقل البضائع في الداخل .

فكانت معظم منتجات المدن الأخرى ترد الى القيروان نظراً لكثرة ساكنيها ولأنها من جهة أخرى عاصمة للبلاد فكان الناس يستهلكون مقدار حاجتهم وما فاض عن ذلك دخل في نطاق التجارة الدولية فمثلاً كان يرد على القيروان يومياً وعلى تونس من باجة ألف حمل جمل من الحبوب.(٢) كما يرد اليها التين من مدكوك ، ذكر البكري في شأنه قائلاً "وحولها ثمار كثيرة من جميع الأصناف أكثرها شجر التين وهو يفوق تين افريقية طيباً ومنها يحمل التين زبيبا الى القيروان فيكون أغلى من سائر التين ثمناً وأكثر طلباً " ويرد من جلدلاء الى القيروان أزدهار الياسمين والزنبق والورد والبنفسج ومن الفواكه والبقول أحمال كثيرة (٣) أما قفصة فكانت تبعث الى القيروان مختلف الفواكة والثمار وأشهر منتجاتها الفستق الذي وصل الى الاندلس ومصر ، ونوع من التمر في حجم بيض الحمام (٤) . وذاع صيت باجة بالحمص والفول الذي لا مثيل له ، في حين كانت توزر تمون افريقية بالتمور اذ كان أكثر شجرها النخيل (٥)

ولابد من ذكر أنه رغم ذلك الرخاء الذي عرفته البلاد الا أن ذلك لم يمنع من وجود ظاهرة الاحتكار .(٦) ولقد لقيت هذه المسألة اهتماماً بالغاً من قبل فقهاء القيروان تلك

---

(١) حسني ابراهيم مبارك : نفس المرجع . ص ١٣١

(٢) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٤٤

(٣) البكري : نفس المصدر . ص ٤٧

(٤) البكري : نفس المصدر . ص ٣٨

(٥) البكري : نفس المصدر . ص ٣٢

(٦) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص ٥٩

الاحتكار هو ما يعرف في الاقتصاد الحديث بالسيطرة على سلعة يتزايد عليها الطلب بقصد تحقيق أكبر قدر من الربح =

البيئة التي اتسم طابعها العام بالتدين والتزام النهج الاسلامي . فتجعل الفرد يحرص في عمله على اتباع الحلال حتى لوكان الحرام يدر عليه كثير مال - ذكر القاضى عياض قصة محمد بن يونس السدري الذي سأل الفقيه أبا عياش تلميذ سحنون عن التجارة بالقمح قال السدري "فأباح لي ذلك في وقت كثرته ومنعه في وقت غلائةالا مالابد منه [١] وهذا حقيقة قمة الورع والنزاهة والحرص على كسب الحلال . على أن هذا النهج السليم وجد من شذ عنه فظهرت قضية الاحتكار في الحياة الاقتصادية في القيروان [٢] .

لقد كانت التجارة المحلية حقيقة حركة دائبة ساهمت في ربط مدن افريقية مع بعضها مما كان له كبير أثر في تمتين أواصر الوحدة بين مدن المنطقة ، ولايمكن أن نغفل بحال من الأحوال أن القيروان استطاعت بفضل موقعها الجغرافي من أن تكون مركز التحرك التجاري داخلياً وخارجياً كما سنلاحظ هذا فيما بعد .

= والإحتكار في الشرع الإسلامي له أنواع فالنوع المحرم هو ماجمع ثلاثة شروط أولها أن يكون قوتا : فأما الأدام والعمل والزيت وعلف البهائم فليس احتكاره بمحرم النوع الثاني أن يضيق على الناس بشرائيه وذلك اما لان البلاد من السعه بسبب كثرة السكان كالحرمين او الثغور فهذا يحرم فيه الإحتكار . الثالث : ان يضيق على الناس بأن يدخل القافلة الى البلد فيهرع اليها ذوي الشراء فيشترونها ويضيقون على الآخرين فهذا حرام .

" ابن قدامه : المغني : ج٤ ص ٤٧ "

(١) تراجم أغلبية : ص ٣٠٥

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٦٠

ثانياً : التجارة الخارجية أو العالمية :-

تتميز التجارة الخارجية (العالمية) بين القيروان ودول المشرق الاسلامي وبين القيروان ودول المغرب الاسلامي وبين القيروان ومدن جنوب ايطاليا وأوروبا بنشاط كبير، قوامه القوافل التجارية الداخلية الى القيروان والخارجة منها ويذكر الحبيب الجنحاني أن هذه التجارة كانت عصب اقتصاد القيروان والسبب الرئيسي في بلوغها درجة الثراء التي وصلت اليها [(١)] فقد ازدادت تلك التجارة حركية خلال القرن الثالث الهجري بفتح المسلمين لجزيرة صقلية وبالتالي سيطرة الأغالبة على المنطقة الغربية من حوض البحر المتوسط حيث استعمل المسلمون وسيلة النقل التجاري البحري بين افريقية من جهة والمشرق الاسلامي وصقلية والاندلس من جهة ثانية .[(٢)].واتسم النشاط التجاري بين القيروان ودول المشرق الاسلامي وبين القيروان وجنوب ايطاليا وصقلية بالتوسع والاضطراد . في حين كانت الصلات التجارية مع المغرب الأقصى حيث الأدارسة في فاس ودولة الأمويين في الأندلس كانت صلة في أضيق الحدود بسبب العداء السياسي الذي كان بين القيروان وبين تلك الدول والذي تأثر بعلاقة تلك الدول بالعاصمة الأم بغداد [(٣)] على أن ذلك العداء لم يحل تماما دون وجود صلات تجارية ، فقد فرضت الحاجة على الأغالبة القيام بمثل ذلك الاتصال ، اذ كانت حاجتهم ماسة الى الرقيق الابيض من الأندلس والرقيق الأسود من غرب افريقيا عبر بلاد المغرب الأقصى كما أدت حاجتهم الى الذهب من بلاد السودان الى عقد الصلات مع دول الاتصال المباشر بتلك البلاد وهما دولتا الخوارج الرستمية والمدرارية [(٤)].

---

(١) المغرب الإسلامي : ص ٥٤

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص٦١

(٣) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة من ص ٤٩ الى ص ١٠٠

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة من ص ١٩٥ الى ص ١٩٦

ولابد من الاشارة الى أن التجارة في العصر موضوع الرسالة كان محركة الأول تجارة السودان ببضاعتيه ذات القيمة الكبرى هما الذهب والرقيق [(١)]. وعلى هذا يكون التحليل الذي أورده محمد عبد الغني مسعود دقيقاً حين قال " وكانت السلع موضوع التجارة يحددها اعتباران بصرف النظر عن انخفاض القوة الشرائية في غرب افريقية أو لها "طول الرحلةالتي كانت فيما بين ٢٧٠ ، ٩٠ يوماً وأحياناً لمدة أطول وهذا معناه أن السلع السريعة التلف لامكان لها في هذه التجارة . وثانيهما : أن جميع السلع لابد وأن تكون قيمتها كبيرة بالنسبة لوزنها ذلك أن أجور النقل عبر الصحراء كانت تضيف ما يتراوح بين ١٠٠٪، و١٥٠٪ من تكاليف السلعة ، ولكن هذه النسبة تنخفض بطبيعة الحال اذا كانت قيمة السلعة مرتفعة فالرقيق حقيقة كانوا ينقلون أنفسهم ولكن لابد من اطعامهم وحراستهم "[(٢)].

ولعل هذا الأمر هو الذي جعل دول المنطقة آنذاك تدرك قيمة تلك التجارة فعرفت المراكز التجارية كيف تستغل هذا العنصر الثري فظهرت بذلك شبكة مسالك تجارية تتصل بدورها بشبكة مسالك التجارة العالمية وهي تصل بين المراكز التجارية المغربية وبين تلك المراكز ومراكز التجارة على طريق السودان ويبدو لذلك أن التدهور الذي أصاب الحركة التجارية بعد القرن الثالث الهجري نتج بالدرجة الأولى عن تدهور تلك المراكز [(٣)].

كانت العلاقات التجارية بين القيروان في عهد الأغالبة وبين بغداد من دول المشرق الاسلامي علاقة نشطة ساعد عليها حسن العلاقة بين الدولتين (الأغلبية –

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص ٢٥

(٢) قضايا افريقيه : ص ١٧

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٣٩

العباسية)[١] . وكان الطريق بين البلدين سالكاً وهو طريق بري تسلكه قوافل البريد ورسل الدولتين [٢] . يبدأ الطريق من بغداد ويمر بالأنبار وهيت والرقة وحران والرها وتل موز والخابور وحلب وتشرين وحمص ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والاسكندرية ومنهاالى برقة ثم الى القيروان . [٣]

وقد استوردت القيروان من بغداد بعض المواد الأولية واللازمة للصناعة مثل الخشب الجيدالذي يستخدم لعمل المنابر وقد عُمل منه منبر جامع عقبة بن نافع وذلك سنة ٢٤٨هـ[٤] .

كذلك كانت العلاقة بين القيروان ومصر علاقة حسنة وان تخللها نوع من العداء بين الدولتين في بعض الأحيان وبخاصة بعد قيام الدولة الطولونية في مصر ، وما كان من محاولة الطولونيين التوسع على حساب ممتلكات الأغالبة [٥] . الاأنه من حيث العلاقة الاقتصادية فقد كانت على أحسن ما يرام وقد ارتبطت مصر مع افريقة بطريقين بريين الأول يبدأ من الفسطاط ويتجه غرباً الى برقة ومنه الى مدن افريقية والثاني يبدأ من الاسكندرية ثم الى برقة ويلتقي مع الطريق الأول ويسيران معاً الى باقي المدن

---

(١) حرص حكام الأغالبة وخلفاء الشرق على استمرارية العلاقة بينهما في جو من الود والاحترام وحرصت بغداد على سلامة كيان الدولة الأغلبية فكانت نعم المعين لها زمن الازمات فقد أرسل الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٢ للأمير ابراهيم بن الأغلب الأموال الكثيرة للقضاء على ثورة عمران بن مجالد (ابن الاثير : الكامل جـ٢ ص ٦٣ وراجع محمود اسماعيل عبد الرازق الأغالبة من ص٧٠-٧٢)

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق . الأغالبة . ص٧٢

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك . ص ٧٣

(٤) زكي محمد حسن : فنون الاسلام .ص ٤٤٤

(٥) محمود اسماعيل عبد الرازق . الأغالبة . ص ٨٣ الى ص ٩٧

الافريقية[١] .كما كان هناك طريق بحري من الاسكندرية الى موانيء افريقية مثل سوسة وتونس غير أنه لم يكن آمناً في بداية العصر الأغلبي بسبب السيطرة البيزنطية على البحر المتوسط (٢).

وقد حرص الأمير ابراهيم بن أحمد على تأمين الطرق البرية بين مصر والقيروان حتى أصبحت قوافل التجارة تغدو وتروح في أمن وسلام ومزودة بمحطات بريد على مسافات متقاربة حيث بين الواحدة والأخرى حوالى ثلاثة أميال .(٣)

صدرت افريقية الى مصر القمح والخيل والمرجان والأخشاب التي كانت مصر بحاجة ماسة اليها ، دعتها الى استيرادها من أوربا في عصر السيادة البحرية البيزنطية (٤)وبصفة عامة فقد استوردت بلاد المشرق الاسلامي من بلاد افريقية زيت الزيتون لا سيما من صفاقس[٥] والعمائم السوسية [٦]والفستق والثياب الحريرية من قابس (٧).

أما افريقية فقد استوردت من مصر المنسوجات المصرية الكتانية والتيلية الشهيرة(٨)

هذه التجارة التي كانت بين القيروان وبين بلاد المشرق الاسلامي كانت في حدود

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك . ص ٨٦ - ٨٧

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق . الأغالبة . ص ١٠١

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ص ٦٥

(٤) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية . ص ٢٥٣

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٣

(٦) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١١٩

(٧) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٧

(٨) محمود اسماعيل عبد الرازق . الأغالبة . ص ١٠٦

المنتوجات المحلية لكلا البلدين سواء ما كان منها زراعياً أو صناعياً وهو في دائرة ضيقة اذا ما قورن بالدور الذي ستلعبه القيروان كوسيط تجاري بين تلك الدول المشرقية ودول المغربين الأوسط والأقصى وقد أسلفنا القول أن القيروان وأن كانت على علاقة عدائية مع دول المغرب الثلاث بسبب التأثر بسياسة بغداد العاصمة الا أن الضرورة استلزمت قيام صلات تجارية بين الطرفين ، ويذكر محمود اسماعيل عبد الرازق أن دول المغرب لم تكن تعمد الى قيام مثل تلك الصلات لولا أن الأغالبة بدأوا وبها معزياً ذلك الى اكتفاء تلك الدول اقتصادياً (١).

وأهم تجارة مارسها القيروانيون مع تلك الدول الرقيق ومعدنا الذهب والفضة أما الرقيق فقد استلزمت ضروريات التقدم المدني على استخدام اليد العاملة المستأجرة(٢). اذا كان عصر العمران الذي بدأ بعد الفتوحات الاسلامية بحاجة ماسة الى العبيد وليس ذلك فحسب بل ان العبيد أصبحوا عصب الحياة العسكرية فابراهيم بن الأغلب دفعته الظروف الى أن يتخذ حرسه من هذا الجنس فأصبح لهم على حد تعبير الحبيب الجنحاني مكانة بارزة في المجتمع الاسلامي .

كما تبرز قيمة العبيد جيداً اذا ما عرفنا الدور الذي لعبوه في الحياة الاقتصادية اذ كانوا يعملون في الزراعة والصناعة والتعدين وحراسة قوافل التجارة وفي البناء الى جانب عمل بعضهم في الأعمال المنزلية (٣).

وقد أدت تلك الأعباء الملقاة على كاهل الرقيق الى أن تزدهر عملية المتاجرة به في تلك المنطقة .(٤)

---

(١) الأغالبة ص ١٦٦

(٢) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٦٧

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٣٠

(٤) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ١١٦

أما مصدر الرقيق فكان ثلاث مناطق :-

أولاً : منطقة أوربا الشرقية والوسطى (الصقالبه) وكان تجار دلماسيا والبندقية من أهم القائمين بتجارته

ثانياً - بلاد الترك ، واشتهر رجال تلك المنطقة بالفروسية والخصائص الحربية واستخدمت البلاد الاسلاميةالجند منهم بداية القرن الثالث الهجري .

ثالثاً - بلاد السودان أو الزنج جهة المروج وعلى حافات الغابات الأفريقية وعبيد هذه المنطقة مرغوباً فيهم لاتقانهم الاعمال المنزلية .(١)

أما الرقيق في افريقية فكان نوعين تعاقبا عليها النوع الأول : بدأ مع عمليات الفتح وتأسيس القيروان وهو السبي من الروم والبربر وانتهى في عهد ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي أرسل الى الخليفة أبى جعفر المنصور يخبره بانقطاع هذا النوع من السبي قائلاً " ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبي منها "(٢)

أما النوع الثاني الذي عرفته افريقية من الرقيق فهو عبيد السودان وكانت تلك المنطقة تحت نفوذ الأدارسة العلويين .(٣)

ومن هذا النوع اتخذ ابراهيم ابن الأغلب حرسه وجنده وقد كانت في القيروان سوق خاصة لبيع العبيد تسمى سوق البركة . أما سعر الرقيق فكان يتفاوت حسب خصائص العبد أو الجارية (٤). في حين تذكر نجاة باشا أن السعر المتعارف عليه يتراوح بين الثلاثين الى ستين دينارا (٥). وقد يفوق ذلك بكثير حيث تباع الجارية الممتازة بألف

---

(١) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٦٨

(٢) ابن عذاري : نفس المصدر . جـ ١ ص ٦٧

(٣) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ١٦٨

(٤) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٦٦

(٥) التجارة في المغرب الاسلامي ص ١١٥

دينار[١].

ومن القيروان كان ينتقل الرقيق الأسود الى المشرق الاسلامي فقد كان عدد العبيد السوداني في العهد الطولوني في مصر (٤٠.٠٠٠) أربعين ألفاً[٢].

أما عن العلاقة التجارية بين القيروان وبين دولتي سجلماسة وتاهرت فان من الضروري الاشارة الى أن هاتين الدولتين هما وسيط التجارة بين بلاد السودان والقيروان[٣].

اذ كانت القوافل تخرج من الدولتين الرسمتية والمدرارية الى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس والودع وتعود بالذهب والرقيق والأبنوس وغيرها من السلع التي تنقل بعد ذلك الى مراكز التجارة في بلاد المغرب كالقيروان وغيرها منها الى بلاد الأندلس والمشرق الاسلامي(٤).

وكان الطريق التجاري الذي يصل بين القيروان وتاهرت يمر بمنطقة بهاز والمسيلة وأدنة وطبنه وباغايه ومجانة ومرماجنة وسبيبة . ومن سجلماسة كانت تخرج قوافل التجارة الى القيروان . والمسافة بين القيروان وسجلماسة ستة وأربعون مرحلة(٥) وان كنا قد أسلفنا القول بأن التجارة بين القيروان وبلاد المغرب كانت اضطرارية لسبب الحاجة الملحة الى الرقيق والذهب فانه لابد من القول أن الصلة التجارية بينهما أدت الى أن تجد سلع سجلماسة كالسكر والكرواية والأحذية اقبالا لا شديدا في أسواق

---

(١) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٣٧

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٣٠

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية . ص ٢٦١

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٢٨١

(٥) البكري : نفس المصدر . ص ١٤٣ - ١٤٤

القيروان [١].

كذلك وجد تجار قيروانيون داخل أسواق تاهرت وكانوا جموعاً غفيرة وهذه الاشارة توضح حسن العلاقة بين القيروان وتاهرت في النواحي الاقتصادية بل ان بعض أولئك التجار أقام بتاهرت لما حظي به من المعاملة الحسنة من قبل الرستمية [٢].

أما العنصر الثاني في التجارة الرابحة فهو الذهب وكان من الكثرة حتى أن الحفرة تكون بعمق قامة يوجد الذهب في جوانبها وربما يكون مجتمعاً في أسفلها [٣].

غير ان وجود الذهب كان يتفاوت في السودان اذ يكثر في بعضها عن البعض الاخر حيث اشتهرت مدينة كوغة بأنها أكثر بلاد السودان ذهبا [٤] كما يتفاوت ذهب مدنها ايضاً في الجودة ذكر صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار عن ذهب أودغست قوله " ويجلب منها الذهب الابريز الخالص خيوطاً مفتولة وذهب إودغست أجود ذهب الأرض وأصحه" [٥]. وبين أودغست وسجلماسة خمسون مرحلة وبينها وبين القيروان ١١٠مرحلة [٦].

هذا الذهب الذي كان ينقل الى الشمال تُخرج القوافل بدلاً منه عددا من البضائع كالفاس وبعض المنسوجات على أن للملح النصيب الأكبر في تلك التجارة وكانت منطقة صحراء نول لمطة على مسيرة عشرين يوماً من سجلماسة من أكثر المناطق غنى

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٢٧٧

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٩

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ورقة ٩٧

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٢٢٢

(٥) مؤلف مجهول : نفس المصدر . ص ٢١٦

(٦) البكري : نفس المصدر . ص ١٥٩

بالملح ، ذكر الجغرافيون في شأنها " ومن عجائب تلك الصحراء أن بها معدن الملح تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن ......فيقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن (تاتنتال) (١) .وكان السودانيون يبادلون الذهب بالملح حيث يضع التجار المغاربه حمل الملح ويضع السواد انيون أزاءه حمل الذهب فاذا أخذ التجارالذهب حمل السودانيون الملح وذهبوا به(٢) ويذكر ابن حوقل أن حمل الملح في بلاد السودان قد يبلغ مائتين الى ثلاثمائة دينار وهذا المبلغ التقريبي يعطينا صورة واضحة عن القيمة الكبرى التي كانت للملح بالنسبة للسودانين وبمبادلته بالذهب وزناً بوزن (٣) يدلل على حاجة أهل السودان الملحة للملح نظراً لافتقارهم اليه بل هو معدوم أصلاً ، ولذلك لاعجب اذا رأيناهم ، يتصارفون بالملح كما يتصارفون بالذهب (٤). ونظراً للقيمة التي كانت للملح فان الصراع بين قبائل الصحراء كان قائماً من أجل امتلاكه (٥) .كما كان لبعض شعوب القارة حرفة قطع الملح (٦).

باختصار يمكن القول أن التجارة بين بلاد المغرب وبين السودان كانت لا تخرج عن نطاق أهم اللوازم فالسلع المغربية ذات القيمة الاقتصادية كانت عبارة عن الملح والنحاس الذي يستعمله السودانيون كعمله شرائية والودع الذي يستعمل هو الآخر كعمله شائعة الاستعمال ، وحلي ، وبعض الأقمشة المختلفة ، والمؤلفات الشرقية والمغربية ، في حين كانت أهم سلع السودان تكمن في الذهب والرقيق والعاج والاحجار

---

(١) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٢١٦

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الأمصار . جـ٢ ص ٧٨١

(٣) الأمين عوض الله : تجارة القوافل بن المغرب والسودان . مقالة في كتاب تجارة القوافل ص ٨٤

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار في عجائب الأمصار جـ٢ .ص ٧٨١

(٥) سيد احمد العراقي : تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا – مقالة في تجارة القوافل . ص ١٧٩

(٦) زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا . ص ٩٣

الكريمة والزمرد واللؤلؤ المرصع والبلور والصمغ [١]. وكانت تلك الرحلة شاقة حيث تخرج القوافل التجارية من المراكز الشمالية في القيروان وطرابلس وقسنطينة ، وتلمسان ، وفاس ،وغيرها بحمولة ألف الى ثلاثة ألاف جمل تصل الى السودان بعد مرور فصل من فصول السنة وأحياناً تستغرق أكثر من ذلك علماً أن الرحلات كانت تبدأ في الشتاء ، حيث يكون الطقس جيدا لقطع تلك المسافات البعيدة وكان التجار يبيعون كل ما يحملونه حتى الجمال والبغال التي هزلت بسبب طول الرحلة وثقل الحمولة ثم يعمدون الى شراء أخرى جديدة[٢].

وكانت تلك القوافل بطبيعة الحال تتعرض في الصحراء لسطو اللصوص في البدو الأمر الذي دفع المراكز الشمالية إلى إتخاذ إجراءات حاسمة ، مثل تزويد القافلة بالأسلحة ، وفرض تعويض الخسارة على المهاجمين ، ووضع رجال أقوياء محاربين ضمن رجال القافلة مع الحرص على تعدد قبائلهم ليكثر المناصرون وقت الشدة ، وتنظيم شرطة صحراوية خلال الذهاب والعودة لمراقبة تحركات البدو الرحل ، وإتخاذ الأدلاء العارفين بمسالك الطرق ومواطن العصابات ، وأماكن توفر المياه [٣]. كل هذه الإجراءات كانت تتطور مع التقدم الزمني ، وإن كانت ليست لدينا معلومات صريحة إلى وجود مثل هذه التنظيمات في الفترة زمن الرسالة ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد على وجود بعضا منها حتى أدت إلى استمرارية تلك التجارة . ولعل في تحول الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر عبر طريق بلاد النوبة ، والذي كان يفتقر إلى الأمن ، إلى طريق آخر أكثر أمناً ،أصبحت فيه القيروان وبلاد الجريد وورجلان وتاهرت

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الأمصار . ورقة ٩٦ - ١٠٣ - ١٠٥

(٢) يحي بو عزيز : طرق القوافل والأسواق التجارية - مقالة في تجار القوافل . ص ١٣٢

(٣) يحي بو عزيز : نفس المصدر . ص ١٣٣

وتلمسان وفاس وسجلماسة مراكز تجارية قوية [١] ما يجعلنا نجزم على اتخاذ الناس آنذاك لكثيرمن تلك الإجراءات لضمان سلامة التجارة وأصحابها .

ويمكن القول أن القيروان كمركز تجاري قد أدت دور الوسيط على أكمل وجه ، فقد استطاعت أن توصل تجارة الشرق الأقصى من التوابل والأبزرة إلى دول المغرب الإسلامي [٢] كما قامت بنفس الدور مع دول السودان الغربي ، ودول المغرب ، إذ كانت صاحبة الفضل في وصول منتجات تلك الدول إلى المشرق الاسلامي . وهناك دور فعال للقيروان في ميدان التجارة مع موانىء البحر الأبيض المتوسط وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، ولعل الذي ساعد على إزدهار هذه التجارة . بين القيروان ومدن وموانىء البحر المتوسط وجنوب إوروبا فتح الأغالبة لجزيرة صقلية وسيطرة مسلمي الأندلس على جزيرة اقريطيش (كريت) [٣] وجزر البليار (ميورقه - منورقة) فلم يعد يبقى إلا طريق واحد فقط بيد البيزنطيين وهو الطريق الواصل بين القسطنطينية والبندقية عبر البحر الأيوني والأدرياتي [٤]. وكان للإنتصارات التي أحرزها الأغالبة على الأساطيل البيزنطية وإبعاد البيزنطيين عن معاقلهم البحرية في مالطة وردوس وقوصره إضافة إلى صقلية ما أسقط الهيمنة التجارية للبيزنطيين في البحر المتوسط [٥].

نتج عن سيادة المسلمين في حوض البحر المتوسط أن سعت المدن التجارية الإيطالية

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص ٢٣ - ٢٤

(٢) أشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٢

(٣) جزيرة اقريطيش (كريت) : لهذه الجزيرة أهمية كبرى من حيث أنها تتحكم في الممرات المائية لبحر إيجة وسواحل أسيا الصغرى وقصد وثيا (السيد عبد العزيز سالم وأحمد العبادي :تاريخ البحرية الاسلامية جـ ١ ص ٤٠)

(٤) فوزية نوح : البحرية الاسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة رسالة ماجستير لم تطبع ص ٢٩٦

(٥) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . ص ٢٣١

التي كانت تعاني من قبل من السيادة البيزنطية شأنها في ذلك شأن المسلمين - إلى كسب صداقة الأغالبة أصحاب السيادة فإرتبطت البندقية ونابلي وسالرن وجانيا وأما لقي بعلاقات تجارية مع الأغالبة على الرغم من كون بعض تلك المدن خاضع للسيطرة البيزنطية والبعض الآخر لملوك الفرنجة ، إلا أن الرغبة في الربح الاقتصادي حال دون أن تكون هناك آية عراقيل [١]. وقد جنت دولة الفرنجة بعضاً من نتائج تلك العلاقة الطيبة بين الأغالبة والمدن الايطالية اذ وصلت اليها تجارة الشرق التي كانت محرومة منها طيلة زمن السيادة البيزنطية على البحر المتوسط عن طريق متاجرتها مع البندقية[٢]

صدرت البندقية إلى شمال إفريقية الرقيق الأبيض والخشب كما صدرت نابلي ومدن كمبانيا الصيد والمنسوجات . أما أهم المنتوجات التي صدرها الأغالبة للمدن الأيطالية ، ومدن حوض البحر المتوسط فهي بلاشك ذهب السودان " وسيبقى ذهب السودان طوال ستة قرون يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية في بلاد المغرب ومنطقة حوض البحر المتوسط ، ويدعم حركة التبادل التجاري بين بلاد السودان والمغرب من جهة وبين المغرب والمشرق الإسلامي والبحر المتوسط من جهة ثانية [٣].

ولاعجب في قيام القيروان بتلك الوساطة التجارية بين بلاد السودان والمدن الايطالية وموانىء البحر المتوسط .اذ كانت البلد الذي تتجهز منه القوافل [٤]

---

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . ص ٢٣٦

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة . ص ٩٦

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٣٢

(٤) كان عدد جمال القافلة يتراوح مابين ألف وثلاثة آلاف جمل تحمل مختلف البضائع وتمر على معظم الاسواق والمراكز العمرانية في قلب الصحراء (أحمد ابراهيم دياب : طريق درب الأربعين .ص ١٣١)

لتمخرعباب تلك الصحراء وقد مكن لها الحكام سبل الوصول بشتى المعونات [(١)] كذلك كان الرقيق الأسود ضمن تجارة القيروان للمدن الايطالية ومدن البحر المتوسط حيث عرف الرقيق السوداني في تلك النواحي[(٢)] . ولعل ذلك راجع إلى أن هذا النوع من الرقيق يحمل مزايا لا تتوفر في غيره ، إذ كان كما يقول صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار " يحسن عمل الأطعمة ولا سيما أضاف الحلاوات مثل الجوزينقات والوزنيجات والقاهريات والكنافات والعطائف المشهورات وأصناف الحلاوات فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن " [(٣)].

بهذه التجارة الرابحة إنتقلت المدن الإيطالية من مجرد ثغور أو محطات تجارية إلى وسطاء للتبادل التجاري . كما أدى حرصها على الربح إلى أن تضرب بعرض الحائط بأوامر بيزنطة وملوك الفرنجة وترتبط بصلات تجارية مع مسلمي افريقية [(٤)]. ويذكر أن التجار الإيطاليين قد نشطوا نشاطاً كبيراً في حوض البحر المتوسط من تجارة الشرق الأقصى في التوابل والبخور إذ كانوا بمثابة وسطاء فيها إلى أوروبا كلها [(٥)]. وقد كانت أوروبا بحاجة ماسة إلى توابل الشرق لاستخدامها في حفظ الأطعمة وصناعة العقاقير[(٦)].

---

(١) في هذا الصدد نذكر أن المعونات التي قدمها الامراء البئرين التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب أحدهما بطول أربعة قامات والآخر بطول ثلاث قامات على الطريق الى بلاد السودان (البكري : المغرب بين ذكر بلاد افريقيه والمغرب ص ١٥٧)

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢٥٣

(٣) مؤلف مجهول : ص ٢١٦

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٢٣٦

(٥) فؤاد الصقار : جغرافية التجارة الدولية منشأة المعارف الاسكندرية سنة ١٩٧٣م ص ١٨

(٦) جوزيف يوسف : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ٦٩

وعليه يمكن القول أن التجارة الخارجية بين دول العالم آنذاك لم تكن على الإطلاق تهدف إلى ايجاد اسواق لبيع منتجاتها لا فإن الصناعة في كل قطر وإن ازدهرت لا تؤدي قط إلى تحمل مشاق الرحلات والسفر بحراً وبراً لبيع تلك السلع وإنما كان الهدف الإساسي هو البحث عن المواد الأولية الضرورية كالنحاس والذهب والخشب والرقيق . بالنسبة لدول المغرب والمشرق ودول أوروبا والبحر المتوسط ، وعند السودانيين الملح والودع وبعض المنسوجات [١].

وإليك المثال واضحاً فحاجة الأغالبة إلى الرقيق الأسود المعروف بمهارته في كثير من المجالات كالفروسية والصناعة وعمل الحقول والمنزل أدى إلى الإكثار منه ولهذا يمكن القول أن دوافع التجارة الخارجية جاءت تبعاً للإزدهار الحضاري وتزايد العمران والرغبة في تحسين المستوى الاجتماعي . بإيجاد ضروريات ومستلزمات كل ذلك [٢].

وأخيراً لابد من القول أن نشاط الحركة التجارية الداخلية والخارجية جعلت من القيروان القاعدة الرئيسية لتلك الحركة وساهمت جهود أمراء الأغالبة في تنشيط الحركة التجارية بتسهيل طرق المواصلات وتأمينها . حتى غدت القيروان نقطة لقاء بين المغرب والمشرق وبين التجار المتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية [٣].

ولعل تطور وسائل النقل التجاري البري ثم البحري [٤] كانت سبباً في ذلك التقدم التجاري بتلك الحركية التي لم تعرفها القيروان من قبل . على أنه لابد من الإشارة إلى

---

(١) نجاة باشا : التجارة في المغرب ص ٦٢ - ٦٣ - ٦٤

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٥٧

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٦١

(٤) كانت نتاج ظهور النقل البحري أن أضحت الحاجة ماسة الى ضبط قضايا التعامل فيه فكانت باكورة المؤلفات في هذا الموضوع لمحمد بن عمر الذي ألف كتاباً في اكرية السفن كما كان لأمراء بني الأغالبة سفناً يؤجرونها للنقل التجاري البحري (الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٦١) .

نقطة هامة هي أن القيروان إكتسبت تلك المنزلة الرفيعة وأصبحت قاعدة تجارية بعد تحول المسلك التجاري الذي كان يربط بين السودان والمشرق الاسلامي عن طريق الخط الذي يصل بين غانه ومصر ماراً ببلاد النوبه ، وسبب ترك ذلك الطريق ، انعدام الأمن والتعرض للخطر بسبب العواصف الرملية . فحول التجار مسلكهم من السودان إلى بلاد المغرب فأصبحت القيروان وغيرها من المدن الأفريقية كبلاد الجريد وورجلان مراكز تجارية وقد حدث هذا التحول في العهد الطولوني في مصر أي زمن حكم الأغالبة الأفريقية (١).

كما لا يمكن أن نغفل الأثر الكبير الذي قدمته الحركة التجارية لنشر الاسلام في بلاد السودان خاصة وهو دور له ما بعده ، فيذكر إبن فضل الله العمري " إنه ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب وفشابها الإسلام ونطق بها داعي الآذان إلا قل بها الذهب وفشابها الاسلام (٢) وفي هذا إشارة للدور العظيم الذي لعبه تجار المسلمين حيث نشروا الاسلام ومكنوا له في تلك الأصقاع . كما أشار في موضع آخر إلى ملك مالي حيث قال " فهذا الملك هو أعظم ملوك السودان المسلمين وأوسعهم بلاداً وأكثرهم عسكراً وأشدهم بأساً (٣) كما أورد إشارة أخرى إلى تمذهبهم بمذهب الإمام مالك (٤). وإذ كنا لا نجزم أن ذلك قدتم في الفترة موضوع الرسالة إلا أننا نستطيع القول أن تأثيرات إسلامية واضحة بدت في المجتمع في السودان آنذاك وان لم تكن مالكية فقد كانت اسلامية بغض النظر عن نوع المذهب الذي ساد بعد ذلك .

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٢٣ وانظر تعليقاً في الحاشية رقم (٢) نفس الصفحة لتوضيح بعض أمور خاصة بتحويل الطريق التجاري الموضح أعلاه .

(٢) ابن فضل الله العمري : مخطوط مسالك الأبصار ورقة ص ٩٨

(٣) ابن فضل الله العمري : نفس المخطوط . ص ٩٨

(٤) ابن فضل الله العمري : نفس المخطوط . ص ٩٧

اذ لا ننسى أن وسطاء التجارة لبلاد السودان - أي بين الدولة الأغلبية وبين بلاد السودان - كانوا على المذهب الخارجي سواءا الصفري أو الاباضي فعلى هذا نستطيع أن نقرر معرفة الناس بالاسلام ودخولهم فيه ، أما تحديد المذهب الذي كانوا عليه فليس لدينا ما يثبت اسلامهم على مذهب الامام مالك رضي الله عنه غير ما ذكره ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار .

والواقع أن الاشارات الكثيرة التي أوردناها حول الدور الكبير الذي لعبه تجار بلاد المغرب ونظائرهم في المشرق الاسلامي وبلاد الهند والصين من الأبزرة والتوابل وغيرها الى أوروبا في أوسع حركة عرفها العالم وبكل اخلاص قد أثار حفيظة بعض المغرضين الذين يعملون على التقليل من شأن تجار المسلمين ووسمهم بالطابع العنصري انظر ما قاله في هايد حول هذا الموضوع " ونحن اذا تساءلنا عما اذا كان العرب قد عملوا بهمة على أن يستورواد للبلاد المسيحية السلع التي يستخلصوها من أعماق الشرق ، وكذا منتجاتهم الخاصة هذا الشعب العربي " الذي كان يرسل سفنه عبر المحيط الهندي الى نهاية العالم - وكذا عبر البحر المتوسط الى السواحل المجاورة في اليونان وايطاليا وفرنسا حاملة كنوز الشرق فاننا نؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك على الأقل في القرون الأولى ، ذلك مما كانوا يصرحون به من سيادتهم على العالم باسم الاسلام قد وضعهم بازاء المسيحية في موضع العداوة التي لم يخمد أوارها الا بعد حروب طويلة وكان لا بد أن يتعلموا بأنفسهم أن يحترموا الحدود التي واجهت محاولاتهم ، بفضل المقاومة العنيدة التي أبداها حيالهم مسيحوا الامبراطورية الشرقية وبأس الأجناس الرومانية الجرمانية الفتية ، وبذلك اشتدت ضراوتهم في القتال . وحين كانت سفنهم ترسو على ساحل اليونان وايطاليا وفرنسا ، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين ، ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمرون كل شيء ولسنين طويلة

كان ظهور سفن المسلمين مثيرا للرعب في قلوب المسيحيين من سكان شاطىء البحر المتوسط ولم تكن السفن التي تحمل الركاب والبضائع تبحر الا بين اسبانيا وصقلية وأفريقية ولا تخدم الا تجارة العرب فيما بينهم ، ومع ذلك أدرك العرب شيئا فشيئا أنه يوجد شمال البحر المتوسط حشد هائل من المسيحيين الذين لا يمكن تحويلهم الى الاسلام لا بالقوة ولا بالاقناع ومن ثم هدأ تعصبهم العربي تدريجياً ، ولم يعدوا في القرن الحادي عشر ينفروا من زيارة أوروبا كسياح فضولين أو تجار ينشدون الثراء[(١)].

وهذا المعنى يحاول فيه صاحبه أن يثبت عدم ممارسة المسلمين للتجارة في العصور الأولى وعدم تقديم خدمات سديدة للعالم الغربي في شؤون التجارة ونقل كل ما يحتاجون اليه من دول المشرق عبر المسلمين اليهم . والواقع غير ذلك فقد كان مسلموسورية ومصر - بعدما تم لهم فتح تلك المناطق وانشاء بحرية اسلامية - من أوائل الشعوب التي جابت سفنها البحار ووصلت بتجارتها الى فرنسا وأسبانيا ، وحين أصاب الوهن الاقتصادي سورية بسبب انتقال مركز الخلافة الى بغداد من دمشق سنة ١٣٢هـ تأثرت تلك المدن الأوروبية اقتصادياً في فرنسا وأسبانيا " ومع ذلك ثمة دليل على وجود ضيق اقتصادي في فرنسا وأسبانيا في نهاية القرن السابع وبداية الثامن الميلادي ويحتمل أن يكون مرجع ذلك الى وقوف البلدين موقفاً سلبياً للغاية في الناحية الاقتصادية مما جعلهما يعتمدان في تجارتهما على المشارقة من أهل سورية ومصر .... ولذا فقد كان لا ضطراب حركة النقل البحري في سورية نتيجة لما

---

(١) ف . هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي ص ٦٧ .

ساد موانيها من ارتباك أثره السريع الواضح في موانيء فرنسا وأسبانيا"[(١)].

هذا جانب وثمة جانب اخر لا بد من التصدي له في نص ف هايد . هو ما وسم به المسلمين من همجية وبربرية " ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمرون كل شيء " ان المسلمين في كل تاريخهم ما كانوا على الاطلاق ارهابيين وشراذم تقطع المسافات الشاسعة لتسلب وتنهب بل كانوا هداة فاتحين وما كانوا ليعلنوا الحرب أولاً على الأمم التي أرادوا دعوتها للدين الحنيف بل كان أول عمل يقومون به هو عرض هذا الدين على الشعوب بالحسنى ثم اذا ما رفضوا عرضوا عليهم الجزية مقابل حماية المسلمين لهم وتوفير كل مستلزمات الحياة الطيبة باقامة جميع المرافق الحيوية ، ثم تمكيناً للمسلمين في تلك المنطقة قوة وعلوشأن واستعلاء على الأمم التي رفضت دعوة الحق وفي هذا صغار لأهل الظلم الذين ظلموا أنفسهم بعدم قبول منهج الله تعالى "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " فان رفضوا اعطاء الجزية كانت الحرب آخر الدواء [(٢)] ولا عزو فقد كان المسلمون أصحاب عقيدة قويمة ومنهج سديد ولهذا لا نعجب أن نرى من يذكرهم في التاريخ . بأنهم الذين حرروا شعوب العالم من رق الأمم السابقة " وبهذا كله بدا الغزو الاسلامي في نظر سكان تلك الاقاليم أقرب ما يكون الى حركة تحرير " (٣).

وعندما خرجواضاربين في الارض بقصد التجارة كان الناس يتدافعون للتعامل معهم لما عرفوه عنهم من أمانة وصدق وطهر ونقاء ، وقد كانوا بسلوكهم الطيب سببا

---

(١) أرشيبا لد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ١٣١ .

(٢) انظر نص الحديث في صحيح مسلم جـ٣ ، ص ١٣٥٧

(٣) أرشيبا لد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٨٨ .

في دخول الاسلام الى مناطق لم تصلها جيوش اسلامية للفتح كما هو الحال جنوب بلاد السودان .

ولا بد أن نشير في موضوع التجارة العالمية الى نقطة هامة هي الضريبة المفروضة على التجارة الداخلة الى القيروان ، والحقيقة أن الكتب التي بين أيدينا سواء المصادر منها أو المراجع لم تتطرق الى هذا الموضوع رغم ما كانت عليه القيروان من حركة كبرى في التجارة . لكن طالما أن الأغالبة كانوا يحكمون الشرع في كافة أمورهم فلا بد أنهم لم يخرجوا في هذا الموضوع عن الشريعة الاسلامية . وجدير بالذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه هو أول من وضع نظام العشور على التجارة الداخلية الى بلاد المسلمين كتب اليه أبو موسى الأشعري قائلاً " ان تجار المسلمين اذا دخلوا دار الحرب أخذوا منهم العشر " فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه " خذ منهم اذا دخلوا الينا مثل ذلك العشر ، وخذ من تجار أهل الذمة نصف العشر ، وخذ من المسلمين من المائتين خمسة فما زاد كل أربعين درهماً درهم " (١).

والوارد في هذه العشور أنها عشورتجارة بالنسبة لأهل الحرب فقط أما المسلم فهي زكاة التجارة المفروضة عليه بحكم الشرع . وأما بالنسبة للذمي فقد فرض عليه نصف العشر لتميزه عن الحربي وكذلك جعله في مرتبة أقل من المسلم (٢) لأنه لا زكاة عليه فيفرض على تجارته مقدار من المال لما يتمتع به من حرية في التجارة في تلك الديار بحكم عقد الذمة الذي عقدته له الشريعة الاسلامية .

---

(١) يحيى بن آدم القرشي : ا لخراج ص ١٧٣ .

(٢) غالب عبد الكافي القرشي : أوليات الفاروق القائد ص ٣٧٦ .

اليهود ودورهم في حركة التجارة الداخلية والعالمية :

كان اليهود من العناصر المكونة للمجتمع القيرواني ويرجع وجودهم في افريقية الى القرن الثالث قبل الميلاد . ولما أنشئت القيروان سنة ٥٥هـ وأصبحت مع تعاقب الزمان مدينة تجارية أوجد اليهود لهم كيناً هناك حيث ظهرت لهم سوق خاصة بهم عند باب أبي الربيع معروف باسم سوق اليهود . وهو جزء من سوق القيروان الكبير المعروف سبماط القيروان (١). كما أضحت لهم حارة مستقلة هي حارة خيبر كانوا يسكنون فيها (٢).

عرف اليهود بركضهم وراء المال وجمعه واستغلاله كل طاقاتهم البشرية وتسخيرها لهذا الهدف لذا انبروا بكل امكانياتهم للعمل في التجارة في القيروان وقد انقسموا الى فريقين : قسم استقر للعمل التجاري في المراكز التجارية كالقيروان وهؤلاء انفسحوا الى شطرين : شطر يقوم بصناعة الجوهرين الكريمين (الذهب والفضة) والصباغة والدباغة وصناعة البلور ، وشطر يتاجر في تلك المنتوجات التي ينتجها بني جلدتهم اضافة الى بضائع أخرى (٣).

أما القسم الثاني منهم فقد اختص بتجارة العبور أو ما تسمى التجارة المزدوجة الرابحة بين المسالك البرية والبحرية ، وهم الرهانه . وقد اختلف في أصل منشأهم فقيل هم من نهر الرون واللوار ثم تدفقواالى شامبانيا (٤). لكن يبدوا أنهم كانوا في حركة دائبة بين أقطار العالم آنذاك حتى غدوا يتحدثون بأكثر من لغة . فقد ذكر ابن خرداذبة وصفا لهم جاء فيه :- " الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية

---

(١) ج - ديبوا تونس : ص ٧١ .

(٢) للحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية ص ١٣٧ .

(٣) نجاة باشا : التجارة في المغرب ص ٧٦ .

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ص ٣٦٥ .

والافرنجية والاندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق براً وبحراً (١).

أما الطريق الذي كانوا يسلكون فهو طريق طويل ، يصفة أيضاً ابن خرداذبة بقوله " يركبون من فيخه في البحر العربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القزم الى الجار وجدة ،ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعون الى القلزم ثم يحملون الى الفرما وربما صاروا بها الى ملك الفرنجة في البحر الغربي فيبحونها هناك وان شاوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الأبلة ، ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض " (٢) . والحقيقة أنها رحلة طويلة شاقة استخدم فيها اليهود الرازنية " الرهادنه " الطريق البري والبحري معاً وقد كانوا الوحيدون الذين يستخدمون ذلك الطريق عبر البحر الأحمر "فالملاحظ عامة تدهور تجارة البحر الاحمروقتذاك اذا ما قورنت بالازدهار الذي بلغته زمن البيزنطيين وأوائل عهد الأمويين ، وحوالى عام ٨٠٠م اختفت هذه التجارة الا من أيدي اليهود وحدهم وكانوا آخر من بقى يمثلون النظام القديم " (٣).

ومن الانصاف أن نقول ان حركة التجارة التي قام بها اليهود اتسمت بالنشاط واتساع المجال فقد شملت اجزاء كبيرة من العالم المعروف آنذاك . ولكن يمكن القول أن مما ساعدهم على ذلك لا سيما في مناطق نفوذ الدوله الاسلامية هو الحرية الكبرى

---

(١) المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٢) المسالك والممالك : ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية : ص ١٩٠ .

التي كانوا ينعمون بها في انفاق بضائعهم بسبب الوحدة التي تربط دول العالم الاسلامي اضافة الى عدم وجود صعوبات في النقل في أراضي الدولة الاسلامية"(١)

كما ساعد على تبوءهم تلك المنزله في مراكز التجارة العالمية في المشرق والمغرب على حد سواء أن بضاعتهم كانت من النفائس وهي التي تلقى اهتمام عند بلاط الحكام (٢).

ويمكن القول أن تتضح لدينا صورة الثراء العظيم الذي وصل اليه اليهود الرهاونة اذا ما علمنا أنه كانت لهم سفن خاصة بتجارتهم (٣).

وأكبر نشاط تجاري مارسه اليهود الرهادنة في تجارة العبور هو تجارة الرقيق والذهب (٤) اضافة الى التوابل والأقمشة المنسوجات الحريرية والأدوية (٤).

كان اليهود الرهادنة وسطاء تجارة وكانت لهم في هذا المجال قدم راسخة شأنهم في ذلك شأن تجار المدن ايطالية مما دفع المسلمين الى ترك التعامل مع بعض الدول لهم فمثلاً مسلمي شمال أفريقيا بصفة عامة كان تعاملهم التجاري مع الغرب اللاتيني في حدود ضيقة اذ اكتفوا بالدور الذي يقوم به التجار اليهود الرهادنة في توصيل بضائعهم الى هناك (٥).

لكن أكبر بلاء عم في العالم من جراء التعامل مع اليهود هو انتشار الربا الذي كان يمارسه اليهودبشكل واسع جداً اذ لا يوجد ضابط عقائدي أو حكم شرعي يمنعهم

---

(١) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٣٢ .

(٢) نجاة باشا : نفس المرجع : ص ٧٧ .

(٣) عطية القوصي : نفس المرجع . ص ٣٢ حاشية دقم ٥ .

(٤) أرشبيالد لويس : نفس المرجع . ص ٦٩ .

(٥) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٧٦ .

من ممارسته وقد أثروا ثراء فاحشاً ، ولعل حاجة بعض المسلمين كانت تدفعهم الى الاقتراض منهم [١] . لذلك حرص قضاة القيروان من أمثال عبد الله بن طالب على تميزهم عن غيرهم هم والنصارى في محاولة للتضيق عليهم ومنع المسلمين من اقامة تعامل معهم خارج دائرة الحلال [٢] . وكل ذلك رغبة منه في الحد من نفوذهم وسطوتهم اضافة الى تقليص تعاملهم الربوي لا سيما مع المسلمين اذ كان اليهود أكبر شعب مرابي وكانوا بطريقتهم هذه يزاحمون التجار من غير أهل نحلتهم مزاحمة شديدة[٣] .

ويبدو ان اتساع نطاق تجارتهم في العالم آنذاك وتسلطهم على زمام الحركة التجارية قد أدى الى أن يترادف اللفظان يهودي وتاجر فاذا قلت تاجر أو يهودي كان المعنى واحدا . [٤]

ومن العوامل التي ساهمت في نشاطهم التجاري السيولة النقدية التي كانت متوفرة لدى اليهود الرهادنة بشكل خيالي ، وهذا راجع الى ارتباطهم بأهل نحلتهم في البلاد الأوربية ومن سواهم من ساكني البلاد الاسلامية بروابط قوية تسهل عليهم الحصول على الأموال المطلوبة لاجراء العمليات والصفقات التجارية [٥] .

هذا الوضع يجعلنا نجزم بوجود شركات يهودية خاصة بالتجارة العالمية كانت مهمتها الأولى الوصول الى المراكز الاقتصادية الغنية في العالم لخدمة المصالح اليهودية . تقول الموسوعة البريطانية " اتجه المرابون والتجار اليهود بصورة لاتقاوم

---

(١) نجاة باشا : نفس المصدر . ص ٧٧ .

(٢) المالكي : نفس المصدر . ج ١ ص ٣٨١ .

(٣) وليم كارل : اليهود وراء كل جريمة ، شرح وتعليق خير الله طلفاح ، ص ٥٨ .

(٤) آدم متز : نفس المرجع . ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٥) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٧٧ .

الى السيطرة على التجارة التي كانوا يمتلكون بالنسبة اليها مؤهلات خاصة منها تشعبهم في كل مكان وارتباطهم ببعض ومنها تعلقهم الشديد بالمال ، وكانت التجارة في القرون الوسطى في أيديهم بصورة رئيسية ولا سيما تجارة العبيد) [١]

ولم يكن خطر اليهود في الناحية الاقتصادية قاصراً على العالم الاسلامي بل شمل العالم بأسره فهذا الامبراطور جستنيان (٤٨٣-٥٦٥) يصدر قوانين تحد من الأعمال الغير مشروعة التي كان تجار اليهود يحترفونها في معاملاتهم التجارية . ولعل بلاءهم لم يكن قاصراً على الناحية الاقتصادية بل تعداه الى الناحية الأخلاقية بافساد المجتمع اذ كانوا أكبر المروجين لتجارة المخدرات والمسكرات [٢] .

أسواق القيروان وتنظيمها :

أول شخصية تطالعنا بها كتب المصادر اهتمت بشؤون السوق ونظمته هي شخصية الوالي العباسي يزيد بن أبي حاتم وذلك سنة ١٥٥هـ ذكره النويري ما يفيد ذلك بقوله " رتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها حتى قيل : إنه الذي مصرها لم يبعد عن الحق " [٣] . ويدل على أن مهمة النظر في السوق وأحواله كانت للوالي أما أن ينظر فيها بنفسه أو ينيب شخصاً من عنده للنظر في أموره . [٤]

لكن هناك اشارة أوردها البكري عن دور الخليفة هشام ابن عبد الملك في تنظيم السماط وهو أكبر سوق في القيروان آنذاك ، فقد ذكر البكري " وكان سماط سوق

---

(١) وليم كارل : نفس المرجع . ص ٥٩ .

(٢) وليم كارل : نفس المرجع . ص ٥٨ .

(٣) نهاية الأرب ج ٢٤ ، ص ٨٦ .

وانظر ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص ٤٧ ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص٧٨

(٤) يحيى ابن عمر القرشي :أحكام السوق ص ٢٥ .

القيروان قبل نقله الى المنصورية متصلاً من القبلة الى الجوف وطوله من باب أبي الربيع الى الجامع ميلان[١] غير ثلث ومن الجامع الى باب تونس ثلثاً ميل وكان سطحاً متصلاً فيه جميع المتاجر والصناعات وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك[٢] هذه الاشارة تدلل على أن تحسيناً حدث لسماط القيروان في العهد الأموي لكن ما قيمة هذا التعديل وأثره ؟ لعل الرواية توضح أن التعديل كان شكلياً صورياً شمل الهيكل العام لنظام الدكاكين والمحلات فقط ، في حين نجد أن تنظيم العهد العباسي لسماط القيروان الذي كان على عهد الوالي يزيد بن أبي حاتم تنظيماً عملياً تخصيصياً لا ريب أنه يسهل على المشتري عمله أثناء قضاء حاجته ، كما يربط أصحاب التجارة الواحدة برباط موحد ، والحقيقة أن هذا التنظيم الذي حدث في سماط القيروان قد غدا النموذج الذي يحتذي به في سائر أسواق بلاد المغرب الاسلامي [٣] ويسهل على الجهاز الاداري مراقبة الأسواق عن قرب .

والشيء الجيد في التنظيم أنه أخذ بعين الاعتبار سهولة التموين الى جانب مراعاة المتطلب الصحي والشكل المعماري للسوق وللمدينة بصفة عامة . [٤]

كانت الأسواق بطبيعة الحال كنتيجة للتنظيم الذي حدث سنة ١٥٥هـ تسمى حسب اختصاصها المهني فهناك سوق البزازين وسوق السراجين ، وسوق الجزارين وسوق القطانين وسوق النخاسين . غير أن هناك أسواقاً عرفت بأسماء أشخاص كسوق اسماعيل بن عبد الله المعروف بتاجر الله ، وسوق ابن هشام وسوق المغيرة نسبة الى قاضي افريقية عبد الله بن المغيرة (الذي استقضاه على افريقية الخليفة عمر بن عبد

---

(١) الميل يساوي ثلاثة فراسخ ويساوي ١٠.٨٨٠ ك م (محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية . ص ٣٠١)

(٢) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٨ .

(٣) الحبيب الجنجاني : المغرب الاسلامي ص ٦٧ .

(٤) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٢ .

العزيز)[١] كما اختصت بعض الأسواق بفئية معينة مثل اليهود " [٢] . كما يلاحظ قيام أسواق في الأحياء (الأرباض) خصصت لبيع الواردات من المدن الأخرى ومن خارج المنطقة [٣].

كما اقتضت مصلحة السكان للمحافظة على البيئة من الناحية الصحية ابعاد بعض أنواع الأسواق خارج سوق المدينة نظراً لما في روائحها الكريهة من مضرة على الناس مثل سوق الدباغين وسوق الطوابين وسوق الحدادين وسوق اللحامين [٤] وكانت هذه الأسواق تبيع منتجات القيروان الزراعية والصناعية ومنتجات المدن الأخرى المجاورة لها اذ كانت القيروان هي المركز الرئيسي الاقتصادي [٥] .

هذا الهيكل العام للأسواق كان قبل عهد الأغالبة . لكن نظراً لأن عهدهم شهد حركة كبرى في الناحية الاقتصادية فقد عمدوا الى ضبط أحكام السوق المختلفة عن طريق وظيفة المحتسب حتى لا يدعوا فرصاً للتلاعب والفوضى والغش . [٦]

ويقتضي منا الحديث عن الاسواق الحديث عن الأسعار فيها . والحقيقة أن الاسعار في السوق كانت غير منتظمة وتتفاوت بحسب كمية الوارد على السوق وهذا بطبيعة الحال يخضع لعملية الرخاء والجدب كما يخضع للظروف السياسية والعسكرية أيضاً [٧] . كما كانت تتدخل في عملية الأسعار طريقة المحايلة بأن يدخل صاحب السلعة أشخاصاً للمزايدة لا يكون لهم غرض في الشراء فيحدث اضطراب في الثمن

(١) المالكي : نفس المصدر . ج ١ ص ٨٢ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٦

(٣) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٢ .

(٤) حسني ابراهيم مبارك : التطور الإقتصادي لأفريقية في عهد الأغالبة ص ١٣٥ .

(٥) حورية الاسلام : علاقات مصر ببلاد المغرب : رسالة دكتوراه لم تطبع ص ١٧٧ .

(٦) حسني ابراهيم مبارك : نفس المرجع . ص ١٤٣ .

(٧) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٧١ .

كما يحدث نتيجة لذلك نوع من الاحتيال [١] على أن نظام الرقابة كان لتلك العمليات بالمرصاد ويلاحظ ان عمليات الغش والتدليس وسيادتها في السوق كانت مسؤولية تقع على كاهل الوالي أو من ينوب عنه " المحتسب " ذكر يحي بن عمر قوله " أما قولك ان القمح والشعير يباع عندكم بمكاييل مختلفة أحدثها أهل الحوانيت وليست مما أحدث السلطان فليس يعرف له أصل فعند هذا كبيرة وعند هذا صغيرة فهي مختلفة ويعمل الناس فيما بينهم في القمح والشعير فلا ينبغي لحواضر المسلمين في أسواقهم أن تكون بهذه الحال الذي وصفت فان كان عليهم والٍ فليتق الله ربه فيما استرعاه ويحوطهم في موازينهم ومكاييلهم حتى تكون موازينهم ومكاييلهم معروفة كلها)(٢) فنص يحي بن عمر هذا يوضح الطريقة السليمة لضبط المكاييل والموازين لمنع أي نوع من الغش والتدليس وتكرن مهمة الوالي لأنها من ضمن مهامه للحفاظ على رعيته وما استرعاه الله .ويحي بن عمر هذا (٢١٣-٢٨٩) هذا أول من ألف كتابا في أحكام السوق وأسعاره وسائر أموره في العالم الاسلامي ، وقد ألف الكتاب في العهد الأغلبي [٣] ولعل الأسعار في القيروان كما في غيرها من حواضر المسلمين كانت تخضع لقانون العرض والطلب[٤]

والاسلام ترك للمسلمين الحرية في تسعير بضائعهم ولعل الموقف الذي أورده الأمام الشافعي عن عمربن الخطاب رضي الله عنه ، الذي أمر فيه حاطب بن أبي بلتعه ألا يبيع الزبيب الذي كان معه بالسعر الذي أخبره عمر بن الخطاب به . اذ رأى

---

(١) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٤ .

(٢) أحكام السوق ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٧٠ .

(٤) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ١٢٩

عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا السعر مضرة على الباعة الاخرين فطلب منه أن يرفع السعر - حيث كان زبيبة من النوع الجيد وسعر غيره في السوق أغلى منه - وأما أن يدخل الزبيب الى بيته ولا يبعه ، لكن عمر رضي الله عنه أدرك خطورة أمره هذا فعاد الى حاطب وهو في منزله وقال له " ان الذي قلت لك ليس بعزيمة مني ولا قضاء انما هو شيء أردت به الخير لأهل البلد فحيث شيئت فبع " (١) والحقيقة أن عدم تحديد السعر هو الأصوب ذلك أن الأسعار خاضعة لعاملين رئيسين عامل الرخاء أو الجدب ، وعامل الاستقرار السياسي والامني " (٢) .

وقد مر بنا سعر الرقيق وكيف ان اختلاف السعر كان يقع بالدرجة الأولى على مؤهلات العبد ذاته أما سعر بقية السلع فقد تغيرت من حين لاخر فمثلاً رغم كثرة الحبوب التي كانت تميز بها المدن المجاورة القيروان الا أن سعر القفيز(٣) في زمن زيادة الله بلغ دنانير كثيرة (٤).

أن الأختلاف في أسعار أسواق القيروان يبرز جانبين :

الجانب الأول : أنها تعطي صورة عن المؤثرات الحقيقية التي تكمن وراء رفع السعر أو انخفاضه . الجانب الثاني : تعطي فكرة واضحة عن طبقات المجتمع وظهور الفيئات الجديدة التي بدأ التقدم الحضاري بكل مستلزماته وامكانياته واضحاً فيها والناتج بالدرجة الأولى عن ظاهرة الثراء التي عمت فئة من سكان القيروان في الفترة موضوع الرسالة (٥).

---

(١) الأم ج ٨ ص ٩٢ .

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٧١ .

(٣) القفيز : هو من المكاييل ويساوي ٣٣لتراً (محمد ضياء الدين الريس : نفس المرجع ص٣٢١) .

(٤) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٧٢ .انظر ملحق المقاييس والموازين والمكاييل

(٥) حول موضوع أثر الثراء في الحياة الاجتماعية : انظر الحبيب الجنجاني : المغرب الاسلامي من ص ١٣٨ الي ١٤٥

والواقع أن أسواق القيروان عرفت بشهرتها التجارية منذ القرن الثاني الهجري وغالب الظن ان ذلك كان بعد سنة ١٥٥ هـ. ثم تألقت تلك الأسواق الى جانب أسواق الشرق الاسلامي بعد قيام دولة الأعالبة ، وكانت تلك الأسواق تخضع في تعاملها لأحكام الفقه الاسلامي (١) . سواء في المعاملات المالية أو فيما يختص بالبيع أو ما يخص بالنظم التجارية .

كما أن تلك الأسواق كانت تتعرض للنهب والسرقة أثناء الأزمات والثورات السياسية (٢)

وكانت الدولة تتدخل في أوضاع الدكاكين فقد تعمد إلى نقل بعض أصحاب تلك الدكاكين الى مناطق جديدة كما حدث لاصحاب حوانيت الرهادنه والرفائين حيث أجبرتهم السلطة على الانتقال من أماكنهم إلى مناطق أخرى كانت دوراً خاصاً لسكن بعض الناس وكان القاضي أبو محرز ينهي أصحابه عن تلك الدكاكين والنزول فيها لأنها أخذت من أصحابها كرها وجرح الدباغ في كتابه القضاة الذين يتقاضون رواتبهم من كراء تلك الحوانيت بل اعتبر ذلك مكساً(٣) .

---

(١) الحبيب الجنجاني : المغرب الاسلامي ص ٦٨ - ٦٩

(٢) الحبيب الجنجاني : ص ٦٩

(٣) معالم الايمان : ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

الحسبة ودور الفقهاء في الاشراف على النشاط التجاري والمالي في القيروان :

التعريف العام للحسبة هي أمر بمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن منكر اذا ظهر فعله [١] وذلك وفقاً لما جاء في الأية الكريمة " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " [٢].

ونشأت الحسبه بمفهومها العملي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اذ كان يقوم بهذا العمل بنفسه كما يقال أنه بعد فتح مكة عين على السوق فيها سعيد بن العاص وقد سار على نهجه الخلفاء من بعده اذ عين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أم الشفاء الأنصارية على السوق لأمور تتعلق بالنساء [٣].

أما ظهور الحسبه كمنصب اداري فمن المرجح أنه كان في العصر العباسي اذ ترد اشارة عند الطبري الى أن أبا جعفر المنصور عين أبا زكريا ، حسبة بغداد والأسواق[٤]. لذا تكون افريقية قد عرفت هذا النظام متأثرة بنشأته وظهوره في بغداد " وكان للأغالبة نفس النظم الادارية وكان بلاطهم صورة صادقة لبلاط الخلفاء العباسيين"[٥]. ولا يعني ذلك أن أفريقية لم تعرف الحسبه الافي العهد الأغلبي لا بل أنها كانت موجودة قبل عهدهم " غير أنها تميزت بكثير من الاختصاصات وتحددت

---

(١) الماوردي : نفس المصدر . ص ٢٤٠

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤.

(٣) أنور الرفاعي : نفس المرحع . ص ١٢٣ سهام أبو زيد : الحسبه في مصر الاسلامية ص ٤٧ – ٤٨

(٤) تاريخ الطبري : تاريخ الأمم والملوك : ج ٧ ص ٣٤١ .

(٥) محمود اسماعيل عبدالرزاق : الأغالبة ص ٧٧ .

واجبات المحتسب في أفريقية " [١] ويذكر موسى لقبال أن المحتسب في عهد الأغالبة كان يعين من قبل الأمراء غير أن القاضي كان يتدخل في التعيين بالاشارة الى من له الكفاءة في ذلك[٢] لكن منذ سنة ٢٢٤هـ دخلت وظيفة الحسبه في طور جديد اذ تولاها القاضي وكان ذلك من قبل الامام سحنون بن سعيد الذي شعر بعظم أمانة القضاء الى جانب شعوره بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتولى تلك المهمة بنفسه وفي هذا الصدد يقول يحي بن عمر " ان سحنون يفهم الحسبه بمعناها الأعم ويرى أن المحتسب هو من له القدرة على الوقوف في وجه السلطة متى حادت عن الجادة وليس هو من ينظر في شؤون الأسواق " [٣].

اذن لم يكمن دور المحتسب يشتمل فقط على مراقبة المكاييل والموازين وعمليات الغش والتدليس انما شمل عمله كل شؤون العامة والخاصة وكل الشعب افرادا أو حكومة [٤] ولعل معرفتنا التامة لشخصية الامام سحنون سعيد تقواه وورعه . ايمانه واخلاصه . وحرصه على تنفيذ شرع الله تجعلنا ندرك قيمة العبءالذي حمل نفسه به اذ تحمل عبء القضاء والحسبه معاً [٥] . لذا يعتبر بحق أول قضاة أفريقية نظر في الحسبة وشؤون السوق فقد ذكر المالكي في هذا الصدد قوله " قال غير واحد : أول ما نظر سحنون في الاسواق وانما كان ينظر فيها الولاة دون القضاه [فنظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع وكان يجعل الامناء على ذلك ويؤدب على الغش وينفي من الأسواق من يستحق ذلك . وهو أول من نظر في الحسبه من القضاة وأمر الناس بتغير المنكر "[٦].

---

(١) حسني ابراهيم مبارك : التطور الإقتصادي لولاية افريقية في عهد الأغالبة ص ٢٤١ .

(٢) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب ص ٤٢ .

(٣) أحكام السوق : ص ٢٣ .

(٤) ابن عمر : أحكام السوق ص ٢٢ – ٢٣ .

(٥) ابن عمر : أحكام اسوق ص ٢٣ .

(٦) رياض النفوس : ج ١ ص ٢٧٦ .

وتقضي وظيفة المحتسب أن يبعث بالأمناء الى الأسواق لمعاينة المكاييل والموازين واختبارها ان شك في سلامتها [١]. وقبل هذا للمحتسب ان يشرف على المكتب الرسمي الذي يختص ببيع الصنجات حيث يقوم بوضع العلامة عليها بواسطة " ميسم منفوش " [٢].

واذا كان اختصاص المحتسب في بحثنا خاضع للنظر في العملية التجارية فلابد اذن أن تعرف أن من صميم عمل المحتسب مراقبة النقود المتداولة في البيع والشراء للتأكد من سلامتها من الغش اذ كان معروفاً غش الدراهم والدنانير بالنحاس [٣] فلا بد أن يتأكد المحتسب أن السكة المتداولة بين الناس رسمية عليها علامة السلطان كاملة الوزن غير منقوصة . يقول ابن خلدون اثناء حديثه عن السكة : " اذ بها تتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها من الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة "[٤] .

كان من عمل المحتسب أن يعمل على تنظيم السوق أيضاً - أي الاهتمام بالناحية الشكلية التنظيمية - حيث يمنع أصحاب الحوانيت من الخروج عن المستوى العام لما في ذلك من تعطيل لحركة المارة [٥].

كما كان على المحتسب مراقبة الطرقات وتفتيش قوافل التجارة [٦].

هذا داخل القيروان أما في خارجها فقد عين القاضي سحنون أمناء في البادية

---

(١) موسي لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب ص ٣٥ .

(٢) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٦١ .

(٣) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٦٠

(٤) المقدمة : ص ٢٠٦ .

(٥) الشيزري : الرتبة في طلب الحسبه ، ص ٢٨ .

(٦) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٧١ .

للنظر في شؤونها فكان بهذا النظام الجديد ان ارتقى بسكان البوادي الى اصلاح باديتهم والتدرج بها نحو الأساليب والتنظيمات الحضرية الموجودة في المدن "[١].

لكن نرى انفصال ولاية القضاة عن الحسبة في عهد القاضي عبد الله بن طالب المتوفي سنة ٢٧٥هـ اذ عين من قبله ابا محمد عبد الله بن الوليد (ت سنة ٢٩٨هـ) على الحسبة [٢]غير أن ابن طالب كان له يد في بعض أعمال المحتسب اذ نراه يجبر الذين يعملون في الصيرفة على تعلم الأحكام المتعلق بحرفتهم [٣].

ولاعجب في ذلك اذ كان ابن طالب ذاته في حياته سواء ماكان منها مسؤولا أو غير ذلك كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . [٤] فلا يعني ان عين محتسبا من قبلة ان يتقاعس عن مهام الحسبه ان رأي ضرورة ذلك بل يعتبر من صميم عمله أن يغشي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع وجود الشخصية الكفء وتلك قمة الحرص على الأمانة الملقاة علي عاتقه .

كما حظيت أسواق القيروان بشخصية اخري من تلامذة الامام سحنون بن سعيد هو محمد بن محمد بن خالد القيسي الذي تولي الحسبه والمظالم .في قضاء عيسي بن مسكين وقد أجبره علي تولي المنصب الأمير ابراهيم بن أحمد بعدما رفض تعين ابن مسكين له . وقد اعتذر للأمير بأن فيه حياء ولين جانب وقلة فقه ، فقال له الأمير " أما الحياء واللين فاذا أمرت ،نهيت زالا عنك . ،أما قلة الفقه فشاور الفقهاء " [٥]

---

(١) ابن عمر : أحكام السوق ص ٢٥ .

(٢) أبو محمد عبدالله بن الوليد : من الفقهاء الثقات سمع من سحنون وابنه محمد وعون بن يوسف وأبا الحسن الكوفي كان كثير الكتب والدراية ولاه ابن طالب أسواق القيروان وموازينها (القاضي عياض ، تراجم أغلبية ص ٣١٧).

(٣) ابن عمر : أحكام السوق ص ٢٥ .

(٤) الدباغ : معالم الايمان ج ٢ ص ١٦٠ .

(٥) القاضي عياض : تراجم الأغلبية ص ٣٧٧ .

وكان معروفاً بشدة تغييره للمنكر " كان شديدا في تغيير المنكر ، لم يل أسواق القيروان قبله أضبط منه " (١) .

ولابد من القول أن حرص امراء الأغالبة علي سلامة أمن الدولة من جهة ورخائها الاقتصادي من جهة ثانية قد أسسها في التمكين لمكانة المحتسب في افريقية كما ساعد حرص القضاة على تعين الثقاة الأفاضل من علماء القيروان لهذه المهمة في استمرار الأوضاع الاقتصادية وبالتالي الي تحري الحلال والصلاح فيها الأمر الذي نتج عنه ذاك الازدهار الحضاري الذى شمل كافة الجوانب.

ولعل من الأولى أن نقول ان الوعي الديني الى جانب بروز العلماء الأفاضل للتصدي للأمر بالمعروف دونما حاجة الى منصب وظيفي كان من ضمن العوامل المساعدة في تثبيت مفهوم الحسبه في الحياة الإقتصادية في أفريقية .

---

(١) أبو العرب : طبقات علماء افريقية ص ١٦٥ .

النظم التجارية والمالية في القيروان في عهد الأغالبة :-

نظرا للتقدم الحضاري ، وتبعا للنشاط الاقتصادي وتوسعه عرفت القيروان آنذاك بعضا من النظم التجارية التي ساهمت في دفع الحركة التجارية ، ،كانت تلك النظم مما ظهر في مراكز التجارة الإخرى ، فهي اذن ليست غريبة كما أنها ليست من مستحدثات العصر . لكنها تدل بشكل أو بآخر على الإزدهار الإقتصادي الذي عرفته المدينة .

أولا - الوكالة التجارية :-

يحمل لفظ الوكالة معنيين أوضحتها الكتب التي تناولت بالبحث والدراسة الأمور المتعلقة بالتجارة . ولعل أول مقصد لمعنى الوكالة هو الذي يدل علي الإنابة والتفويض، يدل علي ذلك ماذكره الإمام الشافعي ، قال : " فللناس أن يوكلوا في أموالهم وطلب حقوقهم وخصوماتهم .... والتوكيل من كل موكل رجل وامرأة تخرج أولاً بعذر أو غير عذر حضر خصم أو لم يحضر جائز " (١) .

هذا المعني العام للتوكيل . أما الوكالة كمصطلح تجاري فتدل على أن تاجرا يوكل عنه رجلاً في انقل سلعته ربما في خارج حدود دولته وربما في داخلها ، يؤيد ذلك ماذكره أبو العرب عن أبي عبدالرحمن عبداله بن يزيد المقرىء قال : " دخلت أفريقية سنة ست وخمسين ومائة وأنا وكيل لرجل من التجار " (٢) .

وهذا الوكيل قد يكون وكيلا لأكثر من تاجر اللهم الا اذا كانت تجارة الموكل كبيرة بحيث تحتاج الى جهد ورعاية كبيرين يكون عندها عمله قاصرا على وكالة لواحد من

---

(١) الأم ج . ص ١١٠ .

(٢) طبقات علماء افريقية وتونس ص ١٦٣ .

التجار فقط [١].

أما المعني الثاني للوكالة فهو الذي نستنبطه من خطط المقريزي عندما يتحدث عن المنشآت التجارية في القاهرة حيث أشار الى أن الوكالة هي مبنى للتجار القادمين الى البلد من العراقيين والشاميين وغيرهم من تجار المشرق ا لاسلامي [٢].

ونظرا لأن القيروان في العهد الأغلبي قد حفلت بنشاط تجاري كبير غدت فيه كما أسلفنا -مركزا تجاريا - أمه تجار الغرب والشرق والجنوب ،الشمال فلا يستبعد وجود هذا المبنى المعماري آنذاك لعدم توفر معلومات كافية بهذا الصدد غير أن ابن عذاري أشار الى نكبة أحد كبار التجار وهو أبو جعفر بن خيرون علي يد الشيعة العبيدين فأورد قوله : " وفيها قتل - أي سنة ٣٠١ من التجار أبناء الأندلسيين بالقيروان أبو جعفر بن خيرون صاحب المسجد الشريف والفنادق المجاورة للمسجد." [٣] غير أنه يمكن القول أن تلك الفنادق كانت تمثل الوكالة اذ كانت الفنادق خاصة بالتجار الأجانب.

يوضح عطية القوصي أمر الوكالة بشكل كبير فيذكر أن الوكالة ينشئها أفراد كما تنشئها الحكومة وأن لهامشرف يدعى وكيل التجار أو شيخ التجار يتم تعيينه بموافقة جميع التجار ، وتورث الوكالة لاولادمن بناها ، ولم يكن عمل شيخ التجار قاصرا على النواحي التجارية بل شمل عمله الصرف والإيداع وتغيير العمله وتكون لديه معرفة بكبار التجار وأسعار السلع المختلفة في السوق [٤].

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي ص ٥٨ .

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٤٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) نفس المرجع . ص ٢٠٤ .

ثانيا - الفنادق :-

كان التجار الأجانب (الأوروبيين) ينزلون في فنادق خاصة في الدول الاسلامية ويتكون الفندق من عدة طوابق ، في الدور السفلي توجد المخازن والحوانيت والجوانب التي تطل علي فناء داخلي فسيح يسد البضائع أثناء تعبئتها وتفريغها . أما الأدوار العليا فكانت معدة لسكن التجار (١) .

وكان يلحق بالفندق كنيسة ومقبرة اذا سمحت الدولة الاسلامية بذلك وفرن وحمام كما كان يخضع الفندق لنظام الدولة الاسلامية في الفتح والغلق (٢) .

ولم نعثر علي الإطلاق علي أسماء بعض هذه الفنادق في القيروان في دولة الأغالبة اللهم الا النص الذي أوردناه سالفا عن فنادق ابن خيرون ففيه دلالة علي وجودها لاسيما وأنه لم يمكن للأجانب حق انشاء تلك الفنادق وانما كانوا يستأجرونها من المسلمين (٣) . ولعل لحركية التجارة مايدعم وجود تلك الفنادق الخاصة بغير المسلمين .

ثالثا - الشركات :-

الشركة بصفة عامة هي بين مشتركين يوضح نسبة المشاركة في رأس المال وفي توزيع الأرباح أو الخسائر بنسبة المساهمة في رأس المال (٤) . وهي مباحة شرعا واستنادا لحديث الرسول صلي الله عليه وسلم " ان الله يقول أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه فان خانه خرجت من بينهما " (٥) .

---

(١) آدم متز : نفس المرجع . ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) عطية القوصي : نفس المرجع . ص ١٩٩ .

(٣) عطية القوصي : نفس المرجع والصفحة اعلاه .

(٤) محمد عبد المنعم العفر : الاقتصاد الاسلامي ج ٢ . ص ١٢ .

(٥) أبو داود : مختصر السنن ج ٥ ص ٨ ٤ (نقلاً عن : محم عبدالمنعم عفر . الاقتصاد الاسلامي جـ٢ص١٢) .

ويبدو أن دافع قيام الشركة في التجارة الرغبة في زيادة حجم رأس المال للخروج بهذه التجارة الى خارج الحدود الإقليمية مما سينتج عنه زيادة في الإنتاج .

ويذكر نجاة باشا أن شركات التجارة أصل منشأها صغار التجار في الأسواق المحلية الذين كان عليهم العمد في توفير المستلزمات الإستهلاكية فأد بهم ننشاطهم اي استحداث الصناعات التي دفعتهم فيمابعد الى الخروج والإنطلاق للبحث عن المواد الأولية والتسويق لحاجياتهم خارج افريقية حيث بلاد السودان وأوربا الغربية والشرقية والمحيط الهندي (١) .

غير أنه لابد من التنويه الى أن الشركات التي قامت في افريقية في عهد الأغالبة لم تكن جميعا بمستوي التجارة الكبرى التي تهدف الى الإتصال الخارجي والمشاركة في التجارة العالمية . لا بل كانت تقوم مثل تلك الشركات في صورة مصغرة وهذا لايخرجها عن نطاق كونها شركة لقيامها علي مبدأ المشاركة اذ كانت تتم في محصول زراعي مثل شركة القطن التي كانت بين حمد يس القطان وعبد الجبار السرتي (٢) ويبدو أنها كانت شركة صناعية تجارية اذ كان عملهم في هذه الحرفة في سوق الأحد .

وكانت الشركات سواء ماكان منها خارجيا أو داخليا من العوامل التي أسهمت بنصيب كبير في التقدم التجارى اذ أن رؤوس الأموال كلما كبرت تؤدي إلي زيادة التوسع التجاري الذي ينتج عنه فيما بعد زيادة في الأرباح التي من أجلها غالبا أقيمت الشركة . لكن الشركات بالمفهوم التجاري الواسع كانت وقتذاك في الغالب الأعم بيد اليهود وغيرهم من الأجانب أصحاب رؤوس الأموال الضخمة .(٣)

---

(١) التجارة في المغرب ص ٥٦ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية ص ٢٩٦ .

(٣) نجاة باشا : نفس المرجع . ص ٥٦.

ثالثاً : الصكوك :

هو وسيلة من وسائل الأئتمان وهو أمر خطي بدفع ملبغ من المال الى الشخص المسمى في الصك وهو مثل الشيك في عصرنا ، ويعمل الصك احياناً عمل سند الدين ويقوم مقامه (١) .

يحتاج الصك الى شاهدين يوقعان عليه وختم وقد استعمل الصك الأمير زيادة الله الأول حينما اشترى شراء ودفع الى صاحب البيع صكاً بقيمة الشراء وأشهد عليه قاضياه أسد بن الفرات وأبو محرز (٢) .

كما استعملها محمد بن سحنون حيث دفع لرجل ورقة كتب له فيها عطاء من مال ليصرفها عند أحد الصيارفة (٣) .

---

(١) حسني ابراهيم مبارك - نفس المرجع . ص١٦٤ .

(٢) القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ٦٨ .

(٣) القاضي عياض : نفس المرجع أعلاه . ص ١٨٢ .

رابعاً : الصيرفة والعمليات المصرفية :-

الصيرفة معاملات مالية تقدم خدمات مصرفية مختلفة لعملائها من قرض وايداع وفتح حسابات جديدة وحسابات ادخار وغيرها.[١]

ويوجد هذا النوع من المعاملات المالية في المدن ذات الحضارة ، فقد ظهر في القيروان وأصبح علماً له مؤلفاته وتلاميذ يدرسونه مثل الكتاب الذي ألفه أحد تلامذة الامام سحنون سعيد وهو أحمد بن أبي سليمان .[٢]

ونظراً لما لهذه المعاملات من نتائج ضاره على المجتمع اذا دخلها بفائدة (الربا) أجبر القاضي عبد الله بن طالب صيارفة القيروان أن يدرسوا على ابن أبي سليمان علم الصرف . ويبدو أن المعاملات المصرفية في عهده قد تطورت اذ لم يأمر بمثل هذا الامام سحنون رضي الله عنه رغم دخول الحسبة في عهده طوراً جديداً كما أسلفنا القول وهذا الطلب ان صح لنا القول كان منبعه أمران :-

أولاً- تطور العمليات المصرفية بحيث لم يعد دورها قاصراً على استبدال العملة وصرف الدينار الى درهم وانما أصبحت تقوم مقام البنوك مالياً حيث تودع الأموال فيها من قبل الخاصة [٣]. فهذا محمد بن سحنون يعطي لأحد المستحقين ورقة بقيمة عشرين دينار ليصرفها عند أحد الصيارفة [٤].

ثانياً- أن العمليات المصرفية كان يمسك بزمامها اليهود ولهم باع طويل فيها

---

(١) حسن النجعي : معجم المصطلحات التجارية والمصرفيه . ص٢٠ .

(٢) الدباغ : معالم الايمان . جـ ٢ .ص٢٠٩

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٧٨

(٤)القاضي عياض : تراجم أغلبية . ص ١٨٢

وكانوا يرابون من درائها ، وخشية من انتشار المعاملات الربوية بين المسلمين وهو الأمر المحرم عليهم شرعاً اضطر ابن طالب الى اتخاذ اجرائين أولها : اجبار الصيارفة على دراسة كتاب الصرف لمعرفة كل دقائقه ومكنوناته .

الثاني : تميز اليهود ودورهم وحوانيتهم بالرقاع التي عليها الحيوانات [١]. يقول الدباغ في موضوع الصرف تعليقاً على طلب ابن طالب للصيارفة بدراسة كتاب الصرف " ولما كان الصرف من أضيق الأبواب وذنبه أحق من غيره فعل بهم هذا دون غيرهم من سائر الباعة "[٢]وكان للصيارفة سوق خاص بهم [٣]، ولا عجب في ذلك اذ عملهم حقيقة ركيزة قوية في عصب الحياة الاقتصادية ، فطهر المعاملات المصرفية ونقاؤها يعني طهر الحياة الاقتصادية في كافة جوانبها ودافعاً قوياً نحو تقدمها وازدهارها .وكانت عملية الصيرفة تدريجاً كبيراً عن طريق فروق الصرف المختلفة ومرد ذلك قطعاً تواجد معادن النقود (الذهب - الفضة - النحاس) في مناطق وانعدامها في أخرى أو تكون نادرة فيها . فمثلاً استغل الصيارفة رخص الدراهم الفضية في الاندلس بسبب وفرة الفضة فيها فيصرفون الدينار الأغلبي الذي كان على درجة كبيرة من النقاء بالدراهم الفضية الأندلسية ، ثم يستغلون ندرة الفضة في الدولة الكاروليجية فيبيعون الدراهم الفضية الأندلسية مقابل الدينار الكارولنجي بسعر ١٢/١ ثم بعد ذلك يستغلون ارتفاع سعر الدينار البيزنطي عن سعر الدينار الكارولنجية فيبيعونها للدولة البيزنطية بسعر ١٨/١ ثم يعيدون سبكها في الدوله الاسلامية ويبيعونها بسعر ١٤/١ [٤]

وقد أدت هذه العملية (المصرفية) الى وفرة معدن الذهب في الدولة الأغلبية

---

(١) المالكي : نفس المصدر . جـ ١ . ص ٣٨١

(٢) معالم الايمان : جـ ٢ .ص ٢٠٩

(٣) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامي . ص ٧٨

(4) M Abu - l - Faraj Al ush : manaies Ag labide - p22-23

اضافة الى توفرها أيضاً بسبب تجارة الذهب مع بلاد السودان

كما ساعد على اشتغال التجارة الأغلبية بالصيرفة على هذا النطاق العالمي أمران أولهما السيطرة البحريةللأغالبة في الحوض الغربي للبحر المتوسط وثانيها العداء الذي كان بين بعض الدول الموجودة في الساحة السياسية كالعداء بين الفرنجة والأمويين في الأندلس (١) والذي ترتب عليه قيام الأغالبة بدور الوساطه بين الطرفين (٢).

دور ضرب الأغالبة ونقودهم :-

قام الأغالبة بضرب النقود ذهباً (دنانير) وفضة (دراهم) ولعل الدافع الى مثل ذلك أمران :-

أولاً - ان الدولة شبه مستقلة وهي بحاجة لتقوية اقتصادها بعملة قوية تجابه بها الدويلات الاخرى المعاصرة لها .

وثانياً - أن الدولة ستدفع خراجاً سنوياً للخلافة في بغداد فلابد ان تكون العملة المدفوع بها ذاك الخراج عمله قوية تكافىء وتوازي مستوى الخلافة وسلطانها (٣).

ويذكر حسن حسني عبدالوهاب في شأن تلك العملة الأغلبية قوله " وكانت نقود ابراهيم الأول وخلفائه من دنانير ودراهم قد اتخذت على شكل النقود العباسية ، وهي متقنة الصنع واضحة الكتابه ، حروفها من أجمل الحروف الكوفية الرائجة عندئذ في سائر الامارات العباسية " (٤).

---

(١) عن صلات الود بين العباسين وحملتهم في افريقية (الأغالبة) وبين الفرنجة انظر : محمود اسماعيل عبد الرازق : الأغالبة .ص٢٠٧ وما بعدها .

(2) M Abu - 1 - Faraj Al ush : manaiesAg labid -p22-23

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٢٨ - ومحمد الطالبي : الدولة الأغلبية . ص ٧٥٧ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٢٩ .

وكانت دار الضرب الرئيسية في أفريقية في مدينة القيروان تقع الى جانب دار الامارة قرب المسجد الجامع حيث توجد الدواوين الحكومية هناك مثل ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الجند ولهذه الدار مسؤول على صلة مباشرة بالأمير أو الوالي ، كما كان هناك عمال متخصصون للعمل في سبك النقود ونقشها ووزنها وطبعها يعرف كل واحد منهم باسم السكاك[١] .

وكانت النقود التي تضرب فيها تحمل اسم افريقية ولكن شذ عن ذلك الأمر حيث عثر على فلس (نحاس) مكتوب عليه القيروان واسم الامير زيادة الله [٢] .

على أن دار ضرب القيروان لم تكن الوحيدة فقد وجد درهم أغلبي مضروب في المحمدية[٣] . وهي مدينة بنواحي الزاب[٤] . كما وجدت دراهم مضروبة في مجانه[٥] . أحدها ضرب سنة ٢٠٧هـ واخر ضرب سنة ٢١٠هـ[٦] ، وهناك عملة مضروبة سنة ٢٠٩هـ في المباركة وهذه المدينة مجهولة في افريقية كما يذكر ذلك أبو الفرج العش[٧] لكن من المحتمل أن تكون المباركة مقصودة بها القيروان . كما وجدت نقود عليها اسم افريقية ويرى أبو الفرج العش أن المقصود بها غالباً القيروان ولكن الأغالبة تأكيداً لأحكام سيطرتهم على جميع الولاية الممتدة من برقة حتى تاهرت ووهران .نقشوالفظ افريقية[٨] .كذلك وجدت دار للضرب في المناطق التي فتحها الأغالبة ، فهناك دار

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : نفس المرجع . ص ٤١١

(2) M Abu - l - Faraj Al ush : manaies Ag labides -p50

(3) M Abu - l - Faraj Al ush : manaies Ag labidesp56-57

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ٥ . ص ٦٤

(٥) مجانه : بلد بافريقية فتحها بسر بن أرطأة بينها وبين القيروان خمس مراحل بها حديد ورصاص في جبل في جنوبها (ياقوتي : نفس المصدر . جـ٥ . ص ٥٦)

(6) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.55-56.

(7) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.51

(8) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.47-48.

للضرب في صقلية وقد عثر على ربع درهم مضروب سنة ٢٥٠هـ عليه اسم صقلية واسم الأمير زيادة الله . كما عثر على دراهم مضروبة في بلرم فيما بين سنتي ٢٢٠-٢٥٠هـ[١].

أمانقود الأغالبة فلا تختلف عن نقود العباسيين وانما هي سائرة في فلكها من حيث النوع والشكل العام ، والوزن،ومقدار الذهب أو الفضة المستخدمة . لكن كان هناك خلاف بسيط في الشعارات فقط[٢]. فقد حدث نقود الأغالبة على ما يأتي : كلمة غلب (غالب) وهي تكتب دائماً على ظهر العملة مصحوبة بهلال صغير ومنذ سنة ١٩٧هـ صارت كلمة غلب تكتب أعلى النقش المركزي . هذا بالنسبة للدينار أما بالنسبة للدرهم فأن كلمة غلب كانت تكتب أعلى النقش المركزي على ظهر الدرهم ، أما بالنسبة للفلس (النقود النحاسية) فأن كلمة غلب كانت تختلف من درهم لأخر[٣].كما نقشوا على نقودهم اسم الأمير وكنيته فقد عثر على درهم بكنية أبو العباس الأمير الأول (٢٢٦-٢٤٢هـ) مؤرخ بسنة ٢٤١هـ وآخر بكنية أبو ابراهيم (الأمير أحمد بن محمد ٢٤٢-٢٤٩هـ) وذلك على دراهم ضرب سنة ٢٩٤ ، سنة ٢٩٥، وسنة ٢٩٦ .

وفي كثير من الأحيان كان ينقش على نقود الأغالبة اسم صاحب دار الضرب وكان الأغالبة يختارون أصحاب دور ضربهم من المخلصين من عبيدهم ومن النصارى الذين كانوا في خدمتهم . وكان ينقش اسم صاحب الضرب على وجه الدينار أسفل النقش المركزي في وسط الدينار . أما بالنسبة للدرهم والفلس فأن اسم صاحب الضرب كان يكتب وسط النقش المركزي على وجه العملة ومن اصحا بدور الضرب البارزين موسى

---

(1) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ûsh : Moknnaies Aglabicle - P.48-50.

(2) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ûsh : Moknnaies Aglabicle - P.45.

(3) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ûsh : Moknnaies Aglabicle - P.40.

للأمير ابراهيم الأول وزيادة الله الأول ، ومسرور للأمير زيادة الله الأول أيضاً وخلف وجبران (نصراني)للأمير محمد الأول [١]. وبلاغ للأمير ابراهيم الثاني ، وخطاب للأمير زيادة الله الثالث [٢].

وعلى طوق قطعة النقود كانت تنقش الآية القرآنية"لله الأمر من قبل ومن بعد[٣].

أنواع وأوزان نقود الأغالبة :-

أنواع نقود الأغالبة هي:-

الدينار - الدرهم- الفلس والدينار يكون من الذهب وكانت توجد منه الوحدات الآتيه : الدينار ، ونصف الدينار ، وربع الدينار .

والدرهم فهو مصنوع من الفضة ، وقد سكوا منه الدرهم ، ونصف الدرهم ، وثلث الدرهم ، وربع الدرهم ، وثمن الدرهم ، وعشر الدرهم .

أما الفلس فهو عملة التعامل المحلي البسيط وقد كان مسكوكاً من النحاس [٤].

أما عن درجة نقاء عملة الأغالبة فقد أورد أبو الفرج العش دراسة من بعض نقود الأغالبة المحفوظة بالجمعية الامريكية للنميات أثبت فيها أن عمله الأغالبة كانت على درجة من النقاء كبيرة فقد كانت عمله الأمير عبد الله بن الأغلب على درجة نقاء ٩٨٪ وكانت عملة زيادة الله تختلف ففيها درجات نقاء من ٩٠٪ الى ٩٩٪ وكذلك كانت عملة محمد الأول حيث تراوحت درجة النقاء في عملته ما بين ٩٨٪ الى ١٠٠٪ وأخيراً ثبت بالدراسة أن نقاء عملة الأغالبة كان ما بين ٩٨٪ الى ١٠٠٪ [٥] وهي في الحقيقة نسبة عالية من الجودة والنقاء ، ولقد ساعد على أن تصل عملة الأغالبة

---

(1) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.46.

(2) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.41 - 43 -49.

(٣) حسن حسني عبدالوهاب . الورقات .القسم الأول . ص ٤٢٩.

(4) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.25.

(5) M- Abu - L - Faraaj - Al -Ủsh : Moknnaies Aglabicle - P.24.

الى تلك الجودة وفرة الذهب بلاشك .

يتبع دار الضرب الصنج وهو عيارات الوزن تصنع من الزجاج عبارة عن قطعة مدورة بقدر الدرهم أو أكبر منه أو أصغر منه على أحد وجهيها كتابة بارزة تدل على وزنها مثقال وزن الدرهم أو الدينار حسب الوزن الشرعي ويكتب عليها اسم الأمير أو الوالي الذي أمر بضربها وتطبع في دار الضرب ثم توزع تلك الصنج في أنحاء الامارة على الصيارفة والتجار لاستعمالها في عملياتهم المالية حيث توضع الصنوج في أحد كفتي الميزان في حين توضع العملة المراد صرفها في الكفة الاخرى (١) . وتلك أسلم طريقة لمنع الغش والتدليس والتلاعب في الأوزان .

وكانت الصنوج تحمل اسم الأمير الآمر بضربها أو الوالي وأول من استخدمها بافريقية عبد الله بن الحبحاب (١١٤-١٢٣هـ). (٢)

ويذكر حسن حسني عبد الوهاب أنه قد عثر على قطعتين من الزجاج يرجع تاريخ أحدها الى عهد الأمير ابراهيم حيث مكتوب على أحد وجهيه في السطر الأول " غلب " وفي السطر الثاني الى عهد الأمير زيادة الله الثالث كما هو مكتوب على الصنج وكان وزنه ٢٣.٧٥ جرام (٣) .

أما وزن تلك النقود فهو كما أسلفنا القول الوزن الشرعي للدينار والدرهم لا يُضير ان نقص قليلاً أو زاد ، تضرب في دار الضرب الاميريه سواء في القيروان أم في العباسية أم في رقاده ، وقد حرص الأمراء الأغالبه على جودة عملتهم باشرافهم على دار الضرب .

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤١٩

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٢١ .

(٣) نؤكد على ان اسم ابراهيم على الصنج يعني به ابراهيم الثاني وليس الأول . لان على الصنج اسم مدينة رفادة وهذه اسست في عهد الأمير ابراهيم الثاني وكذا الأمر بالنسبة للأمير زيادة الله الثالث . الورقات . القسم الأول ص٤٢٢ .

غير أن وجود العملات الصغيرة كربع الدرهم وثمن الدرهم قد أدى الى حدوث الغش والاضرار بالناحية الاقتصادية وفي هذا يقول الحبيب الجنحاني " وهذه النقود الصغيرة هي التي حدث فيها الغش والزيف فهناك اشارة الى الدرهم الجيد والدرهم الستوق أي الدرهم الزائف من النحاس " (١).

ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بالأمير ابراهيم الثاني سنة ٢٧٥هـ الى اجراء الاصلاح المالي الذي ألغى فيه تلك النقود الصغيرة من الدراهم الفضية والفلوس النحاسية التي كانت وحدة التعامل الصغرى التي تعود أهل القيروان على التعامل بها ، وجعل الدرهم هو وحدة التعامل الصغرى (٢). غير أن ذلك الاصلاح قد أدى الى ثورة عامة من أهل القيروان لما سيلحق بهم من اضرار جسيمة بسبب ذلك وفي هذا الصدد يتحدث ابن عذاري عن تلك الثورة قائلاً : " وذلك أن ابراهيم بن أحمد ضرب الدراهم الصحاح وقطع ما كان يتعامل به من القطع ، فأنكرت ذلك العامة ، وغلقوا الحوانيت ، وتالفوا وصاروا الى رقادة وصاحوا على ابراهيم فحبسهم في الجامع . واتصل ذلك بأهل القيروان ، فخرجوا الى الباب وأظهروا المدافعة فوجه اليهم ابراهيم بن أحمد وزيره ابا عبد الله بن أبي اسحاق ، فرموه بالحجارة وسبوه .فانصرف الى السلطان ابراهيم بن احمد ، فأعلمه بذلك . فركب ابراهيم الى القيروان ومعه حاجبه نصر بن الصمصامه في جماعة من الجند فناصبه أهل القيروان القتال . فتقدم ابراهيم بن أحمد الى المصلى فنزل وجلس ، وكف أصحابه عن قتالهم . فلما اطمأن به مجلسه ، وهدأ الناس ، خرج اليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث فكان بينهما كلام كثير ، ودخل أبو عبد الله بن أبي اسحاق الوزير مدينة القيروان مع أحمد بن مغيث . فشق سماطها وسكن أهلها ، فرجع ابراهيم بن أحمد الى رقاده وأطلق المحبوسين بالجامع ،وانقطعت النقود والقطع من

---

(١) المغرب الإسلامي . ص٧٦ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي . ج٢. ص ١٢٨ .

افريقية الى اليوم ، وضرب ابراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها العاشريه في كل دينار منها عشرة دراهم " [١] ويتضح من النص أن العامة من الناس قد أدركت قيمة ذلك الاصلاح ولعل في وجود شخصية العالم الفقيه أبو جعفر أحمد بن مغيث ما جعل الأمر يصل الى حد السلم والكف عن القتال لأن العلماء هم أفقه الناس بأحكام الشريعة . وعمليات الغش أمر ترفضه الشريعة لما فيها من الضرر بمصالح الناس ، وقاعدة دفع الضرر قاعدة معروفة في الفقه الاسلامي . كما أن العامة أدركت قيمة الاصلاح وان أضربها مبدئياً الاان ذلك الاصلاح سيؤدي فيما بعد الى قوة الحياة الاقتصادية بمنع كل محاولة للعبث فيها " ولم يخشى ابراهيم الثاني اغضاب العامة لفرض الاصلاحات الضرورية في هذا الميدان . وكلفت دار الضرب في الدولة بمراقبة السكةوضربها "[٢].

وهذا الاصلاح يبرز نقطة هامة في حياة ولاية افريقية الأغلبية حيث أن التعامل بالدرهم الفضي كوحده صغرى يوضح المستوى المعيشي الرفيع الذي أضحى لتلك الولاية في العهد الأغلبي [٣]. ومنذ ذلك اليوم صارت الدنانير والدراهم تؤخذ صرفاً لا وزناً[٤].

ولم تكن عمله الأغالبة تلك هي الوحيدة التي ظهرت آنذاك بل ظهرت نقود خاصة بالثوار مثل نقود منصور الطنبذي الذي ثار على الامير زيادة الله ودخل القيروان ومكث بها أربعين يوماً ، وهناك ضرب عمله كتب عليها اسمه وقد عثر على درهم فضة يشبه الدرهم الأغلبي وعلى حجمة تقريباً غير أنه بدلاً من كلمة (غلب) وضع لفظ

---

(١) البيان المغرب : ج١ . ص ١٦١ .

(٢) محمد الطالبي : الدول الأغلبية . ص ٧٥٧ . وراجع نفس المرجع ص ٣٠٢ ،٣٠٣، ٣٠٤ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع . ج٢. ص ١٢٩

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٣٣

(عدل) وبدلاً من أسم الأمير الأغلبي ذكر أسم (منصور بن نصر)[١].

كما ظهرت نقود المعسكر التي ضربها القائد محمد بن الجواري من دراهم فضيه وفلوس نحاسية اضطر الى ضربها أثناء فتح المسلمين لجزيرة صقلية لسد حاجات المعسكر وقد عثر في متحف اللوفر في باريس على أحدها بتاريخ سنة ٢١٤هـ[٢]

وهناك نقود الصلة التي كانت تدفع في مناسبات خاصة كالأعياد ورأس السنة الى الخلفاء وكبار رجال دولتهم تختلف أوزانها عن المعتاد حيث تبلغ أضعاف أوزانها الجارية مثل هدية زيادة الله الثالث آخر امراء الأغالبة الى الخليفة العباسي المكتفي بالله ، فقد كانت عشرة آلاف درهم وزن كل درهم عشرة دراهم من المعتاده وألف دينار في كل دينار وزن عشرة دنانير من الجارية وقد كتب على الوجة الأول

ياسائرا نحو الخليفة قل له — ان قد كفاك لله امرك كلـه

بزيادة الله بن عبد اللـــه — سيف الله دون الخليفة سله

وفي الوجة الاخر :-

ما ينبري لك بالشفاء منافعه — الا استبـــاح حريمـه وأحـله

من لا يرى لك طاعة فالله قد — أعماه عن طرق الهدى وأضله[٣].

ولم تتغير أوزان العملة الجارية في العهد الأغلبي سواءً الدينار أو الدرهم الافي عهد الأمير زيادة الله الثالث وكان تغيراً بسيطاً حيث أضحى وزن الينار ٤.١٢ جرام[٤] ، ولعل السبب في ذلك هو الاضطراب السياسي الذي حدث اثناء امارته بظهور الدعوة الشعبية في افريقيه سافرة عن وجهها .

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ج١ . ص ٤٣٠ - الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ص ٧٦ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٣١

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات . القسم الأول . ص ٤٣٤ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع . ص٤١٤ .

العوامل التي ساعدت على ازدهار اقتصاد الأغالبة :-

تضافرت عدة عوامل فيما بينها أدت الى ازدهار الحياة الاقتصادية زمن دولة الأغالبة ، وان كان للأستقرار السياسي والأمني الذي كفله الأمراء الأغالبة لافريقيه اكبر الأثر في ذلك الازدهار الا أنه لابد من القول أن عوامل اخرى كانت نتاج ذلك الاستقرار هي التي دفعت بالحياة الاقتصادية قدماً حتى وصلت الى تلك النقلة الكبرى . ولعل أهمها :-

١- الالتزام بالتعاليم الاسلامية في الحياة الاقتصادية .

٢- سهولة التعامل النقدي (فقد كانت تأخذ بنظام النقد المزدوج) .

٣- رقي الصناعة وتقدمها وتنوعها .

٤- ارتفاع مستوى المعيشة وشيوع حياة الرخاء والترف .

٥- تنوع طرق المواصلات (البرية والبحرية) .

٦- توفر المواد الخام واليد العامله المدربة .

٧- التنوع في صادرات الدوله ووارداتها .

٨- التنظيم الجيد للأسواق ومراقبتها جيداً .

٩- هيمنة الأغالبة على الجزء الشرقي والأوسط من حوض البحر المتوسط .

الخاتمة

وبعد فقد استعرضت في بحثي هذا مدينة (القيروان) العاصمة الأولى لبلاد المغرب في عهد بني الأغلب (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) وهذه الفترة هي منعطف هام في تاريخ تلك المدينة .

فلاشك أن المراحل السابقة لإمارة بني الأغلب كانت شغل الخلفاء العباسيين في المشرق ، ومن ثم كان دور الأغالبة كنواب للخلافة دور له مابعده ، اذ تبين لنا كيف تحقق للأغالبة بجهودهم الجباره اقرار الأمن للقيروان والمحافظة عليها من النحل الغير سنية الأثر الذي ظل حتى العصر الحالي.

كما كان للتطور الحضاري الذي غدت القيروان فيه في عصرهم ما يدلل نؤكد على أهمية الأعمال المختلفة التي قام بها أمراء الأغالبة والعناية الفائقة التي حظيت بها في كافة المجالات ، ولم يكن دافع أمراء الأغالبة إلى ذلك إلا الحرص علي اخراج القيروان عاصمة الإسلام الأولى هناك من دائرة المعاناة الشديده التي كانت فيها والوصول بها الي ماكانت عليه زمن عصر القاده والولاة الأول كعهد حسان بن النعمان واسماعيل بن عبيد الله لتؤدي الدور المناط بها .

ولعل مما يؤكد ذلك هذه الجهود المستمرة في قمع الفتن والقضاء على الإضطرابات في كافة أفريقية لضمان سلامة القيروان ، وبالتالي الإهتمام بالمرافق المختلفة لتسهيل كل سبل الحياه الطيبة ، وقبل هذا وذاك العناية الكبرى بالركيزة الأولى في المدينة وهو المسجد توسعة وتجديدا .

وربما كان للعناصر المكونة للمدينة أثره المحمود في تعاضد الجميع حكاماً ومحكومين للقيام بواجبهم ، ثم كان لحسن الصلة بين جميع تلك العناصر من أمراء

وعلماء وتجار وصناع ماأسهم بشكل كبير في عملية التكافل الإجتماعي ، وبالتالي الرقي الإجتماعي الذي وصلت إليه المدينة آنذاك .

لقد أدى أمراء الأغالبة كولاة أمر دورهم خير أداء باذلين في سبيل ذلك أقصى الجهود الممكنة ، ولعل الذي ساعدهم على ذلك استقلالهم بأمر أفريقية ذاتيا وتبعيتهم للعباسيين اسمياً مما أصبغ امارتهم سمة لم تعرفها أفريقية من قبل .

ولابد أننا أدركنا قيمة النشاط العلمي الذي حفلت به القيروان في تلك الفترة وأثره في انتاج جيل واعٍ مثقف مدرك لجليل الأمور وصغيرها ، حريص على التلقي والتعلم ، قادر على الإنتاج ، ومن ثم حفلت القيروان بعدد كبير من العلماء الذين كان لهم باع كبير في مختلف فروع العلم .

ولعل أكبر أثر لنشاط العلماء من المالكية يتضح في دورهم في تثبيت المذهب المالكي في القيروان وسائر أفريقية ومحافظتهم عليه كحفاظهم علي العقيدة السليمة سواءً بسواء غير مبالين بما يلحقهم من أذى أو مايصيبهم من محن .

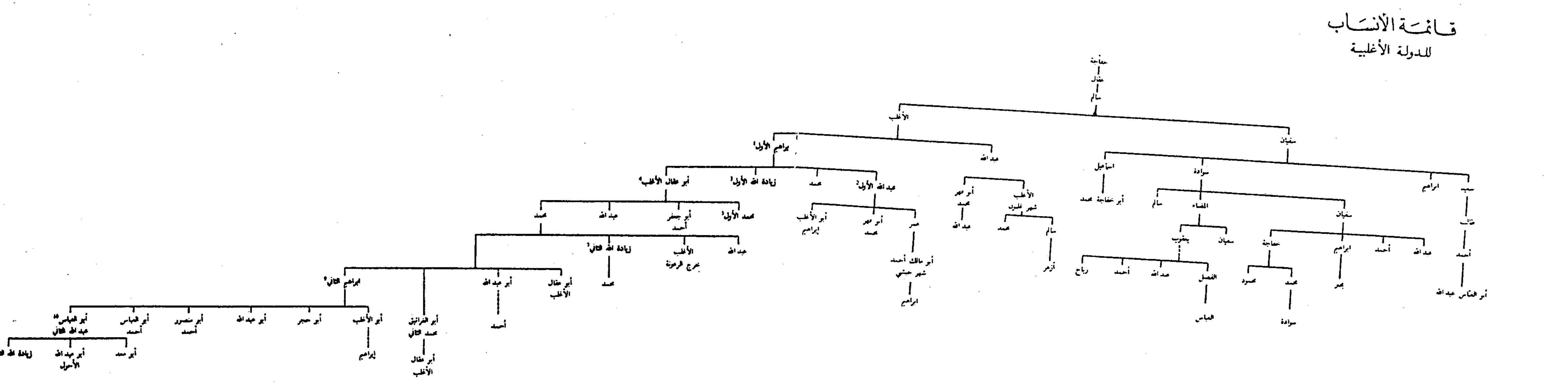
لقد أدت فئات المجتمع جميعها مسؤوليتها في الرقي الإقتصادي للبلاد ، فكان الزراع من القيروان يخرجون في مواسم الحصاد لجني الثمار ، وكان التجار يرتادون متاجرهم والكبار من تجارهم يضربون الفيافي قاصدين مشارق الأرض ومغاربها ، والصناع يحذقون صناعتهم ومطورين لها بين الحين والآخر .

ولم تكن الإختلافات العقائدية عائقا في سبيل تعاون الجميع في ذلك المجال . على أنه من جهةٍ ثانيه كانت الدولة وعلماؤها الأجلاء يحرصون على سلامة كل المعاملات الأقتصادية بسيرها وفق النهج الإسلامي - اذ كان أهل الكتاب وخاصة اليهود من عناصر العملية الإقتصادية في القيروان خاصة في التجارة والصيرفة ، فكانت وظيفة عامل السوق - رئيس المظالم (المحتسب) ضابطا للنشاط الإقتصادي في كافة توجهاته .

هذا وكان لحرص الدولة الأغلبية على دفع عجلة الحياه الإقتصادية قدما ماأسهموا به في تنشيطها بشكل كبير وذلك بانشاء المنشآت المتعددة من طرق مواصلات ، وتنظيم الأسواق وانشاء أكثر من دور ضرب في أفريقيه ورعاية كل ذلك واشراف عليه وأخيرا فلابد من القول بعد هذه الدراسة أن القيروان غدت في عهد بني الأغلب قوية ، نامية متحضرة مزدهرة وتتضح تلك الصورة بجلاء بالمقارنة بصورتها في الفترة التي سبقت عهدهم .

أسأل الله أن أكون قد وفقت وسددت ووفيت ، فان كان كذلك فمن الله تعالى الفضل ، وان كان في العمل من القصور فلاعجب في ذلك فهو عمل بشر وليس لبشر سمات الكمال على الإطلاق .

قائمة الأنساب
للدولة الأغلبية



قائمة المراجع والمصادر

أولاً : قائمة المصادر

ثانياً : قائمة المراجع الحديثة

ثالثاً : البحوث والدراسات العربية

رابعاً : قائمة المراجع والبحوث الأجنبية

أولاً - قائمة المصادر

١ القرآن الكريم

ابن فضل الله العمري : (ت ٧٤٩هـ) :

٢ مسالك الأبصار وممالك الأمصار الجزء الثاني

مخطوطه مصورة في جامعة أم القرى قسم الطالبات . رقم ٤٧/١ .

ابن الأبار : (ت ٦٥٨هـ)

٣ الحلة السيراء تحقيق وتعليق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة .

القاهرة . جزءان - ط ١ ١٩٦٣م

ابن أبي أصيبعه : (ت ٦٦٨هـ)

٤ عيون الأنباء في طبقات الأطباء . شرح وتحقيق نزار راضي

منشورات مكتبة الحياة - بيروت سنة ١٩٦٥م

ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ) :

٥ الكامل في التاريخ .الطبعة الخامسة : ٩ أجزاء دار الكتاب العربي - بيروت -

١٤٠٥هـ .

ابن بطوطه : (٧٧٩هـ)

٦ تحفة النظار في غرائب الأسفار . تحقيق الدكتور علي المنتصر - الطبعة الرابعة .

مؤسسة الرسالة بيروت - ١٤٠٥هـ .

البكري : (ت ٤٨٧هـ) .

٧ المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب . وهو جزء من كتاب المسالك والممالك .

طبعة دي سيلان ، الجزائر ١٨٥٧م .

البلاذري : (ت٢٧٩هـ)

٨ فتوح البلدان . دار الكتب العلميه . بيروت ١٤٠٣هـ .

التيجاني : (ت ٧٠٦هـ)

٩ الرحلة . تحقيق الأستاذ حسن حسني عبدالوهابتونس ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م

الجزنائي : (ت أواخر القرن ٨ هـ)

١٠ زهرة الأس في بناء مدينة فاس . نشر الغردبل الجزائر ١٣٤١هـ .

ابن حزم (٤٥٦هـ) :

١١ جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية . بيروت /١٤٠٣هـ .

الحميري (ت ٩٠٠هـ):

١٢ الروضي المعطار في خبر الأقطار . تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان . بيروت .

ابن حوقل (ت في القرن الرابع الهجري)

١٣ صورة الأرض . منشودات دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٧٩م .

ابن خرداذبه : (ت ٣٠٠هـ)

١٤ كتاب المسالك والممالك . نشر دي نويه - لندن ١٣٠٦هـ .

ابن الخطيب : (ت ٧٦٦هـ)

١٥ تاريخ المغرب في العصر الوسيط . الجزء الثالث من أعمال الأعلام تحقيق أحمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكنعاني . دار الكتاب - الدار البيضاء سنة ١٩٦٤م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ)

١٦ (١) تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان والمبتدأ والخبر . سبعة أجزاء - دار الفكر / القاهرة

(٢) المقدمة - طبعة القاهرة . بدون تاريخ الطبع .

الدباغ : (ت ٦٩٦هـ)

١٧ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . تحقيق د/ محمد أبو النور و محمد ناضور - مكتبة الخانجي - مصر ١٩٧٢م .

ابن أبي دينار: (عاش في القرن الحادي عشر الهجري) :

١٨ المؤنس في أخبار أفريقية وتونس . تونس . ١٢٨٦هـ .

الذهبي (ت٧٤٨)

معرفة القراء الكبار على الطبقات جزءان ط أولى مصر ١٩٥٩م .

الرقيق القيرواني : (ت ٤١٧هـ) :

١٩ تاريخ أفريقية والمغرب . تحقيق المنجي الكعبي مطبعة رفيق السقطي ، تونس .

ابن السراج : (ت ١١٤٩هـ)

٢٠ الحلل السندسيه في الأخبار التونسيه ، تحقيق د/الحبيب الهيله - دار الكتب الشرقيه . تونس .

السلادي الناصري : (ت ١٣١٥هـ) :

٢١ الإستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى . تحقيق وتعليق محمد مجعفر الناصري + ١٠ أجزاء ،، الدار البيضاء . مطبعة دار الكتب ١٩٥٤م .

السيوطي (ت٩١١هـ) :

٢٢ بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة .

الشافعي (٢٠٤هـ):

٢٣ الأم الطبعة الثانية - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٣هـ .

الشهرستاني (ت٥٤٨هـ) :

٢٤ الفصل في الملل والأهواء والنحل . الطبعة الثانية . دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٥هـ .

الأصطخري (النصف الأول من القرن الرابع الهجري) :

٢٥ المسالك والممالك . تحقيق الدكتور / محمد جابر عبد العال / القاهرة . ١٣٨١هـ

الطبري (ت٣١٠هـ) :

٢٦ تاريخ الرسل والملوك . عشرة أجزاء . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ .

عبد الباقي اليماني (ت ٧٤٣هـ) :

٢٧ اشارة التعيين في ترجم النحاه واللغويين . تحقيق الدكتور عبدالمجيد دياب . الطبعة الأولى . شركة الطباعة السعودية - الرياض ١٤٠٦هـ .

ابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) :

٢٨ الاستيعاب في معرفة الأصحاب دار الكتب العلمية - بيروت . ١٩٧٨م .

ابن عبدالحكيم (ت ٢٥٧هـ) :

٢٩ فتوح مصر والمغرب . تحقيق عبدالمنعم عامر . مطبعة البيان العربي . القاهرة سنة ١٩٦١م .

ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ) :

٣٠ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ريخرت دزي مكتبة صادر بيروت - ١٨٤٨م .

أبو العرب التميمي (ت ٣٣٣ هـ)

٣١ طبقات علماء أفريقية وتونس . منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت . بدون تاريخ للطبعة .

عياض اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) :

٣٢ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . الجزء الأول . تحقيق محمد بن ناوت الطيخي ، الجزء الثاني والثالث والرابع تحقيق عبدالقادر الصحراوي ، الجزء الخامس تحقيق محمد بن شريفه والجزء السادس تحقيق سعيد أحمد أعراب . سبعة أجزاء - الطبعة الثانية - المغرب - ١٤٠٣هـ .

- تراجم أغلبيه مستخرجه من مدارك القاضي عياض - تحقيق محمد الطالبي -
٣٣ المطبعة الرسمية التونسية - تونس - ١٩٦٨م .

ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ) :

٣٤ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذاهب . تحقيق د/محمد الأحمدي أبو النور / دار التراث - القاهرة - بدون تاريخ الطبع .

ابن الفقيه الهمذاني (ت ٢٨٤ هـ) :

٣٥ مختصر كتاب البلدان . طبعة ليون - ١٣٠٢م .

ابن قدامه (ت ٦٢٠ هـ) :

٣٦ المغني ١٢ جزء ، دار الكتاب العربي - بيروت سنة ١٣٩٢هـ .

القلقشندي (ت ٨٢١هـ):

٣٧ صبح الأعشى في صناعة الأنشا- شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين - أربعة عشر جزاءاً . دار الكتب العلمية . بيروت - ١٤٠٧هـ .

المالكي (ت ٤٣٨ هـ) :

٣٨ رياض النفوس تحقيق حسين مؤنس . دار النهضة المصرية - القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٥١م .

الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) :

٣٩ الأحكام السلطانية والولايات الدينية . دارالكتب العربية . بيروت ١٣٩٨هـ .

مسلم (ت ٢٦١هـ) :

٤٠ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ، الطبعة الثالثة . دار الفكر - بيروت ١٣٩٨هـ .

المقدسي (ت ٣٨٨ هـ) :

٤١ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نشر دي غويه ، ليرن ، ١٩٠٦م .

المقريزي (ت ٨٤٥هـ) :

٤٢ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، مكتبة المثني ، بغداد ، بدون تاريخ الطبع .

مؤلف مجهول (من كتاب القرن السادس الهجري) :

٤٣ الإستبصار في عجائب الأمصار . تحقيق . الدكتور / سعد زغلول عبد الحميد . الإسكندرية ص ١٩٥٨ .

النويري (ت ٧٣٣ هـ) :

٤٤ نهاية الأدب في فنون الأدب

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ):

٤٥ كتاب معجم البلدان . خمسة أجزاء .

يحي بن أدم القرشي (ت ٢٠٣ هـ):

٤٦ الخراج - دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت ١٣٩٩هـ .

٤٧ **يحي بن عمر** : أحكام السوق . تونس . ١٩٧٥م .

اليعقوبي (٢٨٢ هـ) :

٤٨ كتاب البلدان . نشر دي غويه - ليرن ١٩٦٧ .

ثانيا - قائمة المراجع الحديثة

١ - ابراهيم بيضون : **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري** . دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩م .

٢ - ابراهيم رشيد الناضوري : **المغرب الكبير - العصور القديمة** - دار النهضة العربية . بيروت ١٩٨١م

٣ - أبو صالح الألفي : **الفن الإسلامي** - الطبعة الثانية . دار المعارف . مصر .

٤ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : **عصر القيروان** ، دار المغرب العربي . تونس. ١٩٧٣م

٥ - أحمد أمين . **ضحى الإسلام** . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٣٨٨هـ .

٦ - أحمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها - الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م.

٧ - أحمد فكري : **مسجد القيروان** . مطبعة المعارف . مصر ١٣٥٥هـ .

٨- أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا . مطبعة دار الكتب - بيروت ١٣٩١هـ .

٩ - أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية .

١٠ - آدم متز : **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** . ترجمة عبدالهادي أبو ريده ط ٤ - دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧ هـ .

١١ - أرشيبالد لويس : **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط** - ترجمة أحمد محمد عيسى - مكتبة النهضة المصرية .

١٢ - أنور الرفاعي : **النظم الإسلامية** . دار الفكر . دمشق - ١٩٧٣م

١٣ - البشير بن سلامه : **الشخصية التونسية خصائصها ومقوماتها** . الشركة

التونسية ، تونس ، ١٩٧٤م .

١٤ - ج - ديبوا : تونس . **تعريب الصادق مازيغ** . الدار التونسية للنشر تونس ١٩٦٩م .

١٥- جوزيف يوسف : دداسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى مؤسسة شباب الجامعة . الاسكندرية .١٩٨٣م .

١٦ - الحبيب الجنحاني : **المغرب الإسلامي** - الحياة الإقتصادية والإجتماعية (٤٠٣ هـ) الدار التونسية للنشر . ١٩٧٨م

١٧ - الحبيب الجنحاني : **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي** - الدار التونسية للنشر . ١٩٦٨م

١٧- حسام الدين السامرائي : **المؤسسات الادارية في الدولة العباسية** دارالفكر ١٤٠٣

١٨ - حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والإجتماعي** . ج ٣ الطبعة السابعة . ١٩٦٤ م

١٩ - حسن أحمد محمود : **الإسلام والثقافة العربية بأفريقية** . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٦ م .

٢٠ - حسن أحمد محمود ، وأحمد الشريف : **العالم الإسلامي في العصر العباسي** . الطبعة الخامسة . دار الفكر العربي - القاهرة

٢١ - حسن الباشا : **مدخل إلى الآثار الإسلامية** - دار النهضة العربية - القاهرة- ١٩٧٩م .

٢٢ - حسن حسني عبد الوهاب : **ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية** - ثلاثة أجزاء - مكتبة المنار. تونس . ١٩٧٢م .

٢٣ - حسن حسني عبدالوهاب : **بساط العقيق** . مكتبة المنار - تونس - ١٩٧٠م.

٢٤ - حسن النجعي - **معجم المصطلحات التجاريه والمصرفيه** القاهرة ١٩٧١م

٢٥ - حسين مؤنس - **المساجد** - عالم المعرفة - الكويت . ١٤٠١ هـ .

٢٦ - حسين مؤنس - **فجر الأندلس** . القاهرة . ١٩٥٩م .

٢٧ - دوزي : **تاريخ مسلمي أسبانيا** - تعريب د. حسن حبشي . جـ ١ . ١٣٨٢هـ .

٢٨ - زاهر رياض : **الممالك الإسلاميه في غرب أفريقيا** - مكتبة الأنجلو - القاهرة - ١٩٦٨م .

٢٩ - زكي محمد حسن : **فنون الإسلام** . القاهرة ١٩٤٨م

٣٠ - سعد زغلول عبدالحميد - **تاريخ المغرب العربي** . جزءان - منشأة المعارف . الإسكندرية - ١٩٧٩م

٣١ - سعاد ماهر . **العمارة الإسلامية** - ط ١ . دار البيان العربي - جده - ١٤٠٤هـ .

٣٢- سهام أبو زيد : الحسبه في مصر الاسلامية . الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٨٦م .

٣٣ - سيد سابق - **فقه السنة** . دار الكتاب العربي - بيروت . سنة ١٣٩١هـ .

٣٤ - السيد عبدالعزيز سالم - **المغرب الكبير** - العصر الإسلامي - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م .

٣٥- فؤاد الصقار : جغرافية التجارة الدولية . منشأة المعارف . الاسكندرية سنة ١٩٧٣م .

٣٦ - السيد محمد أبو العزم داود - **الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتي قيام دولة المرابطين** - مكتبة الفيصلية . مكه المكرمة - ١٤٠٥هـ .

٣٧ - السيد محمد الوكيل - **الحركة العلمية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه** - دار المجتمع - جده ١٤٠٦هـ .

٣٨ - شكري فيصل - **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري** ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٧٣م

٣٩ - شكري فيصل - **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري** ، دار العلم للملايين - بيروت . ١٩٥٢م .

٤٠ - صالح باجيه - **الأباضية بالجريد** . دار بو سلامه للطباعة والنشر . تونس . الطبعة الأولى - ١٩٧٦م .

٤١ - الطاهر أحمد الزاوي - **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** - دار التراث العربي - ليبيا ، الطبعة الثالثة . ١٩٧٢م

٤٢ - الطاهر المعموري - **جامع الزيتونه ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي** - دار العربية للكتاب - طرابلس - ١٩٨٠م .

٤٣ - عبدالبديع صقر - **مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف** - المكتب الإسلامي . بيروت - ١٣٩١هـ .

٤٤ - عبد الرحمن حسن عنكبه الميداني : **ضوابط المعرفة** ، دار القلم ، دمشق ، ط ٣ ، ١٤٠٨هـ .

٤٥ - عبدالرحمن عثمان حجازي - **المذهب التربوي عند ابن سحنون** . مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤٠٦هـ .

٤٦ - عبد العزيز بن عبدالله - **تاريخ المغرب** ، مكتبة السلام ، الدار البيضاء

٤٧ - عبد العزيز المجدوب - **الصراع المذهبي بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية** ، الطبعة الثانية ، الدار التونسية للنشر .تونس - ١٩٨٥م .

٤٨ - عبدالعظيم رمضان - **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية** ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٨٣م .

٤٩ - عبدالعليم عبدالرحمن خضر - **الإسلام والمسلمون في أفريقية الشمالية** - عالم المعرفة - جده - ١٤٠٦هـ .

٥٠ - عبدالمنعم ماجد - **العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى** ، مكتبة الجامعة العربية - بيروت ، ١٩٦٦م .

٥١ - عثمان الكعاك -**المجتمع التونسي على عهد الأغالبة** ،تونس،الطبعة الأولى مركز الثقافة في المغرب معهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٥٨م .

٥٢ - عز الدين أحمد موسى - **النشاط الإقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري** ، دار الشروق ، بيروت القاهرة ، ١٤٠٣هـ .

٥٣ - عطيه القوصي - **تجارة مصر في البحر الأحمر** ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

٤٥ - علي حبيبه - **مع المسلمين في الأندلس** ، دار الشروق ، جده ، الطبعة الثانية .

٥٥ - علي حسن الخربوطلي - **الإسلام في حوض المتوسط** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠م

٥٦ - عوض خليفات - **نشأت الحركة الأباضية** - عمان . ١٩٧٨م .

٥٧ - غالب عبدالكافي : **أوليات الفاروق السياسية** . مكتبة الحرمين - الرياض ١٤٠٣هـ

٥٨ - فرج محمد الهوني - **النظم الإدارية والمالية في الدول العربية الإسلامية** - مطابع الثورة - بنغازي ، ١٣٩٦ هـ .

٥٩ - ف . هايد . **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى** . تعريب أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

٦٠ - محمد أبوزهره - **تاريخ المذاهب الإسلامية** ، مطبعة السعاده ، القاهرة .

٦١ - محمد أحمد حسونه - **أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الأسلامية** - دار نهضة مصر . القاهرة .

٦٢ - محمد البهي - **الإسلام والرق** .

٦٣ - محمد الطالبي - **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (١٨٤ - ٢٩٦هـ)** تعريب المنجي الصياد - دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٥م .

٦٤ - محمد الطالبي - **دراسات في تاريخ أفريقية** - المطبعة الرسمية التونسية . تونس ١٩٨٢م .

٦٥ - محمد ضياء الدين الريس : **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية.** الطبعة الرابعة . دار الأنصار . القاهرة ١٩٧١م .

٦٦ - محمد عادل عبدالعزيز . **التربية الإسلامية في المغرب** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، ١٩٨٧م .

٦٧ - محمد العروسي المطوي - **سيرة القيروان ورسائلها الدينية والثقافية في المغرب** - الدار العلمية للكتاب ، تونس ، ١٩٨١م.

٦٨ - محمد عبدالغني مسعودي - **قضايا أفريقية** ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٤٠٠هـ .

٦٩ - محمد علي دبوز - **تاريخ المغرب الكبير** - مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة - الطبعةالأولى .

٧٠ - محمد عيسى - **مقدمات في البناء السياسي للمغرب الإسلامي** ، دار القلم ، الكويت ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ ،

٧١ - محمد الفاضل بن عاشور - **أعلام الفكر في المغرب** ، الدار التونسية للنشر ، تونس .

٧٢ - محمد الفعر - **الإقتصاد الإسلامي** - دار البيان العربي ، جده ، ١٤٠٥هـ.

٧٣ - محمد محمد زيتون - **القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية** ، دار المنار ، ١٤٠٨هـ.

٧٤ - محمود اسماعيل عبدالرزاق - **الأغالبة وسياستهم الخارجية** ، مكتبة سعيد رأفت ١٩٧٢م .

٧٥ - محمود اسماعيل عبدالرزاق - **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** ، دار الثقافة - الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م .

٧٦ - محمود شيت خطاب - **قادة فتح المغرب العربي** ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ .

٧٧ - مناع القطان - **مباحث في علوم القرآن** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٠ه.

٧٨ - الميرالاي اسماعيل سرهنك - **تاريخ دول المغرب** ، دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .

٧٩ - موسى لقبال - **الحسبه المذهبية في بلاد المغرب** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الأولى - ، ١٩٧١م .

٨٠ - نجاة باشا - **التجارة في المغرب الإسلامي** ، تونس ، ١٩٧٦م .

٨١ - هند شلبي - **القراءات بأفريقية** - الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٣م .

٨٢ - وليم كارل - **اليهود وراء كل جريمة** ، شرح وتعليق خيرالله طلفاح ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ .

٨٣ - وهبه الزحيلي - **الفقه الإسلامي وأدلته** دار الفكر - دمشق١٩٨٤م .

٨٤ - يسري الجوهري - **شمال أفريقيه** - دراسة في الجغرافيا التاريخية ، مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية .

٨٥ - يسري عبدالغني : **المدينة العربية الإسلامية** - دارالنهضة العربية .

ثالثا - البحوث والدراسات العربية

١ - ثريا حافظ عرفه :

الحياه الإقتصادية في بلاد الشام في العصرالأموي - رسالة دكتوراه - جامعة أم القرى - كلية الشريعة - ١٤٠٩هـ .

٢ - حسني ابراهيم مبارك :

التطور الإقتصادي لولاية أفريقية في عهد الأغالبه - رسالة ماجستير - جامعة القاهرة - كلية الآداب - ١٤٠٩هـ .

٣ - حوريه عبده سلام :

علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح العربي حتي قيام الدولة الفاطمية - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة - ١٩٧٤م .

٤ - سيد أحمد العراقي :

تجارة القوافل بين شمال وغربي أفريقيا وأثرها الحضاري .

مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، ١٤٠٤هـ .

٥ - سوادي عبد محمد:

صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي - من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع - مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث والأربعون - بغداد - ١٤١٠هـ .

٦ - صباح ابراهيم الشيخلي :

النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي المغربي حتى نهاية القرن ٥ هـ /١١م - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بغداد / ١٤٠٤هـ.

٧ - فوزية محمد نوح :

البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبه - رسالة ماجستير - جامعة أم القرى - كلية الشريعة ، ١٤٠٤هـ

٨ - يحي بوعزيز :

طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى

مجلة معهد البحوث والدراسات العربية . بغداد - ١٤٠٤هـ

٩ - يوسف حواله :

الحياه العلمية في أفريقية منذ اتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري - رسالة دكتوراه - جامعة أم القري - كلية الشريعة - قسم التاريخ - ١٤٠٥هـ .

رابعاً - قائمة المراجع والبحوث الأجنبية

1- Muhammad Abu -LFaraj Al-ush : Monnaies Aglabides `etudiees en relation avec l'histoire des Aglabides - Damas .1982.

2 - Abdullah Ali Al-zaidan

The People of Qayrawan September 1978.

The Degree of Doctor - London.

3 - Jamila Binous - Fatma Ben bechr - Jellal Abdelkofi :

Tunis , tombeau cles Beni Aghlob - Tunis - 1985 .

4 - Hicham Djait - Farhat Dachroui : Histoire De la Tunisie Le Moyen Age - 1969 .